

ابو هلال العسکری  
ومقاييسه البلاغية

تألف

بدوى احمد طبانه

المدرس بكلية دار العلوم - جامعة فؤاد الأول

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

القاهرة  
١٩٥٢ - ١٣٧١

# ابو هلال العسكتري

ومقاييسه البلاغية

تأليف

## بدوى احمد طحانة

المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

القاهرة

١٣٧١ - ١٩٥٢ م

## للمؤلف

### معروف الرصافي :

دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية

الطبعة الأولى : مطبعة السعادة — القاهرة ١٩٤٧ (نقد)

### أدب المرأة العراقية :

الطبعة الأولى : مطبعة العالم العربي — القاهرة ١٩٤٨

### أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية :

الطبعة الأولى : مطبعة مخيم — القاهرة ١٩٥٢

### نهضة الأدب في العصر الحديث :

( بالاشتراك مع الاستاذ محمود ابراهيم )

الطبعة الثالثة : مطبعة الزمان — بغداد ١٩٤٧ (نقد)

### تحت الطابع :

جريدة القصر ، وجريدة العصر ، للعاد الاصفهانى :

تحقيق ، وشرح ، وتعريف



لله هر را

إذا لم يكن بد من الاهداء ،  
فالي أحق الناس بهذا الاهداء ،  
أطفالى: بهجت ، وبسام ، و بتول  
الذين ضننت عليهم بالوقت  
الذى أنفقته فى هذا العمل . . .

## فهرس

# أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية

مراجع البحث . . . . .	٧
تصدير . . . . .	٩
تقديم :	
البلاغة بين التراث العربي . . . . .	١٣
النحو العلمي في نقد الأدب . . . . .	١٥
حملات على البلاغة العربية . . . . .	١٧
<b>الفصل الأول: أبو هلال</b>	
عسكري مكرم ، أبو أحمد وأبو هلال . . . . .	٢١
حياة أبي هلال . . . . .	٢٥
أسانته ، تفاصيله ، معنى الأدب ، آثاره . . . . .	٣٠
كتاب الصناعتين ، ديوان المعاني . . . . .	٤٠
تحقيق نسبة رسالة التفضيل بين بلاغتي العرب والمعجم إلى أبي هلال . . . . .	٤٤
شعره ونماذج منه . . . . .	٤٦
<b>الفصل الثاني: النقد والبلاغة قبل أبي هلال</b>	
تراث الأدب العربي ، ومنزلة الشعر منه . . . . .	٤٨
النقد عند الجاهليين والإسلاميين وعيوبه . . . . .	٥١
ابن سلام ، وكتابه « طبقات الشعراء » . . . . .	٥٥
الباحث والبيان العربي . . . . .	٥٩
ابن قتيبة وثورته على أحكام القدماء ومحاولته التجديد . . . . .	٦٠
ابن المعتز وعلم البديع . . . . .	٦٣
قدامة والأسلوب العلمي في نقد الأدب . . . . .	٦٤

بعدى المنهج العلمى (الأمدى والقاضى الجرجانى) ... ... ... ... ... ٦٥  
بين النقد والبلاغة ... ... ... ... ... ... ... ... ٦٩

### الفصل الثالث : مذاهب بلاغته

تمكينه من علمي الرواية والدراءة . ... ... ... ... ... ٧٢  
فادته من البيان والتبيين ... ... ... ... ... ٧٤  
بادع ابن المعز وولوع أبي هلال بالصناعة ... ... ... ... ٧٥  
متتابعته لقدامة ، بينه وبين ابن قتيبة ... ... ... ... ٧٦  
نثره بصاحب الموازنة والوساطة ... ... ... ... ٨١

### الفصل الرابع : منهج أبي هلال

مدارس النقد ومناهجه : اللغويون والنحاة والمتكلمون ... ... ... ... ٨٨  
مثل تلاقى هذه المذاهب عند ابن قتيبة ... ... ... ... ... ٩١  
الأهداف الذى رمى إليها أبو هلال : إعجاز القرآن ، الأحكام الأدية ... ... ٩٥  
رأيه فى أحكام السابقين ، الحاجة إلى منهج جديد ... ... ... ... ٩٧  
نوره من مذهب المتكلمين ، سبيبه ، حقيقته ، رأى عالم معاصر ... ... ١٠٠  
أمثلة لأسلوبه الكلامى . وأسلوبه اللغوى ... ... ... ... ... ١٠٥  
عزوفه عن المنهج التارىخى ... ... ... ... ... ... ١١١  
النقد التفسيرى ، والمنهج التعليمى ، منهج التصنيع ... ... ... ... ١١٣

### الفصل الخامس : المقايس

كلمة في وضع المقايس للفنون ، الفن والصناعة ... ... ... ... ... ١٢٣  
مقاييس الألفاظ : نظرية ( مدار البلاغة اللفظ وتحسينه ) ... ... ... ١٢٦  
مناقشة هذا الرأى ... ... ... ... ... ... ... ١٢٨  
طبقات الألفاظ : الوحشى ، المشترك ... ... ... ... ... ١٣٣  
السهل والجزل : المقبول منها والمردود ... ... ... ... ... ١٣٧  
تحسين الألفاظ — السجع والازدواج ... ... ... ... ... ١٤٢

الدول عن جهة الاستعمال ، الشاذ ، الضرورات ، التقدم والتأخير ...	١٤٥
مقاييس المعانى : التقليد والتجديد ... ... ... ... ...	١٤٨
الغلو ، الوحدة (التضمين) ، الإطالة ... ... ... ...	١٤٩
صحّة المعانى ... ... ... ... ...	١٥٣
مقاييس لأغراض الشعر : المدح ، الم賛 ، الوصف ، التشبيه ...	١٥٦
معانى الشعر : الحقيقة والخيال ، التشبيه : مقاييس استحسانه ...	١٦١
الاستعارة : الاستعارة المصيبة ، مقياسها ، الاستعارة الرديئة ...	١٦٣
السرقات : رأيه فيها ، توارد الخواطر ، ضروب الأخذ ...	١٦٥
مقياس حسن الأخذ وقياس قبحه ... ... ... ...	١٧٠

## الفصل السادس : بلاغة أبي هلال وأثرها في البلاغة والبلغيين

الفصاحة والبلاغة : مشكلة اللفظ والمعنى ، التعصب لكل من الرأيين ...	١٧٩
المسكري ، ابن الأثير ، عبد القاهر ، العلوى ، رأى البرد ...	١٨٠
التقليد والتجديد ، تقسيم الألفاظ (ابن الأثير) ...	١٨٦
علوم البلاغة ، جهود أبي هلال فيها ...	١٨٨
علم البيان : التشبيه ، والاستعارة ، والسكنية ...	١٩٠
الخلط بين التشبيه والاستعارة ...	١٩٢
علم المعانى : الإيجاز والإطناب والمساواة ...	٢٠٠
الإطناب والتطويل ، الفصل والوصل ...	٢٠٦
علم الديع : جهد ابن المعز ، جهد قدامة ...	٢٠٨
أثر أبي هلال في البديعيات ، محسنته السبعة :	٢١١
(١) التشطير (٢) المجاورة (٣) التطرير ...	٢١١
(٤) الاستشهاد والاحتجاج (٥) المضاعفة ...	٢١٥
(٦) التلطف (٧) المشتق ...	٢١٧
جهود المتأخرین في علم الديع ...	٢٢٠
آخر المذهب البديعی في النقد والأدب ...	٢٢٢

# مراجع البحث

أدب الكاتب	ابن قتيبة	القاهرة
أسرار البلاغة	عبد القاهر الجرجاني	١٩٤٧ م
أصول النقد الأدبي	أحمد الشايب	١٩٤٦ م
إنباء الرواية على أنباء النحاة	ابن القسطى	١٩٥٠ م
البديع	عبد الله بن المعتز	١٩٤٥ م
بلاغة أرساطو بين العرب وأيونان	الدكتور ابراهيم سلامة	١٩٥٠ م
البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها	أمين الحولي	١٩٢١ م
بغية الوعاء في طبقات اللغوين والنحاة	جلال الدين السيوطي	١٣٢٦ هـ
البيان والتبيين	عمرو بن بحر الجاحظ	١٣٥١ هـ
تاريخ آداب اللغة العربية	جرجي زيدان	١٩٣٠ م
تاريخ النقد الأدبي عند العرب	طه أحمد ابراهيم	١٩٣٧ م
التفصيل بين بلاغتي العرب والمعجم	أبو أحمد العسكري	١٣٢٠ هـ
الخطابة لأرساطو	ترجمة الدكتور ابراهيم سلامة	١٩٥٠ م
دلائل الإعجاز	عبد القاهر الجرجاني	١٩٤٧ م
ديوان المعانى	أبو هلال العسكري	١٣٥٢ هـ
شرح التلخيص	سعد الدين التفتازانى	١٣٤٢ هـ
الشعر والشعراء	ابن قتيبة	١٩٤٩ م

القاهرة م ١٣٢٠	أبو هلال العسكري	كتاب الصناعتين
القاهرة طبعة السعادة	محمد بن سلام	طبقات الشعراء
القاهرة م ١٩١٤	يحيى بن حمزة الملوى	الطراز
القاهرة م ١٩٠٧	ابن رشيق القيروانى	العمدة في صناعة الشعر وتقديره
القاهرة ه ١٣٤٨	محمد بن إسحق النديم	الفهرست
القاهرة صبيح	محمد بن يزيد البرد	الكامل
القاهرة ه ١٢٨٢	ضياء الدين بن الأثير	المثل السائر
القاهرة م ١٩٣٦	ياقوت	معجم الأدباء
القاهرة م ١٩٣٤	أبو هلال العسكري	المعجم في بقية الأشياء
عبدالرحمن بن محمد بن خلدون القاهرة التجارية	عبدالرحمن بن محمد بن خلدون القاهرة التجارية	مقدمة كتاب العبر
أبو يعقوب يوسف السكاكى الأدبية ه ١٣١٧	أبو يعقوب يوسف السكاكى الأدبية	مفتاح العلوم
القاهرة م ١٩٤٧	الدكتور محمد خلف الله	من الوجهة النفسية
بيروت م ١٩٤٦	منهج البحث في الآداب للأنسون ترجمة الدكتور محمد مندور	منهج البحث في الآداب للأنسون ترجمة الدكتور محمد مندور
القاهرة صبيح	الحسن بن بشر الأدمى	الموازنة بين أبي عام والبحترى
القاهرة ه ١٢٩٤	أبو البركات بن الأنبارى	زهوة الألباء في طبقات الأدباء
القاهرة م ١٩٤٨	قدامة بن جعفر	تقد الشعر
القاهرة م ١٩٤٨	الدكتور محمد مندور	القد المنهجي عند العرب
القاهرة م ١٩٣٧	مقدمة للدكتور طه حسين	تقد النثر
القاهرة م ١٩٤٥	القاضي الجرجانى	الواسطة بين المتنى وخصوصه
القاهرة م ١٩٣٦	أحمد بن محمد بن خملكان	وفيات الأعيان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تَصْدِير

أصل هذا الكتاب بحث تقدمت به إلى جامعة فؤاد الأول للحصول على درجة الماجستير<sup>(١)</sup> يسرني اليوم أن أقدمه إلى أولئك الذين اهتموا في اهتمام إلى مناقشته وتعجلوني طبعه ، وإلى أولئك الذين يرون في مثل هذه الدراسة بعض ما يرضي مشاعرهم ، ويؤثث اعتقادهم بقوميتهم وقومياتها ، حين يرون بين هذه المقومات ثروة متعددة الجوانب ، فيها الجانب الروحي ، الذي تعتبده العروبة ، و يتميز به الشرق المليم ، وفيها الجانب الفكري ، الذي يبدو فيه أثر اعتمال العقول ، واصطدام الأفكار .

ولعل الناحية التي يعرض لها هذا البحث من أبرز مظاهر ذلك الجانب الفكري عند العرب ، لأنها تعالج هذا التراث الفنى الذى اعترى به الأسلام ، وأولوه كل تقدير وتعبدوه بالحفظ والرواية ، ثم نظروا فيه نظرات عميقة

---

(١) نوقشت هذا البحث علانية مساء الخميس ٢٥ من شعبان سنة ١٣٧٠ هـ (٣١) من مايو سنة ١٩٥١ م ) وكانت هيئة التحكيم مكونة من حضرات الدكتور إبراهيم سلامة بك وصاحب العزة الأستاذ أمين الخلوي بك والأستاذ على الجندي بك ، وبعد مناقشة دامت نحو خمس ساعات قضت اللجنة بمنح المؤلف درجة الماجستير في اللغة العربية وأدابها والدراسات الإسلامية بتقدير ممتاز .

أبانت لهم أسرار الحسن ومواطن الجمال فيه .

وقد تناولت النهضة الحاضرة فيما تناولت من ألوان الحياة ومظاهر العمران نهضة أخرى في الفنون عامة ومنها الأدب الذي بعث بعثاً جديداً منذ عهد قريب ، وهب الشعر من رقده ، ونهض الشعراء من كبوتهم ، فتخلصوا من عوامل ضعف الشعر وهوائه ، وبشوئه معبراً عن مجتمعهم وخليجات نفوسهم ، وجدد المجددون ما وسعهم التجديد ، فكانت أبواب لم يلجهما السابقون ، وحطى النثر بحياة جديدة لا تزال تنموا وتزدهر وتتنوع أفنانها ، حتى أصبحت له المكانة المشهودة قصراً وخطابة وكتابة، حين دنا من أوساط الأمة ، وصور عواطفهم وجوانب حياتهم السياسية والاجتماعية وشرح أسباب القعود وعوامل التهوض .

ولقد تبعت تلك العناية بالأدب الإنساني عناية أخرى بتاريخه وتحليله وبيان أسباب القوة والجمال فيه ، وكان من أعلام النهضة الأدبية أفذاذ وقفوا جهودهم ومواهبهم على هذه الصناعة ، فأسدوا إليه خدمة جلية إذ شذدوا عرائم الأدباء وجنبواهم مزالق الضعف ، ونبهواهم إلى التوازن الجدير بالعلاج .

ولقد كانت الكثيرة الغالبة ذات الحول والطول من هؤلاء النقاد من الذين انتجموا الغرب ووقفوا على ما فيه من تيارات النقد ، أو من الذين تأدبو بأدبهم ، فنقدوا على هدى الغربيين ونقلوا إلى اللسان العربي آثارهم في النقد ، وكانت لهم حملات جوية نهت الأذهان وأيقظت النيام ، فسمع جهور المتأدبين للمرة الأولى نغمات جديدة على آذانهم ، منها ما نفرت منه الأسماع ، ومنها ما كان جديراً بالتأمل .

على أننا لا ننسى طافقة من النقاد عادت إلى تراث العربية تبحث فيه

عن "أساليبهم" في النقد ومناجهه عند مفكريهم فوجدوا فيه شيئاً ذا بال، فالفوا كتاباً في نقد الأدب العربي من وجهة نظر السابقين ، وجدوا في استخلاص مقاييس تصلح لقياس الأدب في شكله وجوهه ، إلا أن هذه الأصول التي استخلصوها لم تسد من الناحية التطبيقية ، ولم تظفر بعانياة النقاد المعاصرين ، ولم يستغلوها الاستغلال الجدى .

والبحث الذى أقدمه اليوم إلى الأدباء والنقاد حلقة في سلسلة جهود هؤلاء الباحثين ، أرجو أن يكون منها ومن سوابقها خير مشجع لإتمام دائرة البحث ، حتى يظفر الأدب العربي بمقاييس متباينة وقواعد متشابكة ، يأخذ بعضها بجزء بعض ، وت تكون منها أخيراً أصول عربية انبعثت عن أذواق عربية وعالجت فناً عرياً .

وإذا كان من فرق بين منهج هذا البحث واتجاهه وأبحاث هؤلاء العلماء من المعاصرين ، فذلك أنهم صبوا دراستهم صبغة تاريخية ، فتكلموا عن النقد ومنشته وحياته في العصور المختلفة ، وبعضهم سلك في دراسته مسلكاً فنياً ، ولكنه لا يخلو من ميل إلى الإجمال ، يحفزهم إلى هذا الإجمال رغبتهم في الشمول والإحاطة بالنظارات النقدية في تلك العصور الطويلة .

أما هذا البحث فإنه ينبع نهجاً آخر يعدل عن هذا التعميم ويستخدم شخصية واحدة من أعلام النقاد وأولى البصر بالفن الأدبي ، وإن تكون الشخصية كما يتضمن لمن ينعم النظر في هذه الدراسة غير مقصودة لذاتها ، وإنما المقصود تتبع تفكيرها والوقوف على مصادرها ومواردها ، باعتبارها ظاهرة فكرية لحقبة محدودة من الزمن .

على أن دراسة الشخصيات في مثل هذا الاتجاه أجدى وأنفع ، لتكون الجزيئات مفهوماً واضحـة المعالم قبل معالجة الكليات ، ومن الخير أن تفرد

لكل شخصية من هذه الشخصيات الفكرية ما تستحق من دراسة خاصة ، حتى إذا اكتملت تلك الدراسات ووضحت هذه الشخصيات كان من اليسير أن يستخلص منها ما يراد استخلاصه من أصول النقد وأساليبه بصفة عامة .

وما أحب أن أختتم هذه الكلمة قبل أن أزجي الشكر خالصاً لأستاذنا الجليل الدكتور إبراهيم بك سلامه الذي تفضل فأشرف على إعداد هذا البحث ، وكان لتوجيهه السيد أبعد الأثر في تذليل عقبات هذا السبيل الوعر وكان أدبه الشخصي وخلقته العلمي خير مشجع على خوض غمار هذا البحث في ثقة واطمئنان ، جزاء الله ما هو أهل له من الكرامة والجد .

وأثني بالشام على رائد من رواد العلم والأدب هو حضرة صاحب العزة الأستاذ أمين بك الخولي ، وعالم نبيل هو الأستاذ على بك الجندي ، عضوى لجنة الامتحان والحكم على الرسالة ، فلقد أفت من آرائهم وأمثالهما من ملاحظات .

لقد توج هؤلاء الرجال جهدى بتقديرهم ، وأكرم به تقديرآ من أمثالهم في متابعة الخلق ورجاحة العلم وسعة الأفق .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لننتدى لو لا أن هدانا الله .

بدوى أصمه طباهه

٢٠ من صفر سنة ١٣٧١ م  
٢٠ من نوفمبر سنة ١٩٥١ م

# تفهّم دلهم

البلاغة علم من العلوم الإسلامية استنه المسلمون أول ما استنوه لخدمة دينهم ، والذود عن قرآنهم ، لأن ثمرة البلاغة كارأوها في أول عهدهم بها هي في فهم المعجزة الكبرى لنبيهم وهي القرآن الكريم ، وإعجازه في وفاته الدلالة منه بجمع مقتضيات الأحوال منطقية ومفهومية ، وهو أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقامها وجودة رصتها وتركيبها ، وهذا هو الإعجاز التي تقصّر الأفهام عن إدراكه ، كما يقول العلامة ابن خلدون <sup>(١)</sup> .

والقرآن كلام الله ، لا سهل إلى إدراك إعجازه والوقوف على سر بلاغته إلا باستعراض المؤثر عن ملوك الكلام من البشر ، واستيعاب أساليبهم في التعبير إذ كان القرآن عربياً نزل بلغتهم التي حذقوها وعدوا الإجادة فيها مناط الشرف ، حتى يكون للموازنة محلها ، وحتى يكون الحكم بالإعجاز قائماً على دعائم يؤيدها العقل ، ويطمئن إليها التفكير .

فالأساس الذي ينبع عليه البلاغة أولاً دراسة أساليب القرآن في التعبير ، ومقابلتها بأساليب البلاغة ؛ ثم استخلاص عناصر الجودة في الأولى ؛ ومواضع التقصير في الثانية ؛ ثم موازنة الآى من التنزيل بالجيد من كلام العرب ليبين فضل الكتاب على كلام الفصحاء الذين استوت لديهم ملكة البيان . وكان من الطبيعي أن تتطور تلك النظارات إلى دراسات لا تقف عند القرآن وإدراك إعجازه لتحقيق الغاية الدينية ، بل تتجاوز تلك الغاية إلى غاية

---

(١) المقدمة — ٥٥٢

شبيهة بها ، وهى تحقيق النص الأدبى ، وإدراك ما خوى من أساليب التسامي أو الاتضاع ، بموازنة بين الفنون الكلامية ، وعرض ألوان مختلفة من الشعر المتشابه في الفكرة وفي الأداء ، والذى المتقارب في الغرض أو الاتجاه ، والحكم لهذا أو لذاك ، والإشادة بالمجيد الحاذق من الدين صدر عنهم هذا الفن ، وبهذا أخذ هذا الفن النقدى يتجرّد رويداً رويداً من ال باعث إليه والحافز عليه .

ولقد استتبع هذا دراسة الألفاظ من حيث هى ألفاظ ، ومن حيث دلالتها على المعانى ، ودراسة المعانى ، وما اشتملت عليه من فكرة رائعة ، أو حكمة باللغة ، أو مثل شرود ، أو إصابة الغرض الذى يرمى إليه الفن الكلامى ، وقد نهلت هذه الدراسات من معينين :

أحدهما : الذوق الفطري الذى هو المرجع الطبيعي في الأحكام على الفنون الإنسانية ومنها الأدب ، فيجد القارىء أو السامع في بعض الأساليب من جرس الكلمات وحالاتها ، والثبات التركيب وحسن رصده ، وقوه المعانى ونفاثتها ، وسمو الخيال ما لا يتجده في بعضها الآخر ، فيحكم للأولى دون الثانية من غير أن يتلمس العلة لما أصدر من حكم .

وإعجاز القرآن قد يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه — كما يرى ابن خلدون — أعلى مقاماً في ذلك لأنهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه<sup>(١)</sup>

ونانهما : البصيرة النفادـة والعقل قادر على المفاضلة والموازنة والتعليل

---

(١) القدمة ٥٢٢

وصحة المقدمات لتبني عليها أحكام يطمئن العقل إلى سدادها ويسلم بصحتها . لأن أذواق الناس متباعدة ، فكان لابد من أساليب العلم للإقناع بأن هذا الأثر الأدبي يفضل ذاك . وهذه الأساليب العلمية هي التي يلتقي عندها الناس جميعا ، إذ أن أحكام العقل لا مناص من التسليم بصحتها ، والمتذكر لها متذكر لإنسانيته وفكرة الذي يميزه من أنواع الحيوان .

كان لابد من الجمع بين المذهبين إذ كان من العسير أن نغفل أحدهما ، لأن الأول وهو تحكيم الذوق متصل أشد اتصال بطبيعة الفن ، والذوق يجنيح إلى الخصوصية ، ولأن الثاني أدعى إلى المشاركة فيها ارتضاه الناظر في هذا الفن ، وتلك المشاركة هي التي تجعل لأحكاماً قيمتها من التقدير ، ولذلك نزد الخاص إلى العام ونحدد نسب العنصر الفردي إلى العنصر الجماعي في مؤلف أدبي ونرجع العبرية إلى مصادرها دون أن نخط منها ونرى فيها مرتكباً لا تقف به عند الجمع ، ونجعلها تعبر عن الجمهور المتضمن دون أن نردها إليه — كم في كل هذا من صعوبات ! وكم فيه من شكوك ! ثم كم من دراسات دقيقة لابد من القيام بها ! وفي تضاعيفها يمكن أن تناسب أهواؤنا الخاصة ،<sup>(١)</sup>.

ومن ثم كانت الخطوة التالية خطوة طبيعية وأعني بها دور التعديل ومحاولة وضع الأسس التي تصدر عنها الأحكام ، ليكون للأدب مقاييس يقاس بها وموازين تقدر بها قيمته ، شأنه في ذلك شأن غيره من ظواهر الحياة المادية والمعنية ، ومن ثم اتسم النقد الذي كان ذوقاً بسمات العلوم من العناية بالتبوييب وتنظيم الأقسام .

وليس يخطط من شأن النقد الأدبي أنه نجح فيه منهج على ، بل ربما كان هذا المنهج ضرورياً لمن يحاول أن يقنع الناس بصحة رأيه ، وسداد نظره .

---

(١) منهج البحث في تاريخ الأدب ص ٢٥ - ٢٦

وهذا الذى كان من علماء البلاغة العربية الذين وضعوا أصولاً للأدب ينظر فيها الأديب ليتحاشى الخطأ، ويدرس الناقد نتاج الشعراء والشاعر على هدى هذه الأصول وروح النقد – كما يقول لأنسون – علمية مستبررة ، فهى لا تطمئن في بحثها عن الحقيقة إلى سداد ملائكتنا الطبيعية ، بل تنظم خططاً لها تبعاً للأخطاء التي عليها أن تتجنبها ، إذ توضح النقطة الأساسية التي تتعرض فيها للأخطاء وفقاً لطبيعة موضوعنا وملابسات دراستنا<sup>(١)</sup>.

إذا كانت البلاغة العربية أخذت بأساليب العلم ، وأفادت من المنطق والفلسفة فلا غرابة في ذلك ، وقد رأينا المحدثين من علماء الغرب يقررون هذا المنهج ، ويرونه طريق السداد ، فليقرأ هذا القول جيداً أولئك الذين نفروا الناس من هذا التراث ، وبغضونا إليهم هذا الأسلوب . ففي عصرنا الذي يدعى عصر الانبعاث نطالع بين حين وحين حملات منكرة على هذا التراث الفكري ، حتى تبدو هذه الحملات معاول هدم لا عوامل بعث ، وتعرض علم البلاغة لأشد هذه الحملات ، وهو العلم الذي أوضح معالمه وأرسى قواعده جماعة من صفوه العلماء شهدت لهم الدنيا بطول الباع ورسوخ القدم والتکن من الثقافات مع حظ عظيم من الذوق الفني المرهف كان عدتهم فيما هم بسيطه من دراسة الأدب ومحاولاته وضع أساس علمية لتنفس عليها تلك الدراسة .

بدأت البلاغة بحوثاً قليلة ، وأوجوبية مختصرة ، وما لبثت أن أصبحت علمًا ذا كيان ، وترأها مجيداً بين تراث العقلية العربية تمهده أعلام الأدب والمعرفة ، وحسبك أن تعد في طليعتهم أمثال الجاحظ وقدامة وابن المعز والمسكري والأمدي وعبد القاهر .

---

(١) المصدر السابق ٢٤

ثم رأينا في هذه الأيام حملات على البلاغة يراد بها التهرين من شأن هذا العلم في صورة دعاوى لو سلمنا جدلاً بصحتها لما نهضت مسوغاً للتمادي في هذه الحملات .

ومن جملة هذه الدعاوى نعمتهم البلاغة بأنها بلاغة الأعاجم لا بلاغة العرب ، ومعنى ما يقولون أن أعلام البلاغة ليسوا من أصل عربي ، وهي التهمة نفسها التي وجهاها (رينان) إلى الفلسفة العربية والحضارة العربية .

ومنها أن بعض مباحث البلاغة العربية له نظائر في بعض المباحث النقدية عند غير العرب ، وبعض أصحاب هذه الدعوى ينافقون أنفسهم إذ نراهم يدعون إلى اغتنام كل فرصة للإفادة أياً كان مصدرها ، في الوقت الذي يرون فيه أن إفادة علماء البلاغة العربية يجعلها غريبة على الأدب العربي والمقالية العربية فلا تصح مقياساً له ، مع هياهم ولوعهم في أيامنا بتطبيق نظريات غريبة لا تمت إلى أدبنا وعقلتنا بسبب من الأسباب ، حتى الأدب نفسه سرت إليه هذه البدعة ، والجديد عند هؤلاء من يتصدى خياله من خيال الغرب ، ومن يبعد عن أساليب لغته وأحساس قومه .

ومنها أن البلاغة بمقاييسها التي انتهت إلى مارسم أبويعقوب يوسف السكاكي في مفتاح العلوم قد تحجرت ، ولم تعد صالحة لإرهاف الملوك التعبيرية الفنية<sup>(١)</sup> هذا ما أعرف من الدعاوى ولعل هناك غيرها . والذى نذهب إليه أن تولى جماعة من غير العرب وضع أساس علم البلاغة لا يغض من شأنها ، ولا شك أن النظر إلى قيمة العمل في ذاته ومبلغ استطاعتنا الإفادة منه أجدى من النظر إلى ذات العامل أو جنسه .

ألا ترى أن كثيراً من أعلام النحو العربي لم يكونوا عرباً؟ ومع هذه

---

(١) حملات على البلاغة العربية (مقال للمؤلف) بجريدة الاهرام ٤/١٩٥٠

الحقيقة لم يقل واحد من المنصفين إن أعميهم مدعاه دفع الأخذ بأقوالهم ، وكذلك الدين أخذوا كثيراً من أصوله من ثمرة اجتهد من لم يكونوا عرباً ، وليس يضررنا أن تولى هذا الأمر من ليس أصله من ما دامت له يد في خدمة لغتنا وقومنا ، والعربي في نظرنا من أسدى إلى العروبة يداً فيها استطاع ، ويشرف العرب أن يتنسب إليهم الأفضل بأمثال هذه العوارف ويحط من شأنهم أن يدعى العروبة كل غر جهول ، وإن كانوا الحصى عدا . والإسلام فكرة وحدت بين معتقليه وجعلتهم سواسية في كل شيء ، كاجعل مسئوليهم واحدة فيهم القرآن ووجوب الذود عنه ، فليس بين المسلمين تفاوت في هذه المسؤولية .

أما أن علماء البلاغة العربية كانت لهم قدم في فهم أساليب غيرهم في النقد الأدبي والتأليف البلاغي فذلك سبب تقدير لا مدعاه ثلب وانتقاد ، ولا يسعنا إلا أن نرحب بكل تقدم فكري تهض دعائمه على أساس من ثقافتنا الأصيلة ، وانتفاع بما جد في نواحي الفكر عند غيرنا . ونحن مع ذلك نقر القول الثالث إذ من الثابت أن بلاغة العرب قد شابها كثير من اصطلاحات الفلسفه والمناطقه والمتكلمين ، مما جعل البلاغة في بعض مباحثها وهى الفن الذى يعالج البيان ، ويوضح ما فيه من أسباب الروعة والجمال . متحجرة على طالبها . ولكنها على الرغم من هذه الظاهرة تهض على أساس من الدراسة الفنية لا يمكن أن ينكر ، وذلك ما يدعونا إلى العناية بها والدعوة إلى إحيائها وتجدیدها لا إلى الترهيب منها ، ومحاولة القضاء عليها .

ولقد رأيت أن هذه الجهود التي بذلها أسلافنا الأمجاد جديرة بالتعهد والsequia والعود إليها بالبحث والتنقيب ، لاستخلاص ماحوت من أصول تصلح أن يدرس الأدب على أساسها في عصرنا وبعده ، كما كانت صالحة لذلك

فِي الزَّمَانِ الَّذِي أَلْفَتْ فِيهِ ، فَإِنْ هَذَا الْبَعْثُ أُولَى بِنَا وَأَجَدَرُ حَتَّى لَا نَفْقَدَ  
صَلْتَنَا بِهَذَا الْمَاضِ الْمُجِيدِ ، وَهَذَا أَكْرَمٌ عَلَيْنَا مِنَ الْمَقْسِمِ الْمُعِينِ مِنْ ثَقَافَةِ الْأَنْتَمِ  
بِسَبَبِ إِلَى ثَقَافَتِنَا وَإِنْ كُنَّا لَا نَجْمِدُ وَجْهَ الْإِنْفَاعِ مِنْ كُلِّ ثَقَافَةِ أَيَا كَانَ  
مَصْدِرُهَا .

وَأَوْلَى بِهَذِهِ الْكُلْيَةِ الْعَرِيقَةِ فِي سَدَانَةِ الْلُّغَةِ ، وَالْحَفَاظِ عَلَى التِّرَاثِ ،  
وَالْقَوَامَةِ عَلَى خَدْمَةِ الْقَوْمِيَّةِ أَنْ تَشْمَرَ عَنْ سَاعِدِ الْجَدِ فِي هَذَا السَّيْلِ ، فَتَحِي  
هَذَا التِّرَاثَ ، وَتَنْفَضُ عَنْهُ غَبَارُ الزَّمَنِ ، وَتَبْعَثُهُ مِنْ جَدِيدٍ بَعْثًا يَلَاثِمُ مَاجِدَّهُ  
فِي بَيْتَنَا وَمَا طَرَأَ عَلَى عَقْلِنَا فِي عَصْرِ النَّهْضَةِ .

وَأَبُو هَلَالُ الْعَسْكَرِيُّ وَاحِدُ مِنْ أَوْلَانِكَ الَّذِينَ وَضَعُوا الْبَنَاتِ الْأُولَى  
هَذَا الصَّرْحَ الْعَتِيدَ ، وَكِتَابَ (الصَّنَاعَتَيْنِ) مِنْ أَعْظَمِ الْمُؤْلِفَاتِ الْنَّقْدِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ  
الَّتِي عَالَجَتِ الْأَدَبَ وَوَضَعَتِ لِأَرْكَانِهِ حَدَّوْدَاهَا وَمَقَايِيسَ أَخْذَهَا غَيْرُهُ مِنَ الَّذِينَ  
نَسَبُتِ الْبَلَاغَةَ إِلَيْهِمْ ، وَنَفَقْتُ كِتَبَهُمْ ، وَأَصَابُوا مِنَ الْعِنَاءِ وَالدُّرُسِ بَعْضَ  
مَا يَسْتَحْقُونَ ، نَمَّا لَمْ يَصْبِرْ الرَّجُلُ مِنْهُ شَيْئًا .

وَقَدْ أَرَدْتُ فِي هَذَا الْبَحْثِ الَّذِي أَقْدَمْتُهُ الْيَوْمَ إِلَى الْجَامِعَةِ لِلْحُصُولِ عَلَى  
دَرْجَةِ عِلْمِيَّةِ أَنْ أَحْقِقَ فِي حَدُودِ اسْتِطَاعَتِي نَاحِيَةً مِنْ تِلْكَ النَّوَاحِي الَّتِي  
دَعُوتُ إِلَيْهَا ، فَتَخَيَّرْتُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ الْجَلِيلَيَّةِ أَعْرَفُ بِهَا ، وَأَنْوَهُ بِجَهْوَدِهَا،  
وَمَنْزَلَتِهَا بَيْنَ رِجَالِ الْبَلَاغَةِ وَالنَّقْدِ ، وَأَثْرَهَا فِي الَّذِينَ خَلَفُوهَا ، وَعَدَتْ إِلَى  
الْمَقَايِيسِ الَّتِي وَضَعَهَا أَبُو هَلَالٌ فَأَشَدَّتْ مِنْهَا بِمَا يَسْتَحِقُ الإِشَادَةِ ، وَمَا يَصْلُحُ  
أَنْ يَكُونَ مَقَايِيسًا مِنْ مَقَايِيسِنَا الَّتِي نَقِيسُ بِهَا أَدْبَنَا الْحَاضِرَ وَالْلَّاحِقَ كَمَا قَيَسَ  
بِهَا أَدْبُ الْسَّابِقَيْنِ ، وَقُلْتُ قَوْلِي فِيهَا لَا جَدُوْيَ مِنْهُ .

وقد نظمت البحث في ستة فصول:

- (١) الفصل الأول — في التعريف بأى هلال .
- (٢) الفصل الثاني — في النقد والبلاغة قبله .
- (٣) الفصل الثالث — في منابع بلاغته .
- (٤) الفصل الرابع — في منهجه البلاغي .
- (٥) الفصل الخامس — في مقاييسه البلاغية .
- (٦) الفصل السادس — في بلاغته وأثرها في البلاغة والبلغيين  
من بعده .

وأرجو أن أكون في هذه الفصول قد وفقت إلى الكشف عن جانب  
له أهميته من جوانب النشاط الأدبي والفكري للعقلية العربية في عصر من  
عصورها الظاهرة . والله المستعان

# البُوْرَق حَلَال

بلده . حياته . أستاذته . ثقافته . آثاره

## ١

« عسکر مکرم » مدينة من كور الأهواز « خوزستان » بين البصرة وفارس ، ومکرم الذى تنسب إليه هو مکرم الباهلى ، وهو أول من اخططا فنسبت إليه<sup>(١)</sup> . ثم أخذت هذه المدينة تنمو وتزدهر ، وتعمر الناس ، حتى كان من أبنائها العلامة الأعلام ، الذين كانت لهم اليد الطولى في خدمة العلم ، وحفظ تراث العروبة ، حتى أدوه إلى الأمة العربية ، وأضافوا إليه مالديهم من معرفة ، وما وهبوا من قدرة على التذوق والتصرف .  
كان في طليعة هؤلام الأعلام الذين أنجحتهم عسکر مکرم عالمان جليلان كتبنا لهذا البلد مجدًا وخلودا في القرن الرابع هما أبو أحمد العسكري وأبو هلال العسكري .

---

(١) وقيل هو مکرم بن معزاء الحارث أحد بنى جعونة بن الحارث بن غير بن عامر بن صعصعة وكان صاحب الحجاج بن يوسف ، وقيل مکرم مولى كان للحجاج أرسله لمحاربة خرداد بن بارس حين عصى ولحق بعدينة ( ايزيج ) بين خوزستان وأصفهان في وسط الجبال ، وتحصن في قلعة تعرف به ، فلما طال عليه الحصار نزل مستخفيا ليلحق بعد الملك بن مروان ، فظفر به مکرم ومعه درنان في قلنسوته ، فأخذنه وبعث به إلى الحجاج ، وكانت هناك قرية قد عداها ولم ينزل يبني ويزيد فيها حتى جعلها مدينة وسماها عسکر مکرم ( وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٢ )

أما أبو أحمد فهو أحد الأئمة المذكورين في التصرف في أنواع العلوم والتبحر في فنونها، تنقل بين بغداد والبصرة وأصفهان وغيرها من الموارض، وأخذ عن خول العلماء كأبي القاسم البغوي وأبي بكر بن دريد وقطويه وغيرهم، وأكثر وبالغ في الكتابة، واشتهر في الآفاق بالدراسة والإتقان، واتهت إليه رئاسة التحديث والإملاء للآداب والتدريس بقطر خوزستان ورحل إليه العلامة الأجلاء للأخذ عنه والقراءة عليه<sup>(١)</sup> . . . ولم تزل شهرته في ازدياد ونجمه في صعود حتى توفي سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة .

والأدلة على ما بلغ أبو أحمد من بعد الصيد ونهاهه الذكر كثيرة، وحسبنا منها أن الصاحب ابن عباد كان يمني "الاجتماع به، وكان منتجع العلماء والأدباء وذوى الموهاب إلا أباً أحمد فإنه كان يتأنى عليه ، فكان الصاحب يكتبه على عمر الأوقات ، ويستميل قلبه ليشخص إليه ، فيقتل عليه بالشينوخة والكبر، إذا عرف أنه يعرض بالقصد إليه والوفود عليه ، فلما يئس منه قال لخدومه — مؤيد الدولة بن بوية — إن عسکر مكرم قد اختلت أحواهـا ، واحتاج إلى كشفها بنفسـي . فأذن له بذلك ، فلما قرب من عسکر مكرم كتب إلى أبي احمد كتاباً يتضمن نظـا وثـرا ، وما ضـنه من المنظـوم قوله :

وَلَا أَيْتُمْ أَنْ تَزُورُوا وَقْلَمْ  
ضَعْفَنَا فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَى الْوَخْدَانِ  
أَتَيْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ أَرْضِ نَزُورِكُمْ  
وَكَمْ مَنْزَلٌ بَكَرْ لَنَا وَعْوَانِ  
نَسَائِلُكُمْ هَلْ مِنْ قَرْىٰ لَنْزِيلُكُمْ  
بَلْهُ جَفُونٌ لَابْعَلْهُ جَهَانِ  
فَلَمَا قَرَأَ أَبُو أَحْمَدَ الْكِتَابَ أَقْعَدَ تَلِيْدًا لَهُ فَامْلَى عَلَيْهِ الْجَوابَ عَنِ النَّشْرِ  
ثُنَراً، وَعَنِ الشِّعْرِ بَشَّرَ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيَّهُ آخِرَهُ الْبَيْتُ الْمُشْهُورُ :

(١) بُنْيَةُ الْوِعَاةِ — ٢٢١

هم با مر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والتزوان<sup>(١)</sup>  
وبعث به إاليه في الحال ثم التقى فأقبل عليه الصاحب بكليته بعد أن أقعده  
في أوفر موضع من مجلسه وتفاوضا في مسائل، فزادت منزلته عنده، وأخذ  
أبو أحمد منه بالحظ الأوفر وأدر على التصريح به إدراها<sup>(٢)</sup>.

ولئما أوردت ما أوردت عن أبي أحمد لشدة صلته بموضوعنا لعدة  
أسباب ، أولها أنه علم الأعلام الذين خرجتهم عسکر مکرم ، وثانيها أنه  
عاش في القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه أبو هلال ، ثم لما هو أهم من  
هذين السبيلين : - أن أبي أحمد يكاد يكون الأستاذ الأول لأبي هلال ،  
وصاحب الأثر البعيد في تكوينه مع اختلاف الرجلين في منحى التفكير  
اختلافاً فمليلاً الطبيعة التي تباين بين الأشياء وإن ظهرت على تكوينها  
عوامل واحدة .

وهذه الصلة الوثيق بين الرجلين : اتحاد في المكان ، واتحاد في الزمان وتقارب في الفكر ، وأستاذية وتلمذة ، ثم قرابة قريبة ، هي التي جعلت القدامى يخلطون بين الرجلين ، ويتجشمون كثيراً من الجهد في تمييز أحدهما من الآخر .

ويسجل ياقوت هذا الخلط بين الرجلين في أماكن عدّة من معجمه

(١) هذا البيت من أبيات قالموا صخر بن عمرو بن الشريد السلمي أخو الحنساء في زوجه وقد ملت منه لطؤل مرضه فقال :

(٢) معجم الأدباء — ج ٨ ص ٢٥١ ووفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٠

منها قوله : « وطال تطواف وكثير تسألى عن العسكريين أبي أحمد وأبي هلال  
فلم ألق من يخبرني عنهمما بجملية خبر ، حتى وردت دمشق . . . فقاوشت  
الحافظ تقى الدين إسماعيل بن عبد الله بن المحسن بن الأنطاوى النصاري  
المصرى . . . فذكر لي أن الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم  
السلفى الأصبهانى لما ورد إلى دمشق سئل عنهمما ، فأجاب فيما بجواب  
لا يقوم به إلا مثله من أئمة العلم ، وأولى الفضل والفهم<sup>(١)</sup> .

وهكذا كان السؤال عن الرجلين يستنجد هذا الجهد من إطاره التطواف  
وكثرة التسأى ، ولا يقوم بالجواب إلا مثل فلان من « أئمة العلم وأولى  
الفضل والفهم » ،

ثم يورد في ترجمة أبي هلال ما نصه : وكان لأبي أحمد تسييد وافق  
اسميه اسمه ، واسم أبيه اسم أبيه ، وهو عسكري أيضاً . فربما اشتبه ذكره  
بذكره إذا قيل : الحسن بن عبد الله العسكري الأديب فهو أبو هلال<sup>(٢)</sup> .  
ولم يسلم المحدثون من الخلط بين الرجلين فوسموا في أخطاء علمية ،  
فسببوا لهذا بعض آثار ذلك كما سترى في نهاية الفصل ، وكأنهم يرون الرجلين  
رجلان واحداً اتحد اسمه وتعددت كنائاه .

## ٢

وأبو هلال ، هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران  
العسكري ، نشأ كأنشاً أبو أحمد ب العسكرية مكرم ، وأقام فيها حياته ، والظاهر أنه  
لم يبرحها أكثر عمره ، فإذنا لاجد في مصدر من المصادر التي بين أيدينا شيئاً  
عن تنقله أو انتجاعه بلداً آخر كأنقرأ عن أبي أحمد ، ولاجده في شعره ما يدل

(١) معجم الأدباء — ج ٨ ض ٢٣٤ .

(٢) المصدر السابق — ٢٥٨ .

على ذلك سوى (القصران) التي قضى فيها شطرا من شبابه، وفيها يقول :  
سقى الله لي قصرا بقصران مونقا  
كان سقسط الشاج في جنباته

### حياة أبي هلال :

عاش أبو هلال حياته مغمورا خامل الذكر ، فلم يحظ بما هو خلائق به من المجد ونباة الشأن ، كما حظى غيره من العلماء والأدباء في العصر الذي عاش فيه ، وإن كان قد حظى بعد موته بالخلود فيما ألف وكتب ، وقدره الناس بعد موته مالم يقدروه حياته ، واعترف له العلماء بالنبوغ والسبق .  
ونستطيع أن نجمل أسباب خمول ذكر أبي هلال في حياته فيما يأتي :

(١) أنه قضى أكثر حياته — كما مر — في عسكر مكرم لم ير حها إلى غيرها ، وكثيرا ما يصحب النقلة طيران الشهرة وذيوع الصيت ، وأكثر الذين عرفنا من العلماء والأدباء هم جوابو الآفاق يتعلمون ويعملون ، ويفدون ويفد إلهم الناس واستطاع كثير منهم أن يخلف مجدا ، وأن يورث مالا ، ولم يجتمع لأكثربن إلهم من الموهوب والتفكير مما جتمع لأبي هلال العسكري .  
(٢) يبدو أن أبي هلال لم يكن من أسرة لها شأن في سياسة أو رياضة أو ولاية عمل من أعمال الدولة ، ومثل تلك المناصب والأعمال ترفع أصحابها والمتسببن إليهم ، وتجعلهم مناط آمال الناس ، وملتقى مدانع الشعراء .

(٣) ولعله أهم الأسباب : أن أبي هلال كان معاصرأبي أحمد العسكري الذي مر ذكره ، وقد بلغت شهرة أبي أحمد ما عرفا ، وحسبه أن يرحل في طلبه ، ويشهى الجلوس إليه مثل كاف الكفاءة الصاحب بن عباد وهو متتبع العلماء والأعلام ، ومهبط كل ذي موهبة من شتى البقاع ، فيزداد مجلسه بهاء ، ويفيدون من الرحلة إليه جاهها وثراء . ولم يزد

أبو هلال على أن يكون تلميذاً من تلامذة هذا الشيخ ، وقلما نبغ تلميذ في حياة أستاذه ولا سيما إذا كان التلميذ رجلاً مثل أبي هلال في تواضعه وانطوانه على نفسه ، لا كبديع الزمان في تطاوله على ذوى الفضل عليه والإحسان إليه .

فاز أبو أحمد من الجد بأوفى نصيب وأوفر حظ ، وبقى مجد أبي هلال متواضعاً متطاماً ، وتلك إحدى جنابات الأئمَّة على تلاميذه ! هذه في نظرنا أهم الأسباب في خمول الرجل الذي ترك هذه الآثار فلم يحفل به المؤرخون ولا أصحاب التراجم ، كما حفظوا بغيره من هم دونه علماً وفضلاً ..

إذا طالعنا ترجمة حياة أبي هلال في بعض هذه الكتب لم نظفر من المعرفة بها إلا بالقليل الذي لا ينفع غلة ولا يطفئ ظماً ، على أن أكثرها أغفله إغفالاً .. ومن هؤلاء الذين أغفلوه فلم يأتوا له على ذكر ابن خلkan فلم يعدَّه في وفيات الأعيان وإن كان يفيض في ذكر أبي أحمد كما يفيض في ذكر غيره من الرجال والنساء .

وهو لاءُ الذين تعرضاً لترجمته لم يخبرونا بتاريخ مولده ، وعلى الرغم من تحديد مولد أبي أحمد تحديد استقصاءه يوم الخميس لست عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلاثة وتسعين ومائتين ، فإنهم لم يظفروا حتى بتاريخ تكريبي لمولد أبي هلال .

على أن في استطاعتنا أن نحدد تاريخاً تقريريًّاً لمولده إذا علمنا أن وفاته كانت سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، وهي السنة التي فرغ فيها من تأليف كتابه «الأوائل» ، ويقول ياقوت في ذلك : وأما وفاته — أبي هلال — فلم يبلغني فيها شيء ، غير أنني وجدت في آخر كتاب (الأوائل) من تصنيفه : وفرغنا

من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء عشر خلت من شعبان سنة  
خمس وتسعين وثلاثمائة <sup>(١)</sup>.

وإن نحن سايرنا الذين قالوا إن وفاته كانت في هذه السنة (٥٢٩٥)  
وإن سنه إذ ذاك كانت خمساً وثمانين سنة ، كما أنسد لنفسه قبيل وفاته :

لِخَسْ وَثَمَانُونَ سَنَةٍ      فَإِذَا قَدِرْتَهَا كَانَتْ سَنَةٍ  
إِنَّ عُمُرَ الْمَرْءِ مَا قَدْ سَرَّهُ      لِيَسْ عُمُرُ الْمَرْءِ مِنَ الْأَزْمَنَهُ

كان في استطاعتنا أن نحدد سنة مولده سنة عشر وثلاثمائة على وجه التقريب،  
ونخلص من هذا أن أبو هلال كان من رجال القرن الرابع مولداً  
وحياة ووفاة .

أما تقلب الرجل في الحياة ، وتصرفها فيه وتصرفه فيها ، فلا نكاد نعرف  
عنه إلا القليل فليس فيما روى الرواية شيء عن تفصيلات هذه الحياة ،  
وليس لدينا إلا مؤلفاته الكثيرة الراخدة ، والمؤثر ما نقل إلينا من شعره ،  
وهذه المؤلفات وذلك الشعر ، تدل على أن أبو هلال قد أنفق هذه الحياة  
في العلم وتحصيله ، والجلوس إلى الأستاذة والتأليف في هذه الألوان الثقافية  
التي يزخر بها عمره ، وتأثيم هي واستعداد الرجل وثقافته .

وكان أبو هلال مدفوعاً إلى ذلك برغبة شديدة ، وهو عارم ، يدل  
عليه مؤلفاته الكثيرة ، واختلاف مباحثها وتدل على علم غريب وثقافة متعددة  
النواحي ، واطلاع واسع ، وقدرة فريدة في علم الرواية والدرایة ،  
لا يحس في ذلك أيناً ولا تعبا ، وإن وجد منه شيئاً فإنه لذيد المذاق ،  
وقد فصل ثقافته ولذته في تحصيلها في هذه الآيات :

---

(١) معجم الأدباء : ج ٨ ص ٢٦٤ .

وليلٌ أطلنَ مدة درسي  
مثلمًا قد مدن في عمر لموى  
مر لي بعضها بفقهه وبعض  
بين شعر أخذت فيه ونحو  
و الحديث كأنه عقد ريا  
بت أرويه للرجال وتروي<sup>(۱)</sup>

وهكذا قد وهب الرجل حياته للعلم والدرس في حب له وحرص عليه ،  
ولذة وشغف به ، فلم يسم به كما سما بغيره ، ولم يتح له من الرزق ما يكفل  
له حياة رخية ، فبرم بالحياة برم الناس الذين لم يقدروه ولم ينل منهم  
ما تتطلع إليه مثل هذه الروح الهامة في سماء العلم والمعرفة ، فيحول الحب  
كراهية وسخطا .

إذا كان مالى مال من يلقط العجم  
وحالى فيكم حال من حاك أو حجم  
فأين انتفاعى بالأصالة والهجى  
وما ربحت كفى من العلم والحكم  
ومن ذا الذى في الناس يضر حالي  
فلا يلعن القرطاس والخبر والقلم<sup>(۲)</sup>

لا شك أنه بلغ في هذه الآيات غاية السخط على نفسه وعلى الناس ،  
بل على العلم الذي أفرغ فيه جهده ، وبذل في سبيله شبابه ، ثم عاد منه صفر  
الذين خاوي الوفاض ، ومن دونه — ومن معاصريه — علماء وأدباء تجود  
لهم الدنيا بخيرها ، وتفيض عليهم بدرها ، وتفتح لهم خزائن الأرض ،  
ويختارون ذوى الثراء في خصب الحياة ورغدها .

فلا جرم أن يعبر الرجل عن سخطه بمثل هذا الشعر ، وأن يتجاوز  
السخط على النفس إلى السخط على الدنيا التي لا تعدل في الناس ، وأن يستسلم  
إلى اليأس الذي ليس وراءه بصيص من الأمل :

---

(۱) معجم الأدباء : ج ۸ ص ۲۶۷ . (۲) المصدر نفسه : ص ۲۶۱ .

أرى الدنيا تميل إلى أناس  
لئام مالنا فيهم صلاح  
بقيت كطائير في قبض باز جريح الجسم هيض له جناح  
وعلى الرغم من هذه القمة الناقمة على الناس والحياة ، يأبى على الرجل  
حياؤه وصون ماء وجهه أن يبذل في استجداء الموسرين أو التمس بعثبات  
الحاكمين . وتلك شيمة العلماء الذين يعرفون أقدارهم ، ويسمون بعلمهم على  
الدنيا وعرضها .

هذا الحفاظ الشديد على الكرامة يبعث الرجل في طلب الرزق من طريق  
مشروع ، فتراه يجلس في الأسواق يلتمس الرزق من تجارة البز ويعمه  
للناس ، فيعيش من عمل يديه ويدرك ما فاته أن يكسبه بعلمه وأدبه .  
حتى هذه الحرفة التي احترفها كما يبدو ، لم تجد على أبي هلال ما كان يطبع  
فيه من رزق حلال ، ويهاب أن يعرف التجارة وحساب الربح والخسارة ،  
ولو كان في استطاعته أن يخوض هذا الفرار لاتجر بعلمه وأدبه كما فعل غيره ،  
وضرب في الأرض فانتفع بهما ذوى الثراء ورجال الحكم ، من الذين تنفق  
عندهم مثل هاتين الساعتين ، وهذا الإخفاق يجدد ثورته على الحياة والناس ،  
بل أن اضطراره إلى هذا العمل يثير حفيظته من قبل أن يحسب حساب  
الربح والخسارة :

جلوسى في سوق أيسع وأشتري دليل على أن الأنام قرود  
ولا خير في قوم يذل كرامهم وبعظهم فيهم نذلهم ويسود  
ويهجوهم عن رثابة كسوتى هجاء قبيحا ما عليه من زيد  
وهكذا عاش أبو هلال فلق الوساد نابي المضجع ، برما بالحياة في شبنته  
برمه بها في كھولته وشيخوخته ، فالشباب ينحطأه ، والمشيب يتغشاه ، ولم  
يبق إلا توقيع الموت والتأهب له :

قد تخطاك شباب وتعشاك مشيب

فأَتَى مَا لَيْسَ يَعْضُى  
وَمَضِى مَا لَا يَئُوبُ  
فَتَاهَبْ لِسَقَامٍ  
لَيْسَ يَشْفِيهِ طَبِيبٌ  
لَا تَوْهِمَهُ بَعِيدًا  
إِنَّا إِلَيْنَا قَرِيبٌ

وتراه في هذه الآيات مؤمناً قوى الاعتقاد ، زاهداً بعد محاولة حياة  
ناعمة وعيشة رغدة ، يتاهب للقاء الموت غير آسف على عيش قضاه في هم وكيد .  
أما حياته الخاصة ، ونعني بها حياته الأسرية ، فلم يصل إلينا طرف منها  
لا فيها كتب الكاتبون عنه ولا في شعره الذي تسنى لنا الاطلاع عليه ،  
لم نعرف له قصة زواج ، ولم نعرف ما أنجب من أبناء ، وهذا ما يرجح لنا  
أنه لم يَبْنِ بزوجة ولم يَنْجُب ولدآ ، ولعل هذا هو السر في برمه الحياة  
ويأسه منها ، إذ لم يجد الشريك الذي يشكو إليه بشّه ، فيستجيب له ،  
ويسرى عنه .

هذه سطور قبسناها وبسطناها من القليل الذي وقع بين أيدينا عن حياة  
أبي هلال ومن شعره المنشور هنا وهناك ، وكأن الزمان والناس اجتمعوا على  
حرب الرجل حياً ، واستطاع هو بهذه المرأة التي خلفها من آثار جهاده العلمي  
وكد ذهنه أن يتغلب على حرب الأيام ، فقضى الزمان ، وقضى مؤرخوه ،  
وحى أبو هلال في تصانيفه الباقيه وآثاره الخالدة .

### ٣

أستاذة أبي هلال :

وربما كان البحث عن أستاذة العسكري من أهم ماعنانا وأضنانا ، لأن معرفة  
هؤلاء الأستاذة والوقوف على ثقافتهم وأثارهم وجهودهم العلمية ، كل ذلك  
له أثره في الوقوف على بناء يع ثقافته ، وتكوين عقله ، وتنظيم تفكيره .

ولقد أرجع العلماء ثلاثة أرباع فَكَرِ الرَّجُلِ إِلَى هُؤُلَاءِ الَّذِينَ جَلَسُوا  
مِنْهُمْ بِجَلْسِ التَّلَمِيذِ مِنَ الْمُعْلَمِ ، وَإِلَى مَا وَقَفَ عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ سَابِقِيهِ وَتَبَرِّبِهِمْ ،  
وَجَعَلُوا الرَّبِيعَ وَحْدَهُ لِمَوَاهِبِهِ الْخَاصَّةِ وَمُلْكَاتِهِ وَعَقْلَهُ وَلِبِهِ .

عَلَى أَنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْيُسْرِ بِالدَّرْجَةِ الَّتِي كَنَا نَقْدِرُهَا ، فَإِنَّ الْمَطَالِعَ  
لِأَثَارِ أَبِي هَلَالٍ أَوْ لِكِتَابِ الطَّبِيقَاتِ الَّتِي تَعَرَّضَتْ لِذِكْرِهِ ، لَا يَكَادُ يَخْلُصُ مِنْهَا  
بِمَا يَشْتَهِي فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ .

وَالْوَاقِعُ أَنْ لَأَبِي هَلَالٍ نَوْعَيْنِ مِنَ الْأَسَاتِذَةِ جَلَسَ إِلَى كُلِّ مِنْهُمَا ،  
وَأَفَادَ مِنْ كُلِّهِمَا عِلْمًا وَعُقْلًا ، وَأَخْذَ عَنْهُمَا هَذَا التِّرَاثُ الْخَافِلُ الَّذِي خَلَفَهُ ،  
وَالْعِلْمُ الَّذِي أَلْفَهُ .

أَمَّا النَّوعُ الْأَوَّلُ : فَأَسَاتِذَةُ مِنَ الْأَلْوَنِ الْمُعْرُوفِ . شِيوَخُ جَلْسِ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ  
وَتَلَقِّي عَنْهُمْ مَا وَسَعَتْ صُدُورُهُمْ مِنْ أَلْوَانِ الْعِلْمِ ، وَمَا وَسَعَهُ الْأَخْذُ وَالتَّلَقِّي ،  
وَأَنْصَتَ إِلَى حَدِيثِهِمْ ، وَنَاقَشُهُمْ فِيهَا وَعَنِّهِمْ .

وَأَوَّلُ هُؤُلَاءِ عِلْمٍ أَعْلَامُ عَسْكَرِ مَكْرَمِ الْحَسْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ  
إِسْمَاعِيلِ الْعَسْكَرِيِّ الْمَكْنَى بِأَبِي أَحْمَدَ ، تَجَدُّ أَسْتَاذِيَّتِهِ لَأَبِي هَلَالٍ أَسْتَاذِيَّةِ صَرِيقَةِ  
فِي نَاحِيَتَيْنِ :

أَوْلَاهُمَا : مَا صَرَحَ بِهِ الْمُؤْرِخُونَ لِسِيرِ الرِّجَالِ مِنْ هَذِهِ التِّلْمِيذَةِ ،  
وَهَذَا يَاقُوتُ يَنْقُلُهَا فِي أَوَّلِ تَرْجِمَتِهِ لَأَبِي هَلَالٍ فَيَقُولُ : قَالَ أَبُو طَاهِرٍ  
السَّلْفِيُّ : وَكَانَ لَأَبِي أَحْمَدَ تَلَمِيذًا وَاقِفًا اسْمَهُ اسْمُهُ ، وَاسْمُ أَيْمَهُ اسْمُ أَيْمَهُ ،  
وَهُوَ عَسْكَرِيُّ أَيْضًا فَرِبًا اشْتَبَهَ ذِكْرُهُ بِذِكْرِهِ <sup>(١)</sup> .. وَأَوْرَدَ صَاحِبَ إِنْبَاهَ  
الرَّوَاةَ فِي تَرْجِمَةِ أَبِي أَحْمَدِ .. وَلِهِ مِنَ الْأَتَابَاعِ عَلَمَاءُ أَعْلَامُ كَأَبِي هَلَالٍ  
الْعَسْكَرِيِّ وَأَمْثَالِهِ <sup>(٢)</sup> .

---

(١) معجم الأدباء : ج ٨ ص ٢٥٨ (٢) إِنْبَاهُ الرَّوَاةَ : ج ١ ص ٣١١

و ثانيةً : ما سجل أبو هلال فيما وقع بين أيدينا من مؤلفاته ، ولا سيما في أعظم كتبه تداولاً لموضوعنا كتاب (الصناعتين) و ديوان (المعانى) فهو لا يفتئذكر أباً أحمداً في أكثر صفحات هذين الكتابين في مثل قوله : - أخبرني أبو أحمد .. حدثني أبو أحمد .. أنشدني أبو أحمد روى أبو أحمد ... إلى غير هذه العبارات وأمثالها التي تدل على الإفادة الواضحة والأخذ الصريح من علم أبي أحمد سوامٍ كان علم روایة أم علم دراية ، ولما كان هذا من الكثرة بصورة واضحة فإننا لا نحتاج إلى التفصيل . ومن أساتذته أيضاً عم أبيه أبو سعيد الحسن بن سعيد ، كان أحدأعلام عصره وشيوخه ، روى عنه أبو هلال .

ويبدو أن والده أيضاً كان شيخاً من شيوخ العلم أورثه حبه والتعلق برجاله وإن كتب لانجذب خبراً صريحاً في كتابه أو روایاته يدل على تلمذة أو أخذ صريح وإنما وجدنا في بعض ما كتب ما يدل على شيء من الإفادة كقوله : ( وجدت بخط أبي رحمة الله : قال القناني : القداحة بقية تبقى في القدر من المرق ، وفي الزكرة من الشراب ... )<sup>(١)</sup>  
ولعل في هذا ما يدل على أنه لم يدرك أباً ، أو أنه مات قبل أن يستطيع أبو هلال الأخذ منه والتألق عليه .

وكانت تصل أباً هلال بأستاذه الأول أبي أحمد رحمه ماسة ، فقد وفينا في بعض الروايات على أن أباً هلال كان يمت إليه بقرابة قريبة ، فقد كان ابن أخيه ، وهذا هو الذي ذكره ياقوت بعد ما رواه عن السلفي من أخبار أبي أحمد قال ... هذا عن السلفي ، وذكر غيره أن أباً هلال كان ابن أخت أبي أحمد<sup>(٢)</sup> .

(١) المعجم في بقية الأشياء ١٣٤ . (٢) معجم الأدباء : ج ٨ ص ٢٦٣ .

ومن هنا نستطيع الحكم بأن أبو هلال قد قصر درسه وتلذته على أبي أحمد ، وأنه كان ملازمًا له دون غيره ، ولعل هذا كان بعد صيت أبي أحمد في عسکر مكرم وماجاورها ، وأنه لم يكن بجانبه شيخ يقاس به ، وقد يكون في لزوم أبي هلال له شيء من الدليل على خلوة أبي أحمد له ، فاحتضنه صغيراً ، وعاش أبو هلال في كنفه كما يعيش الابن في كنف أبيه ، ولم يربح تلك الخلقة إلى غيرها ، ولم يخرج من تلك المشيخة إلى سواها<sup>(١)</sup> اللهم إلا جلسات معدودات في مجلس عم أبيه - أبي سعيد الحسن بن سعيد . وفيما تقدم دلالة على أن أبو هلال احدر من بيته فيها العلماء من أهله ، وكان لهذا أثره في تكوين الرجل وتوجيهه وجهة صالحة مادام في طبعه الاستعداد والميل ولم يحرمهما أبو هلال .

أما النوع الثاني من الأساتذة فهم أكثر أولئك الذين تقدموه أبو هلال من العلماء والأدباء والقاد الذين تتلمذ العسکري على آثارهم وأخذ عنهم صفوة ما فيها . والقول فيهم وفي كتابهم يحتاج إلى تفصيل خصصنا له الفصل الثالث .

#### ٤

ثقافته :

وعلينا قبل أن نتبين ثقافة أبي هلال التلميذ أن نقف على ثقافة أبي أحمد الأستاذ بوجه خاص ، لنقف على أمر هذه الثقافة في تكوين عقلية أبي هلال وثقيفه وشحد ملكاته ، وليس تحوزنا المصادر في هذه الناحية ، فكل ذلك مفصل في ترجمة أبي أحمد تفصيلاً كافياً .

كان أبو أحمد من أعلام المحدثين في عصره ، بل انتهت إليه رياضة

---

(١) المعجم في بقية الأشياء : ١٠

التحديث ، وكان عالماً باللغة حتى اقترب اسمه بوصفه فقيل أبو أحمد اللغوي ، وفي ترجمه دلالة واضحة على طول باعه في اللغة ، والتبحر في معرفة دقائقها تبحرا لم يتسع لكثير غيره من العلماء ، وهو أديب متبحر في معرفة الأدب وفنونه <sup>(١)</sup> يرويه شرعاً ونثراً في غزارة قل أن تتها لامثاله ، وعنه قدرة بارعة على التحقيق والنقد والموازنة واستخلاص عناصر الجودة وأسباب الضعف فيها يعرض من الروايات والأحكام التي اهتدى إليها أسلافه من النقاد والرواة ، وما أكثر رواياته ! وما أكثر نقاداته وأحكامه التي أثبتتها أبر تلاميذه به أبو هلال العسكري !

ورث أبو هلال كل هذه الثقافات عن أستاذه - أبو خالد - أبي أحمد ، بل ربما كان أحد الناس في نقل علمه روایة ودرایة ، وتسجيله في مصنفاته . كان راوية كأستاذه ، وظهر ثمرة هذه الرواية في سفر ضخم في مجلدين هو « ديوان المعاني » الذي جمع فيه أبلغ ما جاء من كل لون وأبدع ما روی في كل فن من فنون المعانی وأعیانها وتخير من ذلك ما كان جيداً لنظم حکم الرصف ، ويدل أيضاً على تمكنه من الأدب ، حتى أصبحت كلمة « الأديب » لقباً من ألقاب أبي هلال .

ويجرنا هذا الوصف إلى توضيح مفهوم الأدب عند العلماء الذين صحبوه هذه الحقبة التي عاش فيها أبو هلال وأستاذه أبو أحمد ، فإن ذلك يأخذ بيدنا إلى الوقوف على لون ثقافة أبي هلال ، وتلك مقدمة لابد منها لفهمه ومنهج تفكيره ، وسبل تخريجه ونقده وموازنته ما روی بعضه ببعض . وقد تقدم أن أبو أحمد انتهت إليه رياضة إملاء الأدب ، « وهي علوم كان المقصود منها هذه القواعد والمعارف التي تعين الطالب على فهم الأدب

---

(١) في ص ٢٤١ و ٢٤٥ من الجزء الثامن من معجم الأدباء شواهد على ذلك .

وتذوقه والقدرة على إنشائه كاللغة والنحو والبلاغة ونحوها ، وهي علوم ذات قواعد نظرية تدخل في فضول منسقة وتوضع فيها الكتب المختلفة<sup>(١)</sup>

وبذلك تعرف كيف كان القدماء لا يحرصون على التحديد حينما يطلقون لفظ الآداب على شيء من هذه العلوم النظرية كما فعل السكاكى في مقدمة كتابه «مفتاح العلوم» حيث يقول : وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لابد منه ، وهى عدة أنواع متآخذة . . . . وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول فى علم الصرف ، القسم الثاني فى علم النحو ، القسم الثالث فى علم المعانى والبيان<sup>(٢)</sup> .

فأطلق كلمة الأدب على هذه العلوم ، وإن سماها أحياناً علم الأدب ، وكما فعل ابن خلدون في مقدمته في فصل علم الأدب إذ يقول :

هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نقدها، فإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في في المنظوم والمتشور على أساليب العرب ومناخيهم، فيجمعون لذلك من كلام ما عساهم تحصل به الكلمة من شعر على الطبيعة وسجع متساو في الإجادة وسائل من اللغة والنحو مشوّهة أثناء ذلك متفرقة ، يستقرىء منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة . . ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف ، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية<sup>(٣)</sup> .

(٢) مفتاح العلوم ٢ - ٣

(١) أصول النقد الأدبي ص ٤٨ .

(٣) مقدمة ابن خلدون : ٥٥٣

كذلك كانوا يخلطون بين الأدباء وعلماء الأدب من النحويين واللغويين والبلغيين والنسابين، فهذا ابن الأباري<sup>(١)</sup> في كتابه (نזהة الألباء في طبقات الأدباء) يترجم للنحوين والأدباء معاً، ويقول عن الكلبي: وأما هشام بن محمد بن السائب الكلبي فإنه كان عالماً بالنسب، وهو أحد علوم الأدب، فلهذا ذكرناه في جلة الأدباء، فإن علوم الأدب ثانية: النحو واللغة والتصريف والعرض والقوافي وصنعة الشعر، وأخبار العرب وأنسابهم، وألحقتنا بالعلوم الثانية علمين وصفناهما وهمما علم الجدل في النحو وعلم أصول النحو<sup>(٢)</sup>.

فالأدب عند هؤلاء وأمثالهم كلمة تطلق على علوم الأدب، والأديب سمة لعارف هذه العلوم والمؤلفين فيها، ويقول الجرجاني في كتاب التعريفات «الأدب عبارة عن معرفة ما يحتزز به جميع أنواع الخطأ»، فزاد معنى الكلمة

(١) هو أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد النحوي المتفنن الزاهد الورع قدم بغداد في صبا وقرأ الفقه على سعيد بن الرزاز حتى برع وحصل طرفاً صالحاً من الحلف وصارا معيناً للنظمية وكان يعقد مجلس الوعظ، ثم فرأى الأدب على أبي منصور الجوايليق ولازم ابن الشجري حتى برع وصار من المشار إليهم في النحو وتخرج به جماعة وسمع بالأئباء من أبيه وبغداد من عبد الوهاب الأنصاطي وحدث باليسير لكن روى الكثير من كتب الأدب ومن مصنفاته، وكان إماماً ثقة صدوقاً فقيها مناظراً غرياً لعلم ورعاً زاهداً عابداً تقيراً عفيفاً لا يقبل من أحد شيئاً خشن العيش والماكل لم يتلبس من الدنيا بشيء ودخل الأندلس فذكره ابن الزبير في الصلة، وله المؤلفات المشهورة منها الإنساف في مسائل الحلف بين البصريين والковفيين . . . . توفي ليلة الجمعة تاسع شعبان سنة سبع وسبعين وخمسة (بغية الوعاء ٣٠١ - ٣٠٢).

(٢) نזהة الألباء في طبقات الأدباء ١١٦ - ١١٧ .

اتساعاً وشمل جميع القواعد النظرية التي تنظم الحياة الاجتماعية في أية ناحية من نواحيها<sup>(١)</sup>.

كان أبو هلال العسكري كما كان أستاذه أبو أحمد أديباً بهذا الذي يفهم من هذه الأقوال، يجيد في فن المنظوم والمشور ، جاماً للجيد عن مأثورهما عن ملوك القول ، يعرف اللغة ، ويعرف دقائق التحو ، ويعرف أنساب العرب ووفائهم وأيامهم وأحوالهم العامة ، آخذآ من كل فن بطرف كما يقول ابن خلدون .

ومع هذا الذي أثبته الأقدمون في تعريف الأدب وذكرهم هذه العلوم وعدهم إياها منه فإن الأستاذ أمين الخلوي يرى أن هؤلاء القدامى كانوا أكثر فهماً وأدق في تصوير المعانى وفهم دلالة الألفاظ ، وهم حين يذكرون هذه العلوم أو الفنون لا يعنون أنها من الأدب ، وإنما يريدون بذلك ما أنها ثقافة لازمة للأدب ، ولشدة لزومها للأدب ، وحاجة الأديب إليها عدوها من علوم الأدب .

ولا شك أن هذه الإلإحاطة الشاملة بالعلوم اللسانية كانت كافية في هذا العصر لتخرّج عالم أديب ، إذا أضفنا إلى ذلك ما تميز به العسكري من ذوق رفيع وسعة في الأفق تتيح له أن يكون أحد الذين يصدرون الأحكام ، ويضعون مقاييس للقول آمن بها معاصروه ولم يتذكر لها خالقهم حتى عصرنا كما سنوضح ذلك في الفصول التالية إن شاء الله .

وهكذا كانت الثقافة العربية والإسلامية هي التي تملأ عقل أبي هلال وهي التي تأخذ بأطراف تفكيره ، فهو قارئ لكتاب الله يجيد فهمه ويجيد الاستشهاد بأبيه في يسر وسهولة ، ويستطيع تدوقه وتبين مناحي الحال وأوجه

---

(١) أصول النقد الأدبي ٤٧ .

الإعجاز فيه ، وهو فقيه عارف بالأحكام ، غير أن الذي غالب عليه هو حب الأدب والشعر .

يُقى بعد ذلك أن نعرض لناحية لها قيمتها في عقلية أبي هلال العسكري وتفكيره ، تلك هي ناحية تأثره بما عرف في عصره من أطراق الفكر اليوناني وأخص ذلك كتاب الخطابة وكتاب الشعر اللذان ألفهما المعلم الأول « أرسطو ».

كان كتاب الخطابة معروفاً في القرن الثالث الهجري ، ترجمه حنين بن إسحاق وسواء أكانت ترجمته بعد وفاة الجاحظ أم قبلها فهلاشك فيه أن الاستفادة من طريق عرض أرسطو للخطابة وللشعر كانت واضحة ، وكتاب البديع لابن المعز ، وما كتبه قدامة وهو من معاصريه يدلان على تأثرهما لأول الكتاب الثالث من كتاب الخطابة الذي يبحث في العبارة ، كذلك ترجم كتاب الشعر في القرن الرابع الهجري . خالوا تطبيق بعض القواعد التي فهموها في العبارة ولم يفرقوا بين التقواعد الخاصة بالشعر وبين القواعد الخاصة بالثر<sup>(١)</sup> .

ومع إفاده العرب من هذا وعدم إفادتهم من ذلك فإن الذي يلوح لنا أن أبو هلال لم يطلع على هذين الكتيبين اللذين كان لهما الأثر البعيد في النقد والبلاغة لأنصرافه عن هذه الثقافة الطارئة إلى تحصيل فنون الثقافة العربية من أطراقها ، وصرفه أكثر عمره في تحصيلها ، فلم يتسع عمره للبحث عن غيرها . الواقع أنه على الرغم من جهله باللغة اليونانية ، وعدم اطلاعه على كتاب أرسطو « الخطابة والشعر » فإنه اطلع على ما كتب أرسطو بالواسطة ، فيما قرأ لأبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي ، وتأثر بها في كتابه « نقد الشعر » الثابت نسبة إليه وكتاب « نقد الثر » الذي يظن أنه له .

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٥٢ — ٥٣

وعلى هذا فإننا لا نستطيع أن نحسب الفكر اليوناني في عداد ألوان ثقافة العسكرى الأصلية ، فإن إفادته محدودة كما سنوضح ذلك . ونستطيع أن نقرر أن ثقافته كانت عربية خاصة وأنه لم يبعد عن أساليب التفكير العربي في كثير .

٥

آثاره :

زود أبو هلال المكتبة العربية بنتائج رائعة ، يدل على خصوب وتمكن ، وسعة ثقافة ، وتوفر على العلم وتحصيله ، ثم على التدوين والتأليف عن فهم وبصيرة . وتفصيض كتب الطبقات بذلك آثار أبي هلال التي تدل على باع طويل وعلم أصيل . بل إن هذه الكتب تكاد تقف تعريفها بأبي هلال على ذكر آثاره ومصنفاته وشيء من شعره العذب في شکوى الزمان وتنكر الخلان . وهذه أسماء كتبه كما ذكرها ياقوت <sup>(١)</sup> .

- ١ - كتاب التلخيص .      ٢ - كتاب صناعتي النظم والنشر .
- ٣ - كتاب جهرة الأمثال : طبع في بومبای سنة ١٣٠٦هـ وفي مصر على هامش أمثال الميداني سنة ١٣١٥هـ .      ٤ - كتاب معانى الأدب .
- ٥ - كتاب من احتمكم من الخلفاء إلى القضاة .
- ٦ - كتاب ديوان الحماسة .      ٧ - كتاب الدرهم والدينار .
- ٨ - كتاب المحسن في تفسير القرآن (خمسة مجلدات )
- ٩ - كتاب العمدة .      ١٠ - كتاب فضل العطاء على اليسر .
- ١١ - كتاب ما تلحن فيه الخاصة .

---

(١) معجم الأنباء — ج ٨ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

- ١٢٧ - كتاب أعلام المعانى في معانى الشعر .
- ١٣ - كتاب الأولائل : اختصره السيوطي في كتاب الوسائل .
- ١٤ - كتاب الفرق بين المعانى . ١٥ - كتاب نوادر الواحد والجمع .
- ١٦ - رسالة في العزلة والاستئناس بالوحدة : ( ذكرها السيوطي في بغية الوعاة <sup>(١)</sup> ) . ١٧ - كتاب المصنون في الأدب .
- ١٨ - المعجم في بقية الأشياء — طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ .
- ١٩ - شرح ديوان أبي محبج التلقى .
- ٢٠ - رسالات في التفصييل بين بلاغتى العرب والمعجم <sup>(٢)</sup> .

وهذه الكتب على كثرتها وتمدد أسمائها لا تخرج عن دائرة ثقافة أبي هلال الذى تمحض لها ، وأنفق فيها حياته ، وأعنى بها الثقافة الأدبية به فهو مما فى العصر الذى عاش فيه ، أوهى بشىء من التوسع : كتب لغة وكتب أدب بالمعنى العام وهو الإنتاج العلمى الذى يصور فى الكلام ويدون فى الكتب ، والمعنى الخاص وهو الكلام الجيد الذى يحدث فى نفس قارئه وسامعه لذة فنية ، سواماً كان هذا الكلام شعرآً أم شرآً أم ما يحتاج إليه من الشرح والتفسير ، أم ما يبين ما فيه من عناصر الحسن أو الردامة .  
والمطبوع المتداول من هذه الكتب ثلاثة :

أولها وأشهرها كتاب «الصناعتين» «الكتابة والشعر» هكذا يعرفه الناس فى أيامنا وقبل أيامنا ، وإذا ما ذكر اسم أبي هلال قيل هو صاحب الصناعتين ، فى بغية الوعاة فى ترجمته «الحسن من عبد الله بن سهل ... صاحب الصناعتين ولكن ياقوت يذكر اسم الكتاب كما رأيت فى ثبت كتبه — كتاب صناعتين

(١) بغية الوعاة (٢٢١) ذكره جرجى زيدان ج ٢ ص ٢٨٤ من كتاب تاريخ آداب اللغة العربية (مطبعة الهلال) ١٩٣٠ م ولنا فيه قول نذكره فى آخر الفصل .

النظم والنشر ، وهو خلاف يسير لا ينهض بالشك في هذا الكتاب ، أو أنه كتاب آخر غير الصناعتين . والصناعتان في المطبوع بين أيدينا هما الكتابة والشعر ، وعند ياقوت الصناعتان هما النظم والنشر ، وفي كلمة النثر عموم وشمول في التسمية الأخيرة لأن النثر فنون والكتابه فن منها ، والكتاب قد اشتمل على فنون أخرى من النثر غير الكتابة كالرسائل والخطب ، فكانت كلية النثر أليق ب موضوع الكتاب ، كما أن كلية الشعر فيها بين أيدينا أليق من حيث التتابع التاريخي ، ذلك أن قدامة بن جعفر ألف كتابه في « نقد الشعر » ، فأراد العسكري أن يتم ما بدأ قدامة من بحث الشعر وأن يشرع الكتابة في النثر أو الكتابة ليتم الأدب من أطراوه .

وقد اشتمل كتاب الصناعتين على عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا :

الباب الأول : في الإبانة عن موضوع البلاغة في أصل اللغة ، وما يجري معه من تصرف لفظها وذكر حدودها وشرح وجهها وضرب الأمثلة في كل نوع منها وتفسير ما جاء عن العلامة فيها ( ثلاثة فصول ) .

الباب الثاني : تمييز الكلام جيده من ردائه ومحوده من مذمومه ( فصلان ) .

الباب الثالث : في معرفة صفة الكلام ( فصلان ) .

الباب الرابع : في البيان عن حسن السبك وجودة الرصف ( فصل واحد ) .

الباب الخامس : في ذكر الإيجاز والإطناب ( فصلان ) .

الباب السادس : في حسن الأخذ وقبحه وجودته ورداته ( فصلان ) .

الباب السابع : القول في التشبيه ( فصلان ) .

الباب الثامن : في ذكر السجع والازدواج ( فصلان ) .

**الباب التاسع :** في شرح البديع والإبانة عن وجهه وحصر أبوابه وفروعه  
(خمسة وثلاثون فصلاً).

**الباب العاشر :** في ذكر مقاطع الكلام ومباديه والقول في الإسامة في ذلك  
والإحسان فيه ( ثلاثة فصول ) .

وقد طبع كتاب الصناعتين في مصر عدة طبعات تجارية تقارب في  
الرداة ، والطبعة المتداولة في مصر الآن مثل من أمثلة الإهمال والتصحيف  
والتحريف والخطأ ، وقد تولى طبعها محمد على صبيح وأولاده ، وعلق عليها  
وفسر غريب ألفاظها محمد أمين الخانجي ، ولم يسجل على هذه الطبعة سنة  
طبعها . وقد طبع طبعة جيدة في الآستانة ولكنها نادرة الوجود .

وئاني هذه الكتب شهرة ، وإن كان وثيق الصلة بموضوعنا كتاب  
(ديوان المعاف) وإن نحن نظرنا في هذا الاسم وطبقناه على ثبت كتب  
أبي هلال لم نجد هذا الاسم نصاً ، وإنما نجد كتابين اسم أو لها (معان الأدب)  
واسم الثاني (أعلام المعاف في معان الشعر) . ونرجح أن ديوان المعاف  
الذى بين أيدينا هو كتاب (معان الأدب) الذى ذكره المؤرخون في آثار  
أبي هلال ، لاختصاص ثانٍ ماذكر وله (أعلام المعاف في معان الشعر) بالشعر  
وحده ، ولأن ديوان المعاف قد جمع فرائد من المنظوم والمنشور هي أقرب  
في نظرنا إلى التعميم وإلى مدلول الأدب . هذا إذا لم يكن (ديوان المعاف)  
كتاباً ثالثاً غير (معان الأدب) وغير (أعلام المعاف في معان الشعر) . وقد  
عنيد بطبع هذا الكتاب ونشره مكتبة القدس بالقاهرة سنة اثنين وخمسين  
وثلاثة وألف الهجرية طبعة جيدة على ورق متوسط ، وقد كتب على  
صدر هذه الطبعة أنها أخذت « عن نسختي الإمامين العظيمين الشيخ محمد عبد  
والشيخ محمد محمود التركى الشنقيطي رحمهما الله » ، الأولى في خزانة الجمعية

الخriية الإسلامية بالقاهرة ، وهى مقابلة بقراة العلامة الشيخ عبد العزيز شاويش رحمه الله ، والثانية في دار الكتب المصرية العامرة مع مقابلة بعضهما بنسخة المتحفة البريطانية بواسطة المستشرق الأستاذ الدكتور كرنكى المفضل بالنظر فى تصحيحه . وقد جمع المسكرى فى هذا الكتاب أبلغ ما جاء فى كل فن وأبدع ما روى فى كل نوع من أعلام المعانى وأعيانها إلى عوادتها وشذاتها ، وتخير من ذلك ما كان جيد النظم حكم الرصف غير مهلل رخو ولا متجمد فح ، وهذا نوع من الكلام لا يزال الأديب يسأل عنه فى المجالس الحافلة والمشاهد الجامعة إذا أريد الوقوف على مبلغ علمه ومقدار حفظه ، فإن سبق إليه بالجواب جل قدره وفهم أمره ، وإن نكس عن ميدانه شال ميزانه وقلت الرغبة فيه وانصرفت الرغبة عنه<sup>(١)</sup> . والكتاب يجمع ضرباً من الشعر وفنوناً من التأثر تمثل للأغراض المختلفة . ليكون مادة للمناقضة وقوة للمفاوضة<sup>(٢)</sup> وقد كانت المجالس الأدبية فى هذا العصر العباسى كثيرة ما يضطر روادها إلى مثل هذا اللون من علم الرواية ، يستدل به على غزاره العلم وقوته العارضة ، والمقصر فى تلك الخلبات منقوص القدر محروم من الجائزة ، فقد كان الخلفاء يتصدرون تلك المجالس فيلقون على هؤلاء الرواد بعض الأسئلة ليستدلوا على قدرتهم ووعيهم وتمكنهم من الأدب ومعانيه . وقد نظمه أبو هلال الأنبي عشر بابا :

الباب الأول : في التهان والمديح والافتخار .

الباب الثاني : في الحصال .

الباب الثالث : في المكاتبات والهجاء والاعتذار .

الباب الرابع : في الغزل وأوصاف الحسان .

---

(١) ديوان المعانى ٧

(٢) المصدر السابق ١٤

الباب الخامس : في ذكر النار والطين وأنواع الطعام وصفات الشراب  
وما يحرى مع ذلك .

الباب السادس : في ذكر السماء والنجوم والشمس والقمر وما يحرى  
مع ذلك .

الباب السابع : في ذكر السحاب والمطر والثلوج والمياه وصفات البساتين  
والرياض والأشجار والثمار والرياحين والنسيم وما يحرى  
مع ذلك .

الباب الثامن : في ذكر السلاح وال الحرب وما يشبه ذلك .

الباب التاسع : في ذكر القلم والخط والكتاب وصفة البلاغة وما يحرى  
مع ذلك .

الباب العاشر : في ذكر الخيل والإبل والسير والفلوات والسراب وصفة  
سائر الحيوانات .

الباب الحادى عشر: في ذكر الشباب والشيب والعلل الموت والمراثى  
والتعازى والزهد .

الباب الثانى عشر : في صفة أشياء مختلفة .

فالكتاب حافل بفنون الشعر والنشر التي تمثل هذه الأغراض مع شيءٍ  
من النقد والموازنة في ثانياً هذا العرض لعيون الأدب .

أما الكتاب الثالث فلا صلة تربطه بموضوعنا لأنّه كتاب لغوی واسمہ  
«المعجم في بقية الأشياء»، وقد أكمله وعلق عليه وضبطه الأستاذ إبراهيم  
الإيباري والأستاذ عبدالحفيظ شلبي ، وطبعته مطبعة دار الكتب المصرية  
بالمقاهرة سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة الميلادية ( ١٩٣٤ الميلادية ) .

وبين هذه الكتب التي قيل أنها لأبي هلال «كتاب التفضيل» بين بلاغتي

العرب والعجم، الذى عده جرجى زيدان فى آثاره . وقد عقدنا به منذ وقوع  
نظرنا على اسمه آملاً عرضاً وظنت أنـه سيلقى بعض الضوء على عقلية أبي هلال  
وجوانب من ثقافته فـيكون مكملاً لكتاب الصناعتين .

ولـكن هذا الأمل تـبدـد حين عثـرـنا على الكتاب بعد لـاـئـى في خزانة  
الـشـنـقـيـطـى بـدارـ الـكـتـبـ المـصـرـيـةـ فإذاـ هوـ رسـالـةـ صـغـيرـةـ فـيـ نـحـوـ تـسـعـ صـفـحـاتـ  
(٢٠٣ - ٢٢١) وـهـىـ الرـسـالـةـ السـادـسـةـ عـشـرـةـ بـيـنـ سـبـعـ عـشـرـةـ رسـالـةـ  
بـجـمـوعـةـ فـيـ كـتـابـ سـمـاءـ جـامـعـهـ «ـ التـحـفـةـ الـبـهـيـةـ وـالـطـرـفـةـ الشـهـيـةـ »ـ (١)ـ عـلـىـ أـنـ قـلـةـ عـدـدـ  
الـصـفـحـاتـ لـمـ يـقـطـعـ الـأـمـلـ فـيـ أـنـهـ تـحـوىـ عـلـيـاـ مـرـكـزاـ وـرـأـيـاـ مـحـكـماـ يـضـيـفـ بـهـ  
أـبـوـ هـلـالـ حـلـقـةـ جـديـدـةـ إـلـىـ سـلـسـلـةـ اـجـتـهـادـ الـبـلـاغـيـ وـلـاـ سـيـماـ أـنـ كـاهـةـ (ـبـلـاغـةـ)  
مـصـرـحـ بـهـ فـيـ عـنـوانـ الـكـتـابـ .

رأـيـتـ فـيـ فـهـرـسـ «ـ التـحـفـةـ الـبـهـيـةـ »ـ (٢)ـ مـاـ يـبـشـرـ بـهـذـاـ أـمـلـ إـذـ نـصـ أـمـامـ  
الـرـسـالـةـ السـادـسـةـ عـشـرـةـ عـلـىـ أـنـهـ لـلـعـلـامـةـ أـبـيـ هـلـالـ الـعـسـكـرـىـ وـفـيـ نـهاـيـةـ الرـسـالـةـ  
الـخـامـسـةـ عـشـرـةـ مـاـنـصـهـ (ـ اـتـهـ الرـسـالـةـ الـخـامـسـةـ عـشـرـةـ وـتـلـيـهـ الرـسـالـةـ السـادـسـةـ  
عـشـرـةـ فـيـ التـفـضـيـلـ بـيـنـ بـلـاغـيـ الـعـربـ وـالـعـجمـ لـأـبـيـ هـلـالـ الـعـسـكـرـىـ )ـ (٣)ـ .ـ وـلـكـنـاـ  
فـوـجـئـنـاـ فـيـ صـدـرـ هـذـهـ الرـسـالـةـ بـأـنـهـ (ـ صـنـعـةـ أـبـيـ أـحـمـدـ الـحـسـنـ بـنـ عـبـدـالـلـهـ بـنـ  
سـعـيدـ الـعـسـكـرـىـ )ـ (٤)ـ .

وـهـنـاـ أـخـذـنـاـ الـحـيـرـةـ وـمـلـنـاـ أـوـلـ الـأـمـرـ إـلـىـ تـرـجـيـحـ أـنـ يـكـونـ الـخطـأـ  
فـيـ هـذـهـ الـعـبـارـةـ الـأـخـيـرـةـ وـأـنـ يـكـونـ الصـوـابـ مـاـفـيـ الـفـهـرـسـ وـمـاـ فـيـ نـهاـيـةـ  
الـرـسـالـةـ الـخـامـسـةـ عـشـرـةـ وـمـاـ اـعـتـمـدـهـ جـرجـىـ زـيدـانـ .

هـذـاـ مـاـ مـلـنـاـ إـلـىـ تـرـجـيـحـهـ أـوـلـ الـأـمـرـ وـلـكـنـ بـعـدـ قـرـأـتـنـاـ هـذـهـ الرـسـالـةـ بـانـ

(١) رقم ١٠ خصوصية محاميع (ش) (٢) مطبعة الجواب بالقدسية سنة ١٣٠٢

(٣) ص ٢١٢ من المجموعة (٤) ص ٢١٣ من المجموعة

لنا أن الصواب هو ما كتب في صدرها ، وهو أنها ( صنعة أبي أحمد . . . ) وأن الوهم سرى إلى ناشر المجموعة ، وفات العلامة الشنقيطي وهو مالك المجموعة ووافقها أن يصح خطأً الطبع واكتفى صاحب « تاريخ آداب اللغة العربية » بالنظر إلى الفهرس خلط هؤلاء بين الرجلين كما خلط الأقدمون بينهما .

والذى رجح لنا أن الرسالة لأبي أحمد دون أبي هلال عدا ما كتب في صدرها أن فيها آراء تختلف آراء أبي هلال . ومن ذلك قول أبي أحمد ( أخبرنا أبو بكر بن دريد ) وهو من أساندته أبي أحمد دون أبي هلال قطعاً . ومن ذلك أن أبي هلال عودنا أن يقول في روایاته : أخبرني أبو أحمد . . أو حدثني . . أو ومثل ذلك ما حدثنا به أبو أحمد . . أما الرسالة فإن فيها ( قال الشيخ ) أو ( قال الشيخ أبو أحمد ) وهذا تعبير المملى عليه ، والذى عرف عن أبي أحمد كما ذكر المؤرخون أنه كان مشهوراً بإملاء الآداب في قطر خوزستان .

#### شعره :

هذا ولأبي هلال شعر رقيق من بعض المأثور منه ، وفي « ديوان المعان » طائفه كبيرة من منظومه ، لو ضم بعضها إلى بعض لكان منها ديوان نفيس ، فهو حين يعرض الجيد من مأثور القول للعرب في جاهليتها وإسلامها يدل بدلوه في الدلاء فينشد لنفسه في الأغراض المختلفة ، من ذلك قوله في الحسن مع الشجاعة :

في على نفسه من نفسه رصد  
يصدق إن نطق الشين والذاما  
ما زال يقتم مala ثم يغرمه  
أغراً ما  
والتجم منزلة والطود أحلاما  
تجله حين يبدو أن تقول له  
كأن في ثوبه بدرآ وضر غاما

وقوله في المدح :

ودانت لك الدنيا وذلت لك الدهر  
تطيب بك الدنيا وينعم عمر  
على صفحات ليل وأنت لهم بدر  
أوئلَك أئمَاد وأنت لهم بحر  
فهم شفق فيها وأنت بها بحر  
فإن العلا روض وأنت به زهر  
لها أنجم من زهر أخلاقكم زهر

نصرت على الأعداء فليهنك النصر  
فأنت كإقبال الشبيبة والصبا  
وليس كرام الناس إلا كواكبنا  
وفي الناس أجود كثير وإنما  
فإن أظلم الأحداث وأسود ليلها  
أبا قاسم نفرأ على المجد والعلا  
غدت أرضنا منكم سماء مظلة  
وقوله في الغزل :

يُضحك في أوجه الدُّجَنَاتِ  
قيمة<sup>(١)</sup> في نصاب مرآة

وانشق ثوب الظلام عن قمر  
كأنما التجم حين قابله

و قوله في معنى قوله صلى الله عليه وسلم (كفى بالسالم دام) :  
لابد أن يشكوه من يشكوه  
يميته بقاوته في قبره  
يطويه من مداره مالا ينشره  
يهدم من عمرك مالا تعمره

ما خير عيش صفوه يكدره  
والمرء ينسى والمنايا تذكره  
وكسره منه الذي لا يجبره  
في كل مجرى نفس يكرره  
وفي معناه أيضاً :

وأسعف الإلف بعد صده  
صرت إلى خفضه ورغده  
لابد من نزعه ورده  
وجوده علة لفقده

قد قرب الأمر بعد بعده  
وبعد بؤس وضيق عيش  
لكنه ملبس معار  
وهل يسر الفتى بحظ

(١) قيمة السيف كسفينة : ما على طرف مقبضه من فضة أو حديد.

# البلادة والنفارة قبل اُمي هلال

١

خلفت الأمة العربية منذ جاهليتها الأولى نتاجاً ضخماً من الأدب فيه صورة لأحاسيس الأدباء ومدى تأثيرهم بيئتهم وحظهم من الثقافة والفكر ، وحظهم من العاطفة والخيال ، وتبعدو منه أدلة قدرتهم البارعة على التصوير والتعبير .

وهذا النتاج الضخم ليس على درجة واحدة من الإجاده والإبداع ، وليس على درجة واحدة في إحداث التأثير الفنى في نفوس مستقبلى هذا النتاج ، بل إن منه ماسماً واتسم بالجودة تهتز له نفوس القارئين والسامعين ، وتطرب له قلوبهم ، ويتجاوز تأثيره العصر الذى أنشئ فيه والجماعة التي حدثت به إلى العصور اللاحقة والأجيال التالية ليصبح لغة الإنسانية التي تعبّر به عن آمالها وألامها وترسم لها صورة أمشل العليا التي لا تزال تتطلع إليها في كل جيل وفي كل قبيل ، وذلك بما توفر له من شعور صادق وتعبير جميل ، وبما بدا فيه من الأصالة والقدرة على التصرف والافتتان ، ومنه نتاج جاء رثأ خلقاً ، وتعبيرآ سقيماً عن شعور سقيم ، أو جاء صدى لإحساس الغير وعواطفه ، فكان بارداً غثناً .

وأنت إذا اطلعت على هذا التراث الأدبي راعتكم كثرته ، ولكن هذه

الكثرة التي تروعك لن تراها بمثله لضروب الأدب تمثيلاً كاملاً ، فإن هذا التراث الذي خلفته الأمة العربية يكاد يكون كله شعراً ولعظم مكانة الشعر في نقوسهم أطلقواه على كل علم وفن<sup>(١)</sup> وأما سائر ضروب الأدب فلن ترى منها إلا ظلالاً غير مستقرة ، والقليل الذي أثر لنا من خطب المjahلين قليل لا غناه فيه ، بل إن هذا القليل شك فيه جماعة من علماء الأدب ومؤرخيه وتصدوا له بالنقى ، لما رأوا فيه من صناعة لفظية وأسجاع مفتعلة ، رأوها غير جديرة أن تتنسب إلى هذا العصر الذي لم يعرف التكلف في شيء من فنون الحياة ، فأحرى به ألا يعرفه في فن من فنون القول .

أما الكتابة فلا حظ لها من الحياة في هذا العصر إذ كان العرب قوماً قد فشت فيهم الأمية وجاهوا القراءة والكتابة ، ولم يكن لديهم من تكاليف الحياة أو نظم الحكم ما يقتضي الكتابة تنظم شئونهم ، وتقوم لهم بمستلزمات الحكم والحياة ، ولم يجتمع لدى العرب من موارد الثقافة وضروب الحضارة ما يهيئ للنشر الفنى أن يحتل منزلته من أدبهم ، ويدل على قدرتهم على تنضيد المعانى وتنسيق الأفكار .

وكانت الحال قريباً من ذلك في صدر الإسلام وفي عصر دولة بنى أمية ، إذا استثنينا من فنون النثر الخطابية التي كان لها أمر ملحوظ بسبب الحاجة إليها في نشر المبادىء ، وفي الترغيب والترهيب ، واحتل جماعة من خول العرب منازل خطابية فكانوا فرسان الكلام تهذّب لهم أعود المنابر ، وترتعد لسماعهم القلوب ، وإذا استثنينا الكتابة التي ولدت في آخريات عصر بنى أمية ووضع لها عبد الحميد بن يحيى قواعد وأصولاً يحتذىها رجال هذه

---

(١) أشعره الأمر وبه أعلم ، والشعر غالب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية وإن كان كل علم شعراً (قاموس : ج ٢ ص ٥٩) .

الصناعة ، ولكنها على أى حال لا تعد صناعة لها خطر ما في هذا العصر ، وإنما يكون لها هذا الشأن في العصر العباسي الذي شعت فيه أصوات العلم والمعرفة ، وبدأت الكتابة وسائر ضروب النثر الفنى تظهر واضحة المعالم بذلة القسمات .

فأظهر ألوان الفن الأدب عند الجاهلين والإسلاميين هو الشعر الذى كان صناعة العرب تطلق به ألسنة فصحائهم وذوى الموهاب منهم فترددت الألسنة ويتراوah الناس حتى اشتهر أمره ، وحفظ على إصفحات القلوب إلى أن كان التدوين في العصر العباسي الأول لحفظته السطور بعد الصدور .

تناول هذا الشعر جميع الفنون وعالج جميع الأغراض التي تتصل بالحياة وتعرض للشاعر فتوثر في حسه وتثير انفعاله من تعبير عن الحب أقوى العواطف الإنسانية ، وبكاء الأطلال الدوارس التي خلفها الأحباب ، ووصف مشاهد الصحراء من سهل وجبل ، ونبات وحيوان ، ومطر وسحب ، ومدىع لأولى التجدة من الأحرار الشجعان الكرام ، وهجاء للأعداء ، ونفر بالأولياء ، ووصف للحرب والغاراث ، ورثاء من أسدى فضلا إلى الشاعر أو كانت له به صلة من رحم أو جوار .

ومثل هذه الأمور التي تثير انفعال الشاعر وتؤثر في عاطفته يجعله يحاول أن يشرك غيره معه في الإحساس بما أحس والتأثر بما تأثر به ، وهذا هو داعية القول وغايته .

## ٢

يستقبل الناس هذا النتاج استقبالا مختلفاً ، بحسب ما تملئه طبائعهم ، وتذوقهم لهذا الفن ، ففهم من يغالى به ويرفعه إلى القمة ، ومنهم من يتضمن به إلى الحضيض بحسب أهوائهم وولاتهم للشاعر أو عدائهم له أو للمجاعة التي

ينتسب إليها . بخاءت هذه الأحكام وفيها التناقض وآثار الارتجال ، فما يعجب هذا لا يرضي عنه ذوق ذاك ، حتى كان الاتفاق على خبراء بهذه الصناعة يصدرون في أحکامهم عن خبرتهم وطول معاناتهم للشعر ، لأنهم طالما بلوه وراضوا جانحه ، وذلّلوا شارده حتى استلان تهم قناته ، وسهل عليهم صعبه ، « في أواخر العصر الجاهلي كثُرت أسواق العرب التي يجتمع فيها الناس من قبائل عدّة ، وكثُرت المجالس الأدبية التي يتذاكرون فيها الشعر وكثير تلاقي الشعراء بأفنيّة الملوك في الحيرة وعمان يجعل بعضهم ينقد بعضاً ، وهذه الأحاديث والأحكام والآخذ هي نواة النقد العربي الأولى<sup>(١)</sup> . »

وهو لام الحكم أو النقاد كانوا يصدرون أحکامهم عامة ، قائمة على التأثر والانفعال من غير منهج يصدر الحكم على مقتضاه ، لأن هذا المنهج لا يتناسب إلا لناقد استطاع أن يخضع ذوقه لنظر العقل ، وهذا مالم يكن عند قدماء العرب ، وما لا يمكن أن يكون ، ومن ثم جاء نقدمهم جزئياً مسرفاً في التعميم ، يحس أحدّهم بجمال بيت الشعر وتنفعه به نفسه فلا يرى غيره ولا يذكر سواه كشأنه في كل أمور حياته إذ تجتمع نفسه في الحاضر الماثل أمامه ، وفي هذا ما يفسر ما تجد في كتب الأدب من أحكام مسرقة كقولهم « هذا أجود ما قالت العرب » و « هذا الرجل أشعر العرب » وما إلى ذلك<sup>(٢)</sup> . فإذا أنت بحشت من العلة التي بنوا عليها هذا الحكم أو ذاك لم تجد لها أثراً ، ولا غرابة في ذلك لأن المقياس العلة العقلية عمل عقلي منظم ينبع عن ثقافة عامة أو في الأقل ثقافة خاصة تتصل بهذا العمل الفنى والثقافة الخاصة التي نعنيها هى الإسلام بالعلوم اللسانية ، وتلك لم تكن علوماً منظمة

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ١١-١٢ .

(٢) النقد المنزجي عند العرب ٧ .

لأن تدوينها جاء متأخرآ في العصر العباسي ، فكان الإحساس وحده هو الحكم في تقدير هذه الآثار الفنية ، أما التقسيم والميل إلى التحديد الذي يجعل من هذا النقد الذوق لوناً من ألوان المعرفة يؤخذ به ويقاس عليه فذلك مالا وجود له .

ومع ذلك فقد تجد من بين هذه الأحكام المبنية على الذوق وحده ما يقس له العلة كما تجد مثل ذلك في كلام عمر بن الخطاب في صفة شعر زهير ووجه استحسانه إياه ، وهي قوله ( كان لا يعاظل <sup>(١)</sup> في الكلام ، وكان يتتجنب حوشى الشعر ، ولم يدح أحداً إلا بما فيه ) وهذا قول يستند على الدليل والتعليق ، وهو وإن كان قد قصر العلة على النظر إلى الألفاظ وإلى تحري الصدق فيما يقول ، إلا أن ذلك فيما نعلم كان أول حكم نقدى مبني على التعليل ، وأحر ب تلك النظرة الفاحصة والوعي السابق أن يصدر عن عمر .

أما قصة النابغة وحكمه بين الخنساء وحسان والأعشى في سوق عكاظ ونقد النابغة يبي حسان فأكبر الظن أنها مفتعلة ، لأن ما ذكر من العمل أجدر بكلام المتأخرین من النحاة واللغويین ، وربما كان أصدق من هذه الرواية ما رواه القالى في أمالیه أن النابغة قال لحسان إنك لشاعر ، وقال

: (١) لا يعرف قدامة المعاظلة إلا فاحش الاستعارة مثل قول أوس :

وذات هدم عارنو اشرها تصمت بالماء توبلها جدعا  
فسوى الصبي توبلها وهو ولد الحمار .

ومثل قول الآخر :

ومارقد الولدان حتى رأيته على البسكتيريه بساقي وحافر  
فسوى رجل الإنسان حافراً . فإن ما جرى هذا الجرى من الاستعارة قبيح  
لا عنده فيه ( وقد الشعر ١٧٤ ) وفي المعاظلة كلام نذكره بعد .

للحنساء إنك لبكاءة ، أو مارواه ابن قتيبة أن حسان قال للحساء : أنت أشعر من كل ذات مثانته قالت ومن كل ذى خصين .

وهذه الأحكام العامة لم تأخذ صورة التأليف في النقد ، ولم تحاول وضع أسس صالحة تتيح مقاييس ، وإنما هي أحكام فردية وآراء عارضة تتناول الجزئيات ولا تعنى بوضع موازين كلية تصلح لهذا الأثر وتنطبق على غيره .

وهي كذلك معتمدة الاعتماد كله على أذواق مصدرى هذه الأحكام دون نظر إلى قاعدة تبني عليها ، فالذوق الشخصى هو المقياس الأوحد لنقد الشعر والشعراء ، ولم يصل هذا الذوق بتجاربه الكثيرة وموازنته بسائر الأذواق إلى استخلاص نقطة وسط تلتقي عندها الأذواق المختلفة .

فالطبيعة المواتية والفطرة السليمة كانت اختير الذى تختبر به الآثار الفنية عند القدماء ، ولكن ذلك لا يغض بحال من سلامة هذه الآراء إذا بعد صاحبها عن المؤثرات الخارجية عن العمل الأدبي ، وكان هذا العمل الأدبي وحده هو مجال الحكم من غير نظر إلى المصدر . ونحن لا نستطيع أن نتجاهل أثر الذوق في النقد ولا أن ننكر للأحكام التي تصدر عنه حتى في العصور الحديثة بعد أن استقل النقد الأدبي بأسسه وتعاليمه وألفت فيه الكتب لعلماء من أمم مختلفة .

وليس من شك في أنها لا نستطيع أن ندرك طعم طعام أو شراب مالم نتذوقه بأنفسنا ولا يمكن أن يعنيانا عن هذا التذوق الشخصى أى تحليل كيماوى أو تقرير خبراء ، وكذلك الأمر في الفنون كافة ، فآى وصف لللوحة زيتية أو تمثال من الرخام لا يمكن أن يعني عن الرؤية المباشرة ، وكذلك الأمر في الأدب ، فذوقنا الخاص هو أساس كل فهم له بحيث يبدو النقد الذوق أمراً مشروعاً .

وهو بعد حقيقة واقعة حتى عند العلماء من النقاد المحدثين ( فالتأثيرية ) قائمة في أساس كل نقد<sup>(١)</sup> حتى لنرى ناقدا عالما كلانسون يقول : إذا كانت أولى قواعد المنهج العلمي هي إخضاع نقوسنا لموضوع دراستنا لكي تنظم وسائل المعرفة وفقا لطبيعة الشيء الذي نريد معرفته فإننا تكون أكثر تمشيا مع الروح العلمية ياقرارنا بوجود التأثيرية في دراستنا وتنظيم الدور الذي تلعبه فيها ، وذلك لأنه كلما كان إنكار الحقيقة الواقعة لا يمحوها فإن هذا المنصر الشخصي الذي نحاول تحييته سيتسلل في خبث إلى أعمالنا ، ويحمل غير خاضع لقاعدته ، ومادامت التأثيرية هي المنهج الذي يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجاذبها ، فلنستخدمه في ذلك صراحة ولكن لنقتصره على ذلك في عزم ولنعرف مع احتفاظنا به كيف نميزه وقدره وزواجه ونحدده ، وهذه هي الشروط الأربع لاستخدامه ، ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس وأصطناع الخدر حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة . . وإن ذن فالتقد الذوقى فقد مشروع وحقيقة واقعة<sup>(٢)</sup> .

وهذا الذي رأيناه من غلبة الذوق وتأثيره في الأحكام الأدبية مذ وجد الشعر العربي لا ينقطع سبيه في العصور التالية ، بل إننا سنرى أن إعمال الذوق الخاص في تقدير النص الأدبي سيظل واضح الآثر فيها بعد . وفي القرن الأول الهجري كثر النقاد واتسع مجال القول عندهم ، وحاولوا أن يضعوا أحكاما عامة للمعاني وأحكاما عامة للأساليب وارتقي بذلك النقد وكثرت الموازنة بين شعر وشعر ، وشاعر وشاعر ، ورأينا للمرة الأولى شيئا من الأحكام على الشعراء وتقسيمهم إلى طوائف وطبقات .

على أن الذين اضطلعوا بهذا العمل للمرة الأولى هم رجال اللغة والتحويون

---

(١) النقد المنهجي — ٦ (٢) منهج البحث في الأدب واللغة — ٢٩

الذين سماهم الناس أدباء وهذا (ابن الأباري) في كتابه «نزهة الآلباء في طبقات الأدباء» يشرح هذه الكلمة فيصيغ إلها مايعرفها بقوله «أى النحاة، ويجعل فيه بعض الأدباء الى جانب جموعات كبيرة من النحاة واللغويين من أمثال أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب والأصمى وأبي عبيدة والمفضل الضبي .

ولا شك أن كل واحد من هؤلاء الأعلام ينظر إلى النص الشعري من الزاوية التي يجيد النظر منها ، فلكل واحد منهم ناحيته التي أتقنها وأجاد فيها ، ويصدق ذلك قول الملاحظ : طليت علم الشعر عند الأصمى فوجده لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجده لا يتقن إلا إعرابه ، فغضفت على أبي عبيدة فوجده لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب <sup>(١)</sup> .

ولقد كانت هذه الثقافات المشعية سبباً في تشعب بحوث النقد وتتنوع أساليبه أما النقد الأدبي الفنى الخالص فلا نكاد نجد فيه دراسة منسقة منتظمة.

### ٣

ومن أقدم الذين قدموا إلينا دراسة أدبية منظمة - بل لعله أقدمهم - رجل من رجال العربية ، اجتمعت فيه مواهب كل هؤلاء العلماء والأدباء هو (محمد بن سلام الجمحي) <sup>(٢)</sup> الذي كان نحوياً ولغوياً ورواية وعالما

(١) العمدة : ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن سلام عبد الله بن سالم البصري ، كان من جملة أهل الأدب وألف كتاباً في طبقات الشعراء وأخذ عن حماد بن سلمة وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل وأبو العباس ثعلب . وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شبة :-

بالشعر ، وجدناه يخصص مؤلفاً لدراسة الشعراء ، ويعد إلى تقسيمه إلى طبقات ، ويسمى كتابه (طبقات الشعراء) .

وهو في هذا الكتاب يضع بعض الأسس الفنية للنقد الأدبي ، منها وجوب تخصص جماعة له من العلماء المتخصصين اختص به ، كما أن كل صناعة من الصناعات تحتاج إلى متخصصين يعرفون مداخلها ، ويفهون سرها ، وللشعر صناعة وثقافة يعرفها العلم كسائر أصناف العلم والصناعات منها ما شفه العين ، ومنها ما تشفه الأذن ، ومنها ما تشفه اليد ، ومنها ما يشفه اللسان<sup>(١)</sup> .

وهو من جهة أخرى يرى أن الأحكام التي يصدرها العلماء لا تنسى إلا لذوى الدرية والممارسة الذين راضوا أنفسهم على مثل هذا اللون من الصناعات ، ويشير حينئذ إلى أن النزوق الخاص لكل إنسان لا يكفي ، وإنما النزوق المعتمد هو ذوق الخير بالشعر ، ويشير إلى التفاوت العظيم بين خبير وغبي ، بحسب دربته وطول تجربته « وإن كثرة المدارسة تعدى على العلم ، قال محمد : قال خلاد بن يزيد الباهلى خلف بن حيان أبي محرز — وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله — بأى شىء ترد هذه الأشعار التي تروى ؟ قال له : هل تعلم أنت منها ما إنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم ! قال : أتعلم في الناس من هو أعلم منك بالشعر ؟ قال : نعم ! قال : فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك مالا تعرفه أنت ! » .

---

== حدثني جدي قال : كان ابن سلام له علم بالشعر والأخبار ، وهو من جملة علوم الأدب .. توفى سنة اثنين وثلاثين ومائتين وكان ذلك في السنة التي مات فيها الواثق وبويع التوكيل ابن المعتصم ( نزهة الأباء في طبقات الأدباء ٢١٧ - ٢١٨ ) .

(١) طبقات الشعراء ٦ .

ومن ذلك ماروى أن قائلًا قال لخال الأحمر : إذا سمعت أنا بالشعر  
واستحسننته ، فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك ! فقال له : إذا أخذت  
أنت درهما فاستحسننته ، فقال لك الصراف إنه ردىء ، هل ينفعك  
استحسانك له ؟ !<sup>(١)</sup>

ومن هنا نفهم أن ابن سلام أضاف إلى مقياس الذوق مقياساً آخر  
هو مقياس الرأي والاتفاق على الحكم عند العارفين من أهل الصنعة .

تعرض ابن سلام كذلك لأمر كان يشغل بال معاصريه ، وتتكلم فيه  
بعض العلماء والأدباء في زمانه ، ذلك هو أمر الشعر المطبوع الذي  
صحت لديه ولدى ثقائه نسبة إلى أصحابه ، وإلى الشعر المصنوع الذي وضعته  
الرواة لأسباب شرحها في كتابه ، فيبين دواعي الافتخار وأسباب معرفته  
بأدلة عقلية لا تقبل الشك ، وتعرض في هذا المقام بماعة من الرواة إنهموا  
باصطناع الشعر وإذاعته في الناس مدفوعين إلى ذلك بداعي العصبية  
أو بالرغبة في ذيوع شهرة بالانفراد برواية ما لم يستطع الرواة روایته .  
وهذا بحث سليم يدخل في صميم النقد وله صلة وثيقة بالمنهج النفسي في دراسة  
الأدب ونقده .

ثم يدع هذه المقدمات النافعة المفيدة إلى ما ألف له الكتاب من تقسيم  
الشعراء إلى طبقات ، ذاكراً عوامل تقديميه طبقة على طبقة ، وهو في هذا  
الكتاب لا يتعرض للماهور من شعر هذه الطبقة أو تلك فيحلله تحليلًا فنياً  
مبيناً أسباب التقاديم والتأخير ، ولكنه يذكر الجيد من غير أن يعرف  
بأسباب الاستجادة . فليست لابن سلام في هذه الناحية «أحكام على الشعر  
نصًا ، بل أحكام على الشعراء ، وتنويه بما لهم من القول الطيب وبما لهم

• (١) ص ٧ .

من نظراً و بالمنزلة التي هم أهل لها ، ويورد ابن سلام في هذا الشأن بعض ما ذكره الناس قبله ، وكثيراً ما يكون له رأى مبتكر لم يسبق إليه <sup>(١)</sup> .

كانت غاية ابن سلام كلياً يدو من عنوان كتابه وضع كل شاعر في طبقته الملائمة وتفضيل هذه الطبقة على تلك ، والمقاييس بين هذا الشاعر وذاك . فالجاهليون عشر طبقات بحسب جودة شعرهم وكثرة ، ثم يترك مقاييس القلة والكثرة إلى الإجادة في غرض واحد من أغراض الشعر الكثيرة وهو الرثاء ، فيجعل طبقة جديدة يسمى بها طبقة أصحاب المراثي ثم ينتقل إلى دراسة الشعراء حسب مواطنهم ، فشعراء المدينة وشعراء مكة وشعراء الطائف وشعراء البحرين وشعراء يهود المدينة ، ثم ينتقل إلى الإسلاميين فيقسمهم عشر طبقات أيضاً ، ويحمل التاسعة طبقة الرجال .

ومن هنا نستطيع أن نستخلص أن ابن سلام قد عالج في كتابه عدة موضوعات تعد من ضمن ما يبحث النقاد في دراساتهم للأدب ، فننظر إلى zaman كأنظر إلى المكان ، وتنبه إلى أثر البيئة في الشعر ، وهذا البحث من أهم المباحث التي يعني بها دارسو الأدب وتقديره . ويظل كتاب ابن سلام من أهم ما كتب في النقد الأدبي عند العرب ويظل ابن سلام من أجلاء النقاد صحة ذهن ونفاذ بصر بما بسط من القول وأوضح من الدلائل وبين من العلل .. ففي كتابه صورة لحياة النقد منذنشأ في الجاهلية إلى أوائل القرن الثالث ، وصورة للأذواق المختلفة .. ولقد كانت الأفكار في النقد مبهضة لا يربطها رابط ، حتى جاء ابن سلام فضم أشتاتها ، وألف بين المشابه منها بروح على قوى ، ثم إن الأصول التي عرفت قبله في النقد لم توطد ولم توكل ولم تستقر ولم ترسخ إلا في كتاب « طبقات الشعراء » .

(١) تاريخ النقد الأدبي ٨٢ .

هذا إلى أن الكتاب أقدم وثائق النقد المدونة فيه كثير من آراء الأدباء واللغويين التي انتفع بها فيما بعد من كتبوا في الأدب أو في سير الشعراء<sup>(١)</sup>.

وقد عاصر ابن سلام علم من أعلام الفكر العربي هو أبو عثمان الجاحظ الذي استطاع أن يتصور موضوع البيان العربي في صورة دراسة واسعة تعالج على شيء من الأسس النظرية وتحشد لها النصوص ، ويستعان عليها بكتف من آراء الأمم الأخرى في الموضوع ، وأنت على الرغم من طريقة الجاحظ الاستطرادية ، وعلى الرغم من أنه لم يبن دراسته على نظرية بعينها ينافشها ويطبقها فإنك تتبين في كتابه (البيان والتبيين) تنبأها إلى التواحى العامة التي لا بد من اعتبارها في دراسة البيان ، لاسيما ما اتصل منه بالجاهير كالخطابة والجدل والمحاجة بين أرباب النحل ، وقد بحث الجاحظ فيما بحث طبيعة اللغة وعلاقة الألفاظ والمعانى وصفات الكلام المبين ، وما يعرض له من وضوح وغيره ومن إيجاز وإطناب ، وفصل القول في مخارج الحروف وصحتها وسلامتها من العيوب ، وصور الهيئة التي يجب أن يكون عليها الخطيب في مظهره وطرق تعبيره<sup>(٢)</sup>.

وهكذا نرى الجاحظ يلم بكثير من الموضوعات المتصلة بالأدب ونظمه ونقده ، وأسكنه يتكلم كلاما عاما ، ليس فيه تحليل كاف لموضوع ذاته ، ولعل الذي أضاع هذه الثرة المرتجاة من إمام من أممته البيان العربي ، هو الجاحظ نفسه ، هو أسلوبه الاستطرادي الذي ينتقل من جد القول إلى هزله ، ومن نادرة طرifice ، إلى حكمة طرifice ، ومن هنا « كانت الإبابة

---

(١) المصدر السابق . ٩٠ . (٢) من الوجهة النفسية .

عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوته في تصانيفه ومنتشرة في  
أذنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة ، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح  
الكثير (١) .

ومع ذلك فالعرب لم يخطوا حين عدوا الجاحظ مؤسس البيان العربي  
وليس ذلك لأنّه وصل بجهده الخاص إلى قاعدة بيانية بعينها ، فشخصيته  
القوية تكاد تكون معروفة في كتابه (البيان والتبيين) ولكن لأنّه جمع  
في هذا الكتاب طائفة من النصوص توضح لنا توضيحاً حسناً كيف كان  
العرب يتصورون البيان في القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث  
وتعطينا صورة بمحملة لنشأة البيان العربي إن لم تسمح لنا بتاريخ هذه النشأة (٢) .

ومن المؤلفات المعدودة في هذا الفن كتاب «الشعر والشعراء» الذي  
ألفه ابن قتيبة (٣) ، وأخبر فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم  
في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم ، وعما يستحسن من أخبارهم ويستجاد  
من أشعارهم وما أخذته العلامة عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم ومعانيهم ،

---

(١) أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص ٧ .

(٢) البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر لطه حسين ( مقدمة تقد  
النشر ) ٣ - ٤ .

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري النحوى اللغوى الكاتب  
ولد في الكوفة سنة ثلث عشرة ومائتين وتقى على أهلها وسكن بغداد وتولى  
قضاء الدينور فنسب إليها وكان رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ثقة دين  
فاضلاً ، مستقل الفكر جريئاً في قول الحق ، وتوفي سنة سبع وستين ومائتين ،  
ومن أشهر كتبه الشعر والشعراء ( وقد يسمى طبقات الشعراء ) ، كتاب المعارف ،  
أدب الكاتب ، عيون الأخبار ، الإمامة والسياسة ، كتاب الأشربة .

وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون ، وأخبر فيه عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها ، وكان أكثر قصده للمسحورين من الشعراء الذين يعفهم جل أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد أراد ابن قتيبة أن يكون مجدداً في تقدير الشعر والحكم على الشعراء ، فلم ينظر إلى أحكام القديم على أنها أحكام ذات قداسة يجب التسليم بها ولا تجوز مناقشتها أو ابتداع رأى مختلف لها .

ولعل ابن قتيبة بهذا كان أول داع للتخلص من قيود القديم الذي كبل العقلية العربية حقا طويلا بأغلال ثقيلة لا نزال نحس وطأتها في أيامنا ، فيما نرى من أن كثيراً من علماء الأدب يؤثرون البقاء في الدائرة التي خطها الأسلاف مع بعد المصر وتبادر البيئات واحتلال الثقافات ، ولنا أن نعد ابن قتيبة أول ثائر على التقاليد في الشعر وعلى أحكام القديم ، حين هاله تعصب حليمه عصره للقديم وتحيزهم الظاهر لهم ، وانتقاد كل جديد مما كان بالغ الجودة ، استمع إليه يقول : ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر ختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلاله لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلامه ووفرت عليه حقه .

فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقديم قائله ويضعه في متخيشه ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب عنده إلا أنه في زمانه أو أنه رأى قائله<sup>(١)</sup> .

---

(١) الشعر والشعراء ٦ .

وبأسلوب منطقى بديع يصل ابن قتيبة إلى حقيقة ثابتة ، وهى أن الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولاختص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقصورا ما بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره . وكل شرف خارجية في أوله ، فقد كان جريرا والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا الحديث وحسن حتى لقد هممت بروايته ، ثم صار هؤلام قدما عندنا بعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم من بعدها ، كالخربي والعتابي والحسن بن هانف وأشياهم فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكر ناله ، وأثنينا عليه ، ولم يضمه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه ، كما أن الردىء إذا ورد علينا للتقدم أو الشريف لم يرفه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه<sup>(١)</sup> .

كان ابن قتيبة كارأينا في هذه الكلمات حررا مستقلا في رأيه ، لا يطمئن إلى آراء القداماء السائدة في عصره إلا بعد اقتناع ، ولكنه على الرغم من هذا الشعور لم يستطع أن يضع مقاييس جديدة يقيس بها الشعراء ويقسمهم إلى طبقات كما فعل ابن سلام في طبقات الشعراء ، ولكنه تطرق في بحثه إلى أمور تعد من صميم البحوث البلاغية التي استقرت بعد ابن قتيبة ، ومن هذه الأمور تكلمه في اللفظ والمعنى وتقسيمه الشعر بحسبهما أقساما ، كما تكلم في الشعر المطبوع والشعر المصنوع ، وإن كان الطبع عنده يعني الارتجال ، وتكلم عن دواعي الشعر التي تهيج لقوله ، وتكلم عن الضرورات الشعرية .

ومهما استعن ابن قتيبة في نقده بطرق العلم ، فقد كان رأسا في العربية مؤمنا بالذوق الأدبي مقوياً للصيغة القديمة في أكثر ماجام به<sup>(٢)</sup> .

---

(١) الشعر والشعراء ٧ ١٤٣ (٢) تاريخ النقد الأدبي

وقد أخرج القرن الثالث أيضاً رجلاً من رجال البلاغة بمعناها المعروفة ، بل لعله أقدم رجالها ، وهو الخليفة العباسى عبدالله بن المعتز<sup>(١)</sup> الذى ألف كتابه «البديع» ، وعرض فيه ما استطاع جمعه من نصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول وكلام الصحابة والأعراب ثم من عيون الشعر الجاهلى والإسلامى والعباسى ، مما اشتمل على محسن من المحسنات البديعية التى كان القدماء يعرفونها ويخلون بها أدبهم دون أن يضعوا لها أسماء ، فسماها ابن المعتز ، ومثل لها بما استطاع من الشواهد التي سبقت عصره ، وكان هدفه من هذا التأليف أن يبين أن الحمدتين الذين ذكرهم والذين نسب إليهم استخدام التحسين البديعى لم يكونوا مبتدعىه ، ولعله أن بشاراً ومسلاً وأبا نواس ومن تقليدهم لم يسبقوا إلى هذا الفن البديع ، ولكنه كثر في أشعارهم ، فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم ، ثم أكثر حبيب بن أوس الطائى منه ، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض ، وتلك عقبى الإفراط ! وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع<sup>(٢)</sup> .

وقد كان البديع يسمى «اللطيف» حتى سماه بهذا الاسم مسلم بن الوليد ،

(١) أبو العباس عبدالله بن المعتز بن المقتول من الخلفاء العباسيين تحزب له جماعة من الجنود الأتراء وخليعوا المقعد سنة ٢٩٦ وبایعوا لابن المعتز وسموه المرتضى بالله أقام يوماً وليلة ثم تحزب أبناء العقد وحاربوا أعون ابن المعتز وأنادوا المقعد وقتلوا ابن المعتز سنة ٢٩٦ وكان شاعراً مطبوعاً وهو من الأدباء والعلماء تنقف على المبرد وتعلب وغيرها وله كتاب الأدب مختصر طبقات المشعراء وكتاب البديع .

(٢) البديع ١٥ - ١٦ .

وذكره الماحظ في «البيان والتبيين» بقوله : والراعي كثير البديع في شعره وبشار حسن البديع والعتابي يذهب شعره في البديع ، ومن قوله في ذلك «البديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأرببت على كل لسان» ، على ما نعرف من تعصب الماحظ في كتابته للعرب ولغتهم وأدبهم . وفي موضع آخر من بحثنا هذا سنفصل جهد ابن المعز في التأليف البلاغي .

٥

أما الإفادة من العلم ووسائله في تقدير قيم الشعر فإنها تبدو واضحة في مؤلف من طراز جديد ، وفي كتاب ينهج نهجاً جديداً .

أما المؤلف فهو قدامة بن جعفر البغدادي<sup>(١)</sup> ، ذلك الرجل الذي لم يكن عريياً في أصله ولا عريياً في أسلوب تفكيره ، وأما الكتاب فهو نقد الشعر ، الذي نudge نقطه التحول في الأساليب النقدية ، وتوجيهها توجيهًا جديداً لا عهد للنقد به .

كان النقد كما قدمنا فناً في أكثر مظاهره ، يستلزم الإحساس الفطري البعيد عن أساليب التفكير ، والخلال من الفلسفة والقواعد المنطقية ، بخاء

(١) كان نصراينياً وأسلم على يد المكتفي بالله ، وكان أحد البلقاء الفصحاء وال فلاسفة الفضلاء و ممن يشار إليه في علم النطق ، أدرك زمان ثعلب والمرد وأبي سعيد السكري وابن قتيبة وطبقهم والأدب يومئذ طریٰ فقرأ واجتهد ، وبرع في صناعي البلاغة والحساب وقرأ صدرآ صاحباً من المنطق وهو لأئمٍ على ديباجة تصانيفه ، وانتشر في زمانه بالبلاغة ونقد الشعر ، وصنف في ذلك كتاباً منها كتاب نقد الشعر وقد تعرض ابن بشر الآمدي إلى الرد عليه فيه . . . مات سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة في أيام المطیع ( وبقية أخباره في معجم الأدباء ج ١٧ ص ١٢ ) .

قدامة بفمه علما ، وجعل للفن قواعد يحكم بها عليه بأسلوب جديد هو أسلوب المنطق الذي يشرح علة الاستحسان ، وبين سبب الاستجان ، وكان ذلك صدى لثقافة جديدة طارئة على الثقافة العربية ، تلك هي الثقافة اليونانية ، وفي مقدمتها الأفكار والأراء التي تضمنها كتاب « الخطابة » لأرسطو الذي نقل في هذا القرن إلى اللسان العربي ، وكان جهد قدامة كا ييدو قطبيقاً انظريات هذا الكتاب ، وتحكيمها لقواعد الفلسفة في الحكم على معانى الشعر العربي ، فكان قدامة أول ناقد فتح في نقد الشعر العربي باب النظر والفلسفة ونظم بعض المباحث البلاغية التي جاء العلماء من بعده فأتموا تنظيمها وأكملوها . ولقدامة أثر جديد في علم البديع الذى ابتدعه ابن المعتن فقد أضاف إلى محسنات ابن المعتن كثيراً من المحسنات .

وتحمّلنا الرغبة عن التكرار إلى الاكتفاء بما تقدّم عن قدامة فإن لإفاضة في شرح بلاغته ومنهجه موضع آخر حين نعرض لأثره في أبي هلال وبلاعاته .

## ٦

غير أن هذا المذهب الجديد الذى قام على أساس على محسن وابتدعه قدامة وجد من العلماء من تذكر له ، وحتم ضرورة العودة إلى الأسلوب الأصلي : أسلوب تحكيم الذوق ودراسة الأدب بمراحله في ألفاظه ومعانيه بنظائره في تلك النواحي ، والعودة إلى دراسة الأدب ونقده بيان ما فيه من أوجه الحسن أو القبح ، وإصابة الغرض الذى رمى إليه الأديب ، ونقد أسلوبه ببيان حظه من الجزالة أو السلالة ، والطبع أو التكلف ، وما فيه من فضول الكلام أو الإخلال ، وتباحث في حسن التمام أجزاء الكلام بعضها بعض ، إذ ليس في استطاعة الأساليب العلمية التي تاجأ إلى التعريف والتقطيسيم

والقرين أن تولد القدرة على إدراك الجمال الفني على حقيقته ، وأن تجعل القارئ أو المستمع يحس باللذة الفنية التي حواها الأثر الأدبي وأن تصل إلى منبع الإحساس الداخلي ، والعاطفة الكامنة باحکام عقلية .

ذلك النظر إلى المنهج العلمي في تناول الأدب في دراسته ونقده تسكر له علم من أعلام النقد الأدبي في القرن الرابع هو الآمدي<sup>(١)</sup> مؤلف كتاب «الموازنة بين أبي تمام والبحترى»، وقد رأى في جملة مارأى أن النقد صناعة تحتاج كذا تحتاج صناعة الشعر إلى طبع صاف وقريحة مواتية، ودرية ومران وطول معاناة . وكان جل اعتماده — كلام سئى كتابه — على الموازنة والتذوق ، وبيان أسباب التفوق ، وعلل القعود والانضاع وأرجع هذه الأسباب إلى حكم الذوق السليم مع الابتعاد عن أساليب العلم التي استناداً في نقد الأدب العربي صاحب «نقد الشعر» ، بل لقد تتبعه الآمدي فعدد أخطاءه في النقد في كتاب سهاده «تبين غلط قدامة بن جعفر في نقد الشعر» . وهذا الكتاب لم يقع بين أيدينا ، ولعل فيه خيراً كثيراً ، وقد أشار إلى هذا المؤلف الآمدي نفسه في كتاب الموازنة فقال بعد كلام في المعاشرة . . . [ ذكروا هذه الجمل ثم مثلوا لها أمثلة تزيد ما قاله عمر رضى الله عنه وضوهاً وبياناً إلا أبو الفرج قدامة بن جعفر فإنه ذكر ذلك في كتابه المؤلف في الشعر ، ومثل له أمثلة ]

---

(١) الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي النحوي الساكت أبو القاسم كان حسن الفهم جيد الرواية والدراسة أخذ من الأخفش والزجاج والخامض وابن السراج وابن دريد ونقطويه وغيرهم ، وله شعر حسن ، ومن تصانيفه المختلفة والمختلف في أسماء الشعراء ، فعلت وأفعت ، فرق ما بين الخاص والمشترك من معانى الشعر ، الموازنة بين أبي تمام والبحترى ، تبيان غلط قدامة بن جعفر في نقد الشعر ( وبقية كتبه في بغية الوعاء ص ٢١٨ ) توفي سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة .

فقط في أمثلة المعاشرة غلطًا قبيحًا ، وقد ذكرت ذلك في كتاب بنت فيه جميع ما وقفت عليه من سهوه وغلطه<sup>(١)</sup> .

والآمدي في موازته يفصل أسباب الحكم ثم يحكم ، ويوضح خصائص كل من الشاعرين وفضله على صنوه ، وله ميزة على كل من تقدمه من النقاد أنه لا يرضى التعميم المسرف والأحكام المترجلة ، كأن يقول أحد النقاد : إن فلاناً أشعر العرب بهذا البيت أو بهذه القصيدة ، بل إنه يحكم أحکاماً موضوعية ، ويعطى كل جزء أو قصيدة حظها من الرأي بالاستحسان أو الاستهجان ، ويرفض الحكم العام ، وتلك نعمة جديدة نعمة الإنصاف والتخيير إلى جانب الصدق ، فليس المجيد في موضع مجيداً في غيره ، ولا المقصري في معرض مقصريًّا أبداً فيقول : « وأنا أذكر يا ذن الله الآن في هذا الجزء المعانى التي يتافق فيها الطائيان ، فأوازن بين معنى ومعنى وأقول أيهما أشعر في ذلك المعنى بعينه ، فلا تطلبني أن أتعذر هذا إلى أن أفصح لك بأيهما أشعر عندي على الإطلاق ، فإني غير قادر ذلك ، لأنك إن قلدتني لم تحصل لك الفائدة بالتقليد<sup>(٢)</sup> ! »

ومنهج الآمدي العام في الموازنة التفصيلية بين الشاعرين « توضيح لذاهب الشعر العربي واستنباط لأصالة كل منها في كل معنى عبر عنه ، ثم مقارنة ما قالاه بما قاله غيرهما من الشعراء مع الحكم على تلك الأصالة حكمًا يقوم على الذوق والحقائق الإنسانية العامة وإن لم يخل الأمر من تحكم ، ثم الوقوف في تفسير التفاوت عند النزعة الفنية دون أي محاولة ليرد ذلك إلى الطبيعة النفسية لكل شاعر ، وذلك لفطنة الناقد إلى أنه لا علاقة بين شعر هذين الشاعرين وتجارب حياتهما<sup>(٣)</sup> . »

---

(١) الموازنة ١٢٥ . (٢) الموازنة ١٧٦ . (٣) النقد المنهجي ٢٩٨ .

ومن هذا اللون الذي ينفر من النظر والرجوع إلى أساليب العلم في تذوق الأدب القاضي المجرجاني<sup>(١)</sup> مؤلف كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصوصه»، وهو في كتابه هذا يعرض بعض ما أخذ على المتقدمين من شعراً الجاهلية من الأخطاء ليتتخذ من ذلك مسوغاً لما أخذ اللغويون وال نحويون على أبي الطيب، ويتناول الرمان والمكان ويوضح أثراًهما في التفاوت بين الشعراء، ويتناول البديع وما استحدث من فنونه فيذكر منها الاستعارة والتجنيد والمطابقة والتصحيف التي أضافها المحدثون إلى مقاييس النقد «وكانت العرب إنما تفضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم بالسبق لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سواير أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالت الجنيد والمطابقة ، وتحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القرىض . وقد يقع ذلك في خلال قصائدها ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد ، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا موضع تلك الآيات من الغرابة والحسن وتميزها عن آخرها في الرشاقة واللطاف تكلفوها الاحتداء عليها فسموه البديع ، فمن محسن ومسيء ومحمود ومذموم ومقتصد ومفرط<sup>(٢)</sup> .»

والجرجاني في كتابه رجل أديب اكتملت لديه آلة الأدب فرأى أن « أقل الناس حظاً في هذه الصناعة من اقتصر في اختياره ونفيه ، وفي استجادته

(١) على بن عبد العزيز أبو الحسن قاضي الري في أيام الصاحب بن عياد ، كان أديباً أربياً كاملاً وهو أستاذ إمام البلاغة عبد القادر الجرجاني . طوف في صباح البلاد البلاد واقتبس العلوم والأداب ، وله عدة تصانيف منها : كتاب تفسير القرآن المجيد ، كتاب تهذيب التاريخ ، كتاب الوساطة بين المتنبي وخصوصه . مات بالري سنة اثنين وتسعين وثلاثة

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصوصه ٣٣

واستنساطه على سلامة الوزن وإقامة الإعراب وأداء اللغة ، ثم كان همه وبغيته أن يجد لفظاً مروقاً وكلاماً من وقاً قد حشى تجنيساً وترصيعاً ، وشنح مطابقة وبديعاً ، أو معنى غامضاً قد تعمق فيه مستخرجه وتغلغل إليه مستنبطه ، ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب واضطراب النظم وسوء التأليف وهلة التسخ ، ولا يقابل بين الألفاظ ومعانها ، ولا يسر ما بينهما من نسب ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب ، ولا يرى اللفظ إلا ما أدى المعنى ولا الكلام إلا ما صور له الغرض ولا الحسن إلا ما أفاده البديع ، ولا الرونق إلا ما كساه التصنيع <sup>(١)</sup> .

وفي هذا القول خلاصة رأى القاضي الجرجاني : النفور من مذاهب التصوين واللغويين في النقد ، والتغفير من الصنعة إلا إذا جامت طائفة غير مستكرهه . فهو في هذه الناحية شبيه كل الشبه بصاحب الموازنة بين الطائفتين ، وذوقهما في آرائهما ذوق عربي أصيل . ونقدهما نقد في ذوق . وهو مع ذلك نقد موضوعي فيه النزد اليسير من القواعد غير أن النقد الأدبي لما كان مبنياً على الذوق فلم ينس أصله الفنى .

تلك لمحات سريعة ونظارات خاطفة تقفنا على ما بذل السابقون والمعاصرون لأبي هلال من جهد في النقد الأدبي ، وكان أبو هلال ثمرة كل تلك الجهود .

## ٧

وهذه النقدات المتفرقة كانت نواة علم جديد من علوم العربية أو العلوم اللسانية هو علم البلاغة ، فإن هذه الملاحظات وتلك الآراء قد استحالـت فيما بعد إلى قوانين علمية ترشد الكتاب والشعراء إلى ما يجب اتباعه في التغيير

عن العقل والشعور وهي قوانين البلاغة وأبواب المعانى والبيان  
والبديع .

ولقد عاش النقد والبلاغة مختلطين من أقدم عصورهما .. وليس هذا  
بالأمر الغريب بل هو طبيعى ، إذ كل من النقد والبلاغة يدور حول تحقيق  
الصدق والقوة والجمال في الأداء والتعبير الأدبى ، فالبلاغة تأخذ بيد  
الأديب وتهديه إلى الصواب ، والنقد يقفه على ما أصحاب من حسن وما تورط  
فيه من قبح فيما متهدان موضوعا (١) .

ولقد فرق الأستاذ الشايب بين النقد والبلاغة من وجوه (٢) :

(الأول) أن البلاغة إيجابية سابقة فإنها تضع للأديب القوانين التي  
تساعده على التعبير وتأليف الكلام الواضح الجميل ، ولكن النقد يفرض  
أن الكلام قد تم إنشاؤه ثم يتخذ من قوانينه مقاييس يقدر بها هذا الكلام  
لبيان ما فيه من محاسن أو مساوى ولذلك يأتي متأخر الوظيفة .

(الثانى) أن البلاغة تعنى بالأسلوب أكثر ففترض أن الأدب  
عنه مادة يريد أداماها مهما تكون قيمتها ، ثم ترسم له طرق الأداء شعرأ  
وثراء ، خطابة أو قصرا أو تقريرا أو تمثيلا . أما النقد فيعني بالأسلوب  
والمادة جائعا ، ويتناولها بالتقدير على حد سواء ، وإن كانت مقاييسه  
عامة قليلة .

(الثالث) أن الأصل في البلاغة أنها مرتبطة بالقراء والسامعين ،  
فالبلاغ ملتزم بملحوظة حاجتهم الثقافية ومستواهم في الفهم وما يحيط بهم من  
مؤثرات ، ثم يؤلف كلامه مطابقاً لهذه الأحوال ، والأصل في الأدب

---

(١) أصول النقد الأدبى ٥١ . (٢) المصدر السابق ٥١ - ٥٢

الاتصال بالأديب نفسه وتقرير موهابته وآرائه في صدق ووضوح ، وعلى القراء أن يعدوا أنفسهم لدراسة وفهمه ، على أن النقد والبلاغة كثيراً ما يلتقيان إذا ما تقارب حاجة الكاتب وقراءه ، وكان أدبياً اجتماعياً يحسن الاتصال بعصره ومعاصريه .

ونحن نضيف إلى هذه الوجه وجهاً رابعاً هو اعتماد البلاغة على الأساليب العلمية والتقطيمات العقلية والمنطقية والجدل ، واعتماد النقد أكثر ما يعتمد على الذوق وما يثيره الأثر الأدبي في نفس القارئ أو السامع من أحاسيس وانفعالات .

# منابع بلا افٌـل

١

أبو هلال أحد أولئك الأفذاذ الذين منحوا قدرة بارعة على الاطلاع وصبراً على الدرس والتحصيل ، فقرأ وقرأ كثيراً ، وانتفع بقراءته على نحو لم ينتفع بهنالها كثير غيره ، وظهر مدى هذا الانتفاع واضحًا جلياً فيها خلف من تراث على خالد .

وإذا كان العلم علين : علم رواية وعلم دراية ، فقد أجاد العسكري في التاحيتيين ، وديوان « المعانى » أكبر شاهد على فطرته السليمة وقدرتة على الحفظ والاستيعاب ، وكتاب « الصناعتين » أعظم دليل على الحافظة الوعائية وال بصيرة النفادة .

ونعتقد أنه لو لا شواغل الحياة ولو لا عنتها الذي اضطرب أن يجلس في السوق يبيع ويشتري ليحفظ ما وجهه أن يراق في السؤال ، لانتظرنا منه أكثر مما رأينا ، ولقرأنا له أضعافاً مما كتب وألف ، ول كانت قدرته على التصرف والابتكار أكثر وضوحاً ، ولكان علم الأعلام في العبر والأدب ، فلم يكن ينقصه الصبر على مرارة التحصيل ، والمجد على إدامه الاطلاع ، والمثابرة على الجلوس إلى الأسناندة ، ولا تقصه الفطنة التي ترشحه أن يحل أعظم محل ، وأكرم منزل بين الأدباء والقادة بل بين رجال العقل والفكر ، ولو في تلك الدائرة المحدودة : دائرة الأدب ونقيده في الأقل . أراد العسكري أن يؤلف في الصناعتين : الكتابة والشعر ، ليجعل كتابه

أكثر إحاطة وأعظم نفعاً ، من كتاب قدامة « نقد الشعر » فشمر عن ساعد الجد ، واستعان في تأليفه بجمل ما كتب الكاتبون الذين عالجوا مثل ما عالج أو بعض النواحي التي تتصل بما عالج .

وقد أشرنا في الفصل السابق إلى جهود أولئك السابقين في دراسة الأدب ونقده ، ذكرنا منهم ابن سلام وكتابه « طبقات الشعراء » والمحاخط وكتابه « البيان والتبيين » وابن قتيبة وكتابه « الشعر والشعراء » ، وابن المعز وكتابه « البديع » ، وقدامة بن جعفر وكتابه « نقد الشعر » ، والأمدي وكتابه « الموازنة بين أبي تمام والبحترى » ، والقاضى الجرجانى وكتابه « الوساطة بين المتنبى وخصوصه » . تلك أهم الكتب التي تتصل بفنون الأدب شعره ونثره ، وتحليلها وتقديرها وتضع لها الأصول وتسن لها القواعد .

قرأ أبو هلال جلـ هذه الآثار قراءة فخص وإمعان ، واستطاع بتفاذه بصيرته أن يعي خيراً ما فيها ، وأن ينقد منها ما هو معيب سواء كان عيبه في المنهج الذي سلكه المؤلفون أو في الموضوع الذي عرضوا له .

نعم ! استطاع العسكري أن يمحض هذه الكتب وأن يستخلص زبدتها في كتابه ولا سيما كتاب « الصناعتين » الذي نستطيع أن نعده مجتمع أفكار هؤلاء السابقين مع اختلاف مذاهبهم ، وتبين مذاهبهم في البحث ، وأن يؤلف بين هذا المذهب وذاك ، وأن يوحد تلك المذاهب حتى لقد يكون في استطاعة القارئ أن يجتزء بكتاب « الصناعتين » عن هذه الكتب الكثيرة ، وإنه لو اجد فيه الغنية كل الغنية .

فهذه الكتب التي تعرضت للأدب ونقده ، هي الموارد التي روى منها كتاب الصناعتين أو هي منابع بلاغة أبي هلال .

كان من الطبيعي أن يديم العسكري النظر في كتاب «البيان والتبيين»، الذي ألفه الجاحظ علم أعلام العقل والأدب في العصر العباسي، فقد رأى جهرة الأدباء والكتاب يغافلون في الكتاب وفضل مؤلفه. ذلك لأن الجاحظ أثني على الكتاب ثناء خالداً حين قرر أنه لم يظفر بما أراد من علم الشعر إلا عند الأدباء الكتاب، ففضلهم على أبي عبيدة والأخفش والأصمعي وأخوازيمهم من العلماء المشار إليهم، فكان هذا القول داعية لبعضهم، وسر هياجمهم بشخصه وبكتابه وبما تضمن من آراء جعلوها مورد فضاحتهم ومنبع بلاغتهم، فلا غرو أن يتخدن العسكري إماماً، وأن يشيد بكتابه وما حوى من الخطب والأشعار والأخبار، ولا يجد ما يأخذن عليه إلا أن الإبهان عن حد البلاغة منتشرة في كتابه، مبشرة في تصاعديه. وأن ينظر العسكري إلى اللفظ والمعنى كما نظر الجاحظ، فإذا أخذ عنه رأيه في تفضيل اللفظ وجعله مدار البلاغة، والذهاب إلى أن الناس جميعاً متساوون في الحظ من المعانى، وهذا المبحث من أهم المباحث البلاغية التي عن بها العسكري في كتاب «الصناعتين» وهو كذلك من أهم الأبواب في «البيان والتبيين».

وكذلك الباب الذي عقده العسكري في «القول في تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في حدود البلاغة»، أخذ أكثر هذه الحدود مما أورد الجاحظ في تعريف البلاغة، ثم شرح العسكري هذه الحدود في إسهاب، ومثل لها، وذكر ما قد يكون لديه من مآخذ عليها.

وإذا كان الجاحظ قد استبشع حوشى الألفاظ وغريها، وأبدى عجبه لأن بعض العلماء رواوا الأشعار التي كثُر فيها الحوشى والغريب، فإن العسكري يتابعه في هذا الرأى، بل ينقل عبارة الجاحظ بنصها «رأيهم يديرون في

كتبهم هذا الكلام ، فإن كانوا إنما رواه ودونوه لأنه يدل على فصاحة وبلاعه فقد باعده الله عن صفة الفصاحة والبلاغة ! وإن كانوا قد فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العجاج وشعر الطرماح وأشعار هذيل يأتي لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك ، ولو خاطب أحد الأصمى به مثل هذا الكلام لظننت أنه سيجهل بعضه<sup>(١)</sup> . وعلى هذا فإن الملاحظ ويابه من أول الموارد التي نهل منها العسكري .

### ٣

وقد نفقت في العصر الذي أخرج العسكري تحليه فنون الأدب بصنوف البديع ، تعلق بها الشعراء والكتاب وغالوا بها ، وأصبحت قياسهم في الحكم بالإجادة والإبداع ، وادعى بعضهم فضيلة السبق والابتكار ، فهال هذا الادعاء عبد الله بن المعتز فصنف كتابه « البديع »، ليعلم أن بشاراً ومسلاً وأبا نواس ومن تقليلهم وسلوك سيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولذلك كثروا في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه<sup>(٢)</sup> فكان من الطبيعي أن يغنى أبو هلال وهو مؤلف في الصناعتين — الكتابة والشعر — بالبديع ومحسانه ، وأن يعقد له هذا الباب الطويل الذي يبلغ نصف كتابه ، وأن يكون إمامه فيما كتب ما كتب ابن المعتز ، يأخذ عنه الألقاب ، وما أتى به من الأقسام والحدود بل ينقل عنه أكثر أمثلته ، ويزيد في أمثلته ما استطاع ، وفي أنواعه تلك المحسنات الستة التي سنفصل القول فيها . ويبيق الفضل بعد ذلك للأستاذ الذي راد الطريق وذلل وعره . ويكون ابن المعتز بعد ذلك ينبوعاً من أهم اليابع التي استقي منها العسكري بلاغته .

١٦ (٢) البديع

(١) الصناعتين ٣٢

ثم يدخل على العقلية العربية في هذا الدور عامل جديد ، ذلك هو الفلسفة اليونانية التي نقلت إلى العرب ، ويكون لهذا العامل أثره في نقد الأدب كما كان له أثره في النواحي العلمية والفكرية الأخرى ، فيتجه النقد اتجاهها جديداً ويعمل على وضع قواعد ومقاييس عملية تقوم عليها صناعة النقد الأدبي ، فلقد ترجم إلى اللسان العربي كتاباً بـ « أسطورة الخطابة » و « الشعر » ، وفهمما دراسة جديدة وقواعد لنقد الأدب وتأليفه لاعهد للعرب بها . فخالوا أن يفيدوا من هذا المنهج الجديد وأن يطبقوه على شعرهم وتراثهم ، فتحجروا في ذلك السبيل ما وسعهم التجاج ، ومن الأدب العربي في أيديهم فأخذوا منه هذه المناهج ، واستجواب لهم هذا الأدب فاستخلصوا منه أمثلة لقواعدهم ومقاييسهم ، حتى ليختل إليك أمام هذا التصرف والفهم والتذوق أن هذه المقاييس لم يصنعها إلا العرب ، ولم يقس بها إلا أدبهم .

كان أعظم أولئك الذين وردوا هذا المورد قدامة بن جعفر الذي ألف « نقد الشعر » ، متأثراً فيه إلى حد كبير بآراء المعلم الأول . وعلى الرغم من أن أبو هلال صرح بأنه لن يذهب في الصناعتين مذهب المتكلمين إلا أن نظرة فاحصة في هذا الكتاب وما اشتمل عليه من مقاييس وقواعد بلاغية ستوقفك على أن « نقد الشعر » من أهم مصادر « كتاب الصناعتين » ، بل إننا نرجح أن علة تأليف الصناعتين الكتابة والشعر هو سبق قدامة بالتأليف في إحدى الناحيتين دون الأخرى ، وأبو هلال من أخلص العلماء لمذهب قدامة ، وفضله على هذا المذهب الجديد لا يمحى فهو الذي مكن له بالتقدير والتفسير والاستشهاد وامتثل طريقته ، وكتاب الصناعتين حافل بما أخذ العسكري عن قدامة وفيما يأتي أمثلة لذلك :

فإذا كانت فضائل الناس عند قدامة من حيث إنهم ناس لامن طريق  
ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان . . إنما هي العقل والشجاعة والعدل  
والعفة وكان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبةً والمادح بغيرها  
محظىٌ<sup>(١)</sup> فإن أبو هلال لا يتجاوز هذا الرأي بل يدعيه لنفسه ، ويعد من  
عيوب المديح أن يعدل المادح عن الفضائل التي تختص بالنفس من العقل  
والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحسن  
والبهاء والزينة<sup>(٢)</sup> .

وقدامة يبني على قوله هذا في المديح رأيه في الهجاء ، فإذا كان الهجاء  
ضد المديح فكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهagi له ، ثم تنزل  
الطبقات على مقدار قلة الأهاجي فيها وكثرتها<sup>(٣)</sup> .

ويأخذ العسكري بهذا القول فيقول : والهجاء إذا لم يكن يسلب الصفات  
المستحسنة التي تختص بها النفس ، ويثبت الصفات المستحبطة التي تختصها أيضاً لم  
يكن مختاراً ، وال اختيار أن ينسب المهجو إلى اللؤم والبخل والشره وما أشبه  
ذلك ، وليس بالختار في الهجاء أن ينسبة إلى قبح الوجه وصغر الجسم  
وضئول الجسم<sup>(٤)</sup> .

ويرى أبو هلال أن التشبيه ينبغي أن يكون دالاً على الصبابة وإفراط  
الوجود ، والتهاك في الصبوة ، ويكون برياناً من دلائل الحشونة والجلادة  
وآمارات الإباء والعزة<sup>(٥)</sup> . . ويستجاد التشبيه أيضاً إذا تضمن ذكر  
التشوه والتذكرة لمعاهد الأحبة بهبوب الرياح ولمع البروق ، وما يجرى  
بمراها من ذكر الديار والآثار . . وكذلك ينبغي أن يكون التشبيه دالاً

(١) نقد الشعر ٥٩      (٢) الصناعتين ٩٥      (٣) نقد الشعر ٥

(٤) الصناعتين ١٠١      (٥) الصناعتين ١٢٤

على الحنين والتحسر وشدة الأسف . . . وينبغي أن يظهر الناسب الرغبة في الحب وألا يظهر التبرم<sup>(١)</sup> به ويؤكد هذا المعنى بقوله في سياق آخر إن التجدد من العاشق مذموم<sup>(٢)</sup> .

وهذه المعانى بأسرها هي التي أوردها أستاذها قدامة ، الذى لقنه أسلوب التعليم والتقرير ، وعلمه أن يلزم أهل الفنون قواعد العلوم ، وأن يقول لهم : يجب ، وينبغي ، وبدل أن يتخد من طبيعة الفن أحکاماً ،أخذ من قواعد المنطق والأخلاق دعامة ونظاماً ، من اهتدى بها فهو في نظره المصيب ، ومن حاد عنها بحكم عاطفته وخياله وتجربته فهو المخطيء .

وها هي ذى عبارة قدامة ، أو الأصل الذى أخذ عنه أبو هلال : يجب أن يكون النسب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصباية وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، ربما كان فيه من التصابى والرقى أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة وأن يكون جامع الأمر فيه ماضاد التحفظ والمزينة ووافق الانحلال والرخاوة ، فإذا كان النسب كذلك فهو المصاب به الغرض .

وقد يدخل فى النسب التشوق والتذكرة لمعاهد الأحبة بالرياح الهابطة والبروق اللامعة ، والحائم الهابطة ، والخيالات الطافية ، وأنوار الديار العافية ، وأشخاص الأطلال الدائرة ، وجميع ذلك إذا ذكر احتاج أن تكون فيه أدلة على عظيم الحسرة ومن مضى الأسف والمنازعة . ولست أذكر متى سمعت فى التشوق بأنوار الديار أو حزر ولا أجمع ولا أدل على لاعج الشوق ومكمد الوجد من قول محمد بن عبيد الأزدي :

فلم تدع الأرواح والماء والليل من الدار إلا ما يشوق ويشغف<sup>(٣)</sup>

(١) الصناعتين ١٢٥ (٢) الصناعتين ١١١ (٣) نقد الشعر ١٢٣ - ١٢٤

والعجب العجاب أن أبي هلال لا يستحسن إلا ما استحسن قدامة ، فيشيد بهذا البيت في شيء من الإيجاز فيقول : من أجود ماقيل في الديار قول الأزدي<sup>(١)</sup> : ثم يورد البيت بتامه .

وقد يكون أبو تمام فيما أوصى به البحترى بقوله : «إن أردت النسيب فاجعل اللفظ ريقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصيابة ، وتوجع الكذابة ، وقلق الأسواق ، ولوعدة الفراق » إمام قدامة ثم إمام أبي هلال . ويقول قدامة في نعت الوصف :

لما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعانى كان أحسنهم من أتقى في شعره بأكثر المعانى التي الموصوف مركب منها ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ويمثله للحس بنعنه ، فمن ذلك قول الشماخ يصف أرضًا تسير النباتة فيها :

تقمع في الآباط منها وفاضها خلت غير آثار الأراجيل ترتى<sup>(٢)</sup> فانتظر بعد ذلك إلى قول أبي هلال : ينبغي أن تعرف أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معانى الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصف عينك ، وذلك مثل قول الشماخ في نباتة :

خلت غير آثار الأراجيل ترتى تقمع في الآباط منها وفاضها<sup>(٣)</sup> فكان كل جهده أن يجعل عجز البيت صدرًا وصدره عجزا !

---

(١) الصناعتين ١٢٤

(٢) نقد الشعر (١١٨ - ١١٩) والآباط جمع إبط باطن المنكب والواهض جمع وفضة وهي الجعة من الأدم والأراجيل جمع رجل وهو من لاظهر له يركبه وتقمع إذا مشى فسمع له صوت .

(٣) الصناعتين ١٢٣

ومن منابع بلاغة العسكري أيضاً كتاب (الشعر والشعراء) الذي ألفه ابن قتيبة، ونمايدل على متابعته إيهاؤن ابن قتيبة في باب أقسام الشعر الذي قدم به لكتابه الشعر والشعراء مثل للضرب الذي حسن لفظه وحلاً، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة لمعنى بقول القائل :

وعلق عليها بقوله : وهذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج وطالع  
ومقاطع ، وإن نظرت إلى ماتحتمها من المعنى وجدته : ولما قضينا أيام مني ،  
واستلمنا الأركان ، وعالينا إلينا الأنصاء ، ومضى الناس لا ينتظرون الغادي  
الرائع ابتدأنا في الحديث وسارت المطى في الأباطح ، وهذا الصنف من  
الشعر كثير (١) .

فياخذ أبو هلال الفكرة بعينها والرأى بنفسه ، ويقاد يأخذ الشرح بالفاظه فيقول : إن الكلام إذا كان لفظه حلواً عذباً وسلساً سهلاً ومعناه وسطأ دخل في جملة الجيد وجرى مع الرايع النادر ، سك قوله : ( ولما قضينا . . . الأيات )

وليس تحت هذه الألفاظ كثير معنى وهى رائقة معجبة ، وإنما هي ولما قضينا الحج ، ومسحنا الأركان ، وشدت رحالنا على مهازيل الإبل ولم ينضر بعضنا بعضا جعلنا نتحدث ، وتسير بنا الإبل في بطون الأودية <sup>(٢)</sup> . كما نقل عنه ( ولم يذكره ) رأيه في الأسماء فقد يقدح في المحسن قبح اسمه

كما ينفع القبيح حسن اسمه ويزيد في فضاعة الرجل فضاعة اسمه وترد عدالة  
الرجل بكلينته ولقبه ولذلك قيل اشفعوا بالكنى فإنها شبهة<sup>(١)</sup>.

٦

ومن أساتذة الذين أحبب بهم وأخذ بأقوالهم بل نقل عنهم آراءهم  
الحسن بن بشر الآمدي صاحب الموازنة ، انظر إلى قول العسكري في التنبية  
على خطأ المعانى ، وتدرسه جيدا : ومن الغلط قول أبي تمام :  
رقيق حواسى الحلم لو أن حلمه يكفيك ما ماريتَ في أنه بُرْدُ  
وما وصف أحد من أهل الجاهلية ولا أهل الإسلام الحلم بالرق، وإنما  
يصفونه بالرجحان والزانة ، كما قال النابعة :  
وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً وأفضل مشفوعاً إليه وشافعاً  
وقال الأخطل :

صم عن الجهل عن قيل الخناخر س  
شمس العداوة حتى يستقاد لهم  
وقال أبو ذؤيب :

وصبر على حدث النائبة  
وقال عدى بن الرفاع :

أبت لكم مواطن طيبات  
وقال الفرزدق :

إنا لتوزن بالجبار حلوينا فيزيد جاهلنا على الجبار  
ومثل هذا كثير ، وإذا ذموا الرجل قالوا : خف حلمه وطاش ،  
كما قال عياض بن كثير الضبي :

---

(١) الشعر والشعراء ١٥ والصناعتين ١٤٦

تنابلة سود خفاف حلومهم ذو نيرب في الحى يغدو ويطرق<sup>(١)</sup>  
والذى يسترعى الانتباه ويستوقف النظر أن هذا الكلام من الحكم  
على بيت أبي تمام ومن سرد أبيات الشواهد على خطئه فى معنى البيت مأخذ  
بأنسره مما كتب الآمدى فى كتاب الموازنة مع فرق واحد، وهو أن الآمدى  
كان أميناً فى النقل ونسبة الحكم إلى صاحبه ، وفي أنه وجد الحكم ولم يجد العلة  
الموجبة له فالتمسها بنفسه واهتدى إليها بذوقه وطول مارسته ، وهذه عبارة  
الآمدى لتعلم ما بين الرجلين من حرص على الأمانة العلمية والحكم السديد :

« وأنكر أبو العباس (أحمد بن عبيد الله) قول أبي تمام :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ما مارينت فى أنه برد  
وقال هذا الذى أضحك الناس منى سمعوه إلى هذا الوقت . ولم يزد على هذا  
 شيئاً . والخطأ فى هذا ظاهر لأنى ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية  
والإسلام وصف الحلم بالرقى ، وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والتقليل  
والرزانة ونحو ذلك قول النابغة . . . إلى آخر الأبيات التى مثل لها ،  
أو التى سرقها أبو هلال . إلى أن قال (الآمدى) ومثل هذا كثير فى أشعارهم ،  
ألا ترى أنهم إذا ذموا الحلم كيف يصفونه بالحقيقة ، فيقولون خفيف الحلم ،  
وقد خف حلمه ، وقال عياض بن كثير الصنفى . . . الخ

رأيت إذن أن المسکرى نسب التخطئة لنفسه ، ووصف البيت بأنه  
لم يرد مثله في جاهلية ولا إسلام ، وأن الحلم لا يوصف بالرقى ، وإنما يوصف

(١) الصناعتين ١١٤ - ١١٥ ، والتنابلة واحده تنبأ بذلك الرجل القصير  
كالتبنبل ، والنيرب الشر والقمة ، والبيت في الموازنة :

قبائله سود خفاف حلومهم ذو نيرب في الحى يغدو ويطرق  
الموازنة ٦٣ - ٦٤ .

بكل هذا وكذا ؟ وكل هذا ينسبه لنفسه في جرأة نادرة ، وهو ناقل النقد والتعليق والأمثلة برمتها نقلًا ظاهرًا مكشوфа ، ثم أرأيت إلى أمانة الآمدى وصدقه حين يقرر التخطئة وينسبها لصاحبها (أبي العباس أحمد بن عبيد الله) في صراحة ، ثم ترى الآمدى بذوقه الأدبي يبين نواحي التخطئة وعلتها ويمثل للمعنى الصحيح بما أورد ، وأراح العسكري نفسه وأراح الناس ففسر كل شيء لفظاته وذكائه !

كان يعجبنا لو أن أبي هلال أخذ هذه الآيات فوازن بينها ، وانتقد أبي العباس في نقه أو الآمدى في نقله ، وأضاف إلى الأمثلة ما هو أقرب شبهها ، ثم قدم لنا بحثاً في ضرورة التقليد ، وضرر التجديد في وصف الحلم بالرق ، وكنا نقبل في الأقل أن يورد الحكم منسوباً إلى صاحبه لنعد الرجل في الأمانة الصادقين ، ولسنا نستطيع أن نتصور أن تكون هذه السرقة الواضحة من توارد الخواطر . وقد نفي العسكري عن نفسه بهذا صفة الحذر لأنه لم يخف سرقة وهو القائل : والحادق من يخفي ديبه إلى المعنى .

وقرب من هذا ما أورد أبو هلال في نقد أبي تمام في بيته المشهور :

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت لها وشحاً جالت عليها الخلاخل<sup>(١)</sup>  
فقد نقله وأمثاله من الموازنة<sup>(٢)</sup> .

ومثل هذا مانحطاً فيه العسكري أبي تمام من قوله :

قسم الزمان ربوعها بين الصبا وقبوها ودورها أثلاثا<sup>(٣)</sup>

فقد نقله من الموازنة مع ماتلاه من الآيات<sup>(٤)</sup>

(١) الصناعتين ٦٦-٦٧

(٢) الموازنة ١١٦-١١٧

(٤) الموازنة ٦٩-٧٠

(٣) الصناعتين ١١٧

وهكذا . وهكذا . حتى ليبدو للناظر الحق أن العسكري أخذ الباب  
بتمامه من الموازنة .

وقال أبو هلال في تعریف المطابقة<sup>(١)</sup> : قد أجمع الناس أن المطابقة في  
الكلام هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة  
أو البيت من بيوت القصيدة مثل الجمع بين البياض والسوداد والليل والنهر  
والحر والبرد ، وخالفهم قدامة بن جعفر فقال : المطابقة إيراد لفظتين  
متباhtتين في البناء والصيغة مختلفتين في المعنى . وسمى الجنس الأول التكافؤ ،  
وأهل الصنعة يسمون النوع الذي سماه المطابقة التهطف (قال) وهو أن يذكر  
اللفظ ثم يكرره والمعنى مختلف . وهذا القول في الطلاق ونقد قدامة سبق  
إليه الأمدي فقال<sup>(٢)</sup> . وهذا باب أعنى المطابق لقبه أبو الفرج قدامة بن جعفر  
في كتابه المؤلف في نقد الشعر المتكافي ، وسمى ضرباً من المجانس المطابق ،  
وهو أن تأتي الكلمة مثل الكلمة سواء في تأليفها واشتقاق حروفها ، ويكون  
معناها مخالفاً .. وما علمت أن أحداً فعل هذا غير أبي الفرج ، فإنه وإن كان  
هذا اللقب يصح لموافقته معنى الملقبات ، وكانت الألفاظ غير محظورة ، فإني  
لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه مثل أبي العباس عبدالله بن المعتن وغيره .

وفي الباب الرابع من الصناعتين ، وهو الباب الذي عقده أبو هلال  
لبيان حسن النظم وجودة الرصف والسبك قال : ومن سوء النظم المعاطلة  
وقد مدح عمر بن الخطاب زهيراً لجاذبته ، فقال : كان لا يعاطل بين الكلام  
وأصل هذه الكلمة من قولهم تعاظلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما  
الأخرى ، وعاطل الرجل المرأة إذا ركبها ( ويمثل بذلك بأبيات من  
الشعر وقعت فيها المعاطلة ) ثم ينتقل إلى نقد قدامة في تعریفه المعاطلة فيقول :

• (١) الصناعتين ٢٩٧-٢٩٨ . • (٢) الموازنة ١٢٤ .

وقال قدامة لا أعرف المعاظلة إلا فاحش الاستعارة مثل قول أوس :  
 وذات هدم عارنو اشرها تصمت بالسالم تولبا جذعا  
 فسمى الصبي تولبا ، والتولب ولد الحمار . وقول الآخر :  
 وما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريره بساقي وحافر  
 وهذا غلط من قدامة كبير ، لأن المعاظلة في أصل الكلام إنما هي  
 ركوب الشيء بعضه ببعضنا ، وسي الكلام به إذا لم ينضد نضدا مستويا ،  
 وأركب بعض الفاظه رقاب بعض وتدخلت أجزاءه ، تشبيها بتعاظل  
 الكلاب والجراد على ماذكرناه ، وتسمية القدم بحافر ليست بداخلة كلام  
 في كلام وإنما هو بعد في الاستعارة <sup>(١)</sup> .

والعبارة الأولى « وأصل الكلمة من قوله تعاظلت الجرادتان » ..  
 مأخوذه من قول قدامة نفسه <sup>(٢)</sup> ، وسألت أحمد بن يحيى عن المعاظلة ،  
 فقال : مداخلة الشيء في الشيء ، يقال : تعاظلت الجرادتان ، وعاظل الرجل  
 المرأة إذا ركب أحدهما الآخر »

وأما التخطئة فقد أخذها أبو هلال عن الآمدي من كتاب الموازنة <sup>(٣)</sup>  
 فقد أورد الآمدي عبارة عمر بن الخطاب في مدح زهير ، وفسر المعاظلة  
 كما مر ، وذكر اتفاق العلماء على ذلك إلا أبا الفرج قدامة بن جعفر فإنه ذكر  
 ذلك في كتابه المؤلف في نقد الشعر ومثل له فغلط في أمثلة المعاظلة غلطًا قيحا ..  
 على أن العسكري لم يعتمد إلى تخطئة قدامة — وهو العجب به المتبع  
 لحدوده وتنظيماته البلاغية — إلا بمحاراة للعلماء والقادرين حملوا على  
 مذهب قدامة وألفوا الكتب في نقاده كما أسلفنا .

(١) الصناعتين ١٥٥—١٥٦ (٢) نقد الشعر ١٧٤ (٣) الموازنة

ولم يفت العسكري أن يفيد من صاحب «الوساطة»، كما أفاد من سائر كتب النقد التي اطلع عليها ، فالقاضي الجرجاني نقد في «الوساطة» بيت أبي تمام في وصف الخنزير :

جمية الأوصاف إلا أنهم      قد لقبوها جوهر الأشياء  
بقوله : خبرني هل تعرف شعراً أحوج إلى تفسير بقراط وتأويل  
أرسطو منه (١) .

وقال العسكري : وأما ما يستفهم فلا يعرف معناه إلا بالتوهم مثل قول أبي تمام : جمية الأوصاف ... البيت .

فوجه الاشتراك في هذا أن لهم مذاهب كثيرة وآراء مختلفة متشعبة ،  
لم يدل فحوى كلام أبي تمام على شيء منها يصلح أن يشبه به الخنزير وينسب إليه  
إلا أن يتوهם المتوهّم فيقول إنما أراد كذا وكذا من مذاهب جهم من غير  
أن يدل على الكلام منه على شيء بعينه ولا يعرف معنى قوله قد لقبوها  
جوهر الأشياء إلا بالتوهم أيضاً (٢) ... !

ولا شك أن عبارة المجرجاني على وجازتها تؤدي من المعانى ما تؤدي  
عبارة العسكري على طولها .

وقول العسكري في صفة الألفاظ : لا ينبغي أن يكون لفظك وحشياً  
بدوياً ، وكذلك لا يصلح أن يكون مبتذلاً سوقياً ... والختار من الكلام  
ما كان سهلاً جزلاً ، لا يشوبه شيء من كلام العامة وألفاظ الحشوية ،

(١) الوساطة ١٦ . (٢) الصناعتين ٣٦ ، والجمية من الفرق الإسلامية  
يتقون مع أهل السنة في القول بالقضاء والقدر مع ميل إلى الجبر ، ولذلك يعدّها  
بعضهم من الجبرية ، يقولون بخلق القرآن ، وينقون صفات الباري جل وعلا ،  
كما ينفون رؤيته ...

ولم يخالف فيه وجه الاستعمال ، ألا ترى إلى قول المتنى :  
 أين البطاريق والخلف الذى حلفوا بفرق الملك والرعم الذى زعموا  
 هذا قبيح جداً ، وإنما سمع قول العامة حلف برأسه ، فأراد أن يقول  
 مثله فلم يستوله ، فقال : بفرق الملك ، ولو جاز هذا جاز أن يقول حلف  
 يافوخ أية ، وبقمحدوة<sup>(١)</sup> سيده ، وقبح هذا يدل على أن أمثاله غير جائزة  
 في جمع الموضع ، وهذا النوع في شعر المتنى كبعد الاستعارة في شعر  
 أبي تمام<sup>(٢)</sup> . وهذا القول مأخوذ من قول الجرجانى في الوساطة : ومتى سمعتني  
 أختار للمحدث هذا الاختيار وأبعثه على التطبع وأحسن له التسريب ، فلا لاتظن  
 أننى أريد بالسمح السهل الضعيف الركيك ، ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنث ،  
 بل أريد النط أوسط : ما ارتفع عن الساقط السوقى وانحط عن البدوى  
 الوحشى ، وما جاوز سفسفة نصر ونظرائه ، ولم يبلغ تمجف هميان  
 ابن قحافة وأضرابه<sup>(٣)</sup> .

ومن هذه الأمثلة التي أوردناها يتبين من أى نبع استقى العسكري بلاعنته  
 بل تتضح متابعته لسابقه ومعاصره من النقاد والعلماء واحتداؤه إياهم  
 في أحکامهم ومقاييسهم الأدبية وأخذه عنهم آرائهم واستشهاداتهم .

وليس ما يمنع أن يوافق رأى أخاه ، وأن يتفق حكان ، ولكن الذي  
 نأخذه على العسكري هو ما نأخذه على من يأخذ الرأى فيغفل صاحبه وهو  
 يعرفه ثم ينسبه إلى نفسه !

لقد طوف أبو هلال بهذه الآفاق ونهل من هذه الموارد وغيرها ،  
 فاقتطف من ثمارها ما أحببه ، واتخذ ينابيعها مناهل لبلاغته .

(١) القمحدوة : المنة الناشزة فوق القفا وأعلى القذال خلف الأذنين ومؤخر

القذال .      (٢) الصناعتين ١٤٢ .      (٣) الوساطة ٢٣ .

# مناج أبي هلال

١

نريد أن نبحث في هذا الفصل عن أهداف أبي هلال من تأليفه البلاغي وأن نقف على المنهج الذي رسمه لبلوغ هذه الأهداف إن كان صاحب منهج ، وننظر أكان في سلوكه إيمان ما يحقق الأغراض التي رمى إليها .

ومن أهدافنا في هذا الفصل أيضاً أن نقف على أصالة أبي هلال في تأليفه ، أو متابعته لسابقيه من الذين عالجو الأدب وحللوه ونقدوه ، أو أن نصل إلى حظه من التجديد والابداع ، أو التقليد والاتباع للمناهج المسلوكة في عصره وقبل عصره ، أو بعبارى أخرى نريد أن نعرف ما إذا كان العسكري مدرسة بذاتها لها خصائصها ومعالمها ومقوماتها ، أم كان أحد أشیاع إحداها ، وقد مرّ بنا شيء من ذلك في الفصلين السابقين وأشارنا إلى المناهج المتعددة التي عاصرت العسكري أو سبقته أو « المدارس النقدية » بلغة العصر إلا أننا نريد أن نحصر القول هنا في أبي هلال .

وفي استطاعتنا أن نتبين من الإمامة السريعة التي عرضناها في الفصلين السابقين سمات متعددة لمذاهب مختلفة في النظر إلى الفن الادبي وتقدير قيمته الفنية .

وقد تبين أن أقدم مارأينا من النقد أحكام فردية لا رابط بينها من عرف أو اصطلاح عام عند أهل هذه الصناعة ، ولهذا لا يمكن أن تتحسب في عداد

المدارس التي ترسم لنفسها منهاجاً خاصاً ، أو يسيطر عليها اتجاه خاص يؤثر في أحکامها ، وإنما الذي يحسب في هذه المدارس ما كان له شئ من السعة والشمول ، وكان له مقياس ثابت متداول بين النقاد أيا كان ذلك المقياس . وكان هذا المقياس في نقد الأدب العربي طريقة النحوين والنحاة الذين نشوا في الصدر الأول ، والأولون هم العالمون بلغة العرب ، الباحثون في بنية مفرداتها ووضع الألفاظ مواضعها وصحة التراكيب ، وأعاريض الشعر وقوافيه عند العرب ، وهذه الطبقة من النقاد تعتمد في أحکامها على المقياس على القديم المأثور ، يحكمون على الألفاظ بموافقة العرب في الاستعمال أو مخالفتهم ، وبالجزالة أو بالسلامة ، وبالغرابة أو السهولة وبالصحة أو الخطأ وإصابة الأديب في تقليد السابقين في مطالع القصائد وتعدد الأغراض وغيرها ، أو بعبارة أخرى مطابقة ما عرف عند جماعة منهم ولقبوه « عمود الشعر » ما ينطبق عليه إلى حد ما ما عرف عند الغربيين باسم Classical طائفة النحوين فتباحث في صحة التراكيب ، وعيوب الأعاريض .

وكان هؤلاء وأولئك يتناولون الشعر فيقدونه نقداً موضوعياً Subjective وينظرون إلى الفن الشعري نظرتهم إلى شيء بعيد عن أنفسهم وتأثراً بهم وانفعالاتهم وعن أذواقهم وميولهم الشخصية ، وبذلك يمكنهم فهم والنفوذ إليه وروايته كما هو فيدركون جماله بقوة تميزهم وملحظتهم دون التقيد بذلك الخاصية أو ذوقهم في التفضيل .

على أنه كان بعض هؤلاء عناية بالطريقة التاريخية Historical Method يعرضون للشعر وبيته وصحة نسبته لقائه ، أو كذب تلك النسبة ، وذلك لفروط حرصهم على سلامه هذا التراث الذي ورثوه حرصهم على أصول عقائدهم ، إذ كانوا يدركون تمام الإدراك الصلة الوثيق بين هذا التراث

وبيـن عقائـدهم وقوـيمـيـهم . ثـم نـشـأت مـن هـذـه الطـبـقة طـبـقة أخـرى أخـذـت ما عـنـد هـؤـلـاء وغـيرـهـم ، وـكـانـهـا مـن حـسـهـا المـرـهـف ، وـقـدـرـتـها عـلـى تـذـوقـهـا هـذـا الفـنـ خـيـرـ عـوـنـ عـلـى نـقـدـ الشـعـرـ ، وـالـبـحـثـ عـنـ قـيـمـتـهـ باـعـتـارـهـ فـاـ ، وـعـنـ سـرـ جـالـهـ وـقـوـتهـ ، وـشـرـحـ أـثـرـهـ فـي نـقـوسـهـمـ ، وـلـكـنـ أـكـثـرـ نـقـدـهـمـ كـانـ ذـاتـيـاـ Objective لأنـهـ كـانـ يـقـومـ عـلـى أحـاسـيسـ النـاقـدـ وـأـفـعـالـاتـهـ وـمـيـولـهـ .

وـإـذـ جـدـ عـلـىـ الـبـيـةـ الـعـرـبـيـةـ ثـقـافـاتـ جـدـيـدـةـ اـنـتـقلـتـ إـلـيـهـاـ بـماـ تـرـجـمـ منـ كـتـبـ أـفـتـهـاـ أـمـ عـرـيقـةـ فـيـ الـعـلـمـ وـأـسـالـيـبـ التـفـكـيرـ نـشـأـ مـنـهـجـ جـدـيـدـ فـيـ النـقـدـ الـأـدـبـيـ ذـلـكـ هوـ مـنـهـجـ الـمـتـكـلـمـينـ الـذـيـنـ عـنـواـ بـالـبـحـثـ فـيـ إـعـجازـ الـقـرـآنـ وـفـيـهـ المـقـائـدـ مـنـهـ ، وـهـذـاـ المـنـهـجـ دـيـمـتـازـ بـخـاصـةـ أـهـلـهـ فـيـ الـجـدـلـ وـالـمـنـاقـشـةـ وـالـتـحـدـيدـ الـلـفـظـيـ ، وـالـعـنـايـةـ بـالـتـعـرـيفـ الصـحـيـحـ ، وـالـقـاعـدـةـ الـمـقرـرـةـ وـالـإـقـلـالـ مـنـ الشـوـاهـدـ الـأـدـبـيـ وـعـدـمـ الـعـنـايـةـ بـالـنـاحـيـةـ الـفـنـيـةـ فـيـ خـصـائـصـ الـتـرـاكـيـبـ وـتـقـدـيرـ الـمـعـانـيـ الـأـدـبـيـ ، وـاستـعـالـ الـمـقـايـيسـ الـحـكـمـيـةـ الـفـلـسـفـيـةـ الـمـعـتمـدـةـ عـلـىـ قـوـاعـدـ مـنـطـقـيـةـ أـوـ نـظـريـاتـ خـلـقـيـةـ أـوـ مـقـرـراتـ طـبـيـةـ فـيـ الـحـكـمـ الـأـدـبـيـ ، دـوـنـ نـظـرـ إـلـىـ مـعـانـيـ الـجـمـالـ وـقـضـائـاـ الـدـوـقـ (١)ـ .

## ٢

لـيـسـ معـنـىـ ماـ تـقـدـمـ أـنـ هـنـالـكـ اـنـفـصـالـاـ كـلـيـاـ بـيـنـ هـذـهـ الـمـناـهـجـ ، بـمـعـنـىـ أـنـ هـقـادـأـ مـعـيـنـينـ سـلـكـوـاـ مـنـهـجـاـ مـعـيـنـاـ دـوـنـ غـيرـهـ ، وـآـثـرـ غـيرـهـ مـذـهـبـاـ آـخـرـ لـاـ يـتـعـدوـنـهـ ، فـيـانـ ذـلـكـ مـسـتـحـيلـ فـيـ هـذـاـ الـبـابـ ، وـالـنـاقـدـ مـنـ طـائـفةـ الـلـغـوـيـينـ أـوـ النـحـاـةـ مـثـلاـ كـانـ لـاـ يـسـتـغـنـيـ عـنـ تـحـكـيمـ ذـوقـهـ الـخـاصـ فـيـهـ يـعـرضـ لـهـ مـنـ الـأـوـانـ الـأـدـبـ ، وـالـنـاقـدـ الـمـتـمـكـنـ مـنـ أـسـالـيـبـ الـمـنـطـقـيـنـ وـالـمـتـكـلـمـيـنـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـبـحـثـ ذـوقـهـ أـوـ يـنـسـيـ الإـشـارـاتـ الـلـغـوـيـةـ وـالـنـحـوـيـةـ وـالـتـارـيـخـيـةـ

---

(١) الـبـلـاغـةـ الـعـرـبـيـةـ وـأـثـرـ الـفـلـسـفـةـ فـيـهـاـ : ١٩

وقد تجد سمات هذه المنهج مجتمعة في ناقد واحد مثل ابن قنية فإذك حين تقرأ المقدمات الأولى التي كتبها لكتابه «الشعر والشعراء» ترى هذه الاتجاهات مجتمعة .

ترأه ناقداً نحوياً يعدد أخطاء الشعراء في الإعراب ، واضطرارهم لركوب الخطأ جريحاً وراء القوافي . انظر إليه ينقد الفرزدق في قوله :  
 وغض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجلف<sup>(١)</sup> ويأخذ عليه رفع آخر البيت ضرورة وما كاف أهل العربية من عنت في طلب العلة ، فقالوا وأكثروا ولم يأتوا بشيء يرضي ، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به من العلل احتيال وتمويه . وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه إيه فشتمه وقال : على أن أقول وعليكم أن تتحبوا  
 وقد أنكر عبد الله بن إسحق الحضرمي قوله :

مستقبلين شمال الشام تضرينا على عمائنا تلق وأرحلنا على زواحف تزجي محاسير <sup>(٢)</sup> بالرفع ، فقال : - ألا قلت :	بمحاصب من نديف القطن متشر على زواحف تزجي مخمارير على زواحف تزجيها محاسير
---	--

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا  
 وهذا كثير في شعره على جودته<sup>(٣)</sup> .

وترى إلى هذه النظارات التحوية نظرات أخرى لغوية ، بل إن ابن قنية من يغالون في ضرورة فقه اللغة وحذفها ، لما يجر فقد ذلك من

(١) المسحت : الملالك . المجلف : الذي بقيت منه بقية

(٢) المحاصب : الريح الشديدة تثير الحصباء (الحصى) . الريز والرار : المخ

الرقيق حسر البعير : أعيماً فهو حسير ومحسور (٣) الشعر والشعراء ٣٥-٣٦

خلط في القول وفي الرواية ، وعنه أن كل علم يحتاج إلى السمع وأحوجه إلى ذلك علم الدين ثم الشعر لما فيه من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشي وأسماء الشجر والنبات والماضي والماء ، والعالم لا يستطيع أن يفصل في شعر الهدلتين إذا هو لم يسمعه بين شابة و « ساية » ، وهما موضعان ، ولا يتحقق بمعرفته في حزم نبأ<sup>(١)</sup> ، وعُرْنَان الْكَرَاث ، وَشَسْنَى عَبْرَق ، وَأَسْدَ حَلَيَّة وَأَسْدَ تَرْجَ ، وَدَفَاق ، وَتَضَارَع<sup>(٢)</sup> ، وأشباه هذا لأنه لا يتحقق بالذكاء والفتنة ، كما يتحقق مشتق الغريب ، ويروى أن الأصمعي قرأ عليه يوما في شعر أبي ذؤيب :

بأسفل ذات الدَّيْرِ أَفْرَدْ جِحْشَهَا

فقال أعرابي حضر المجلس : ضُلَّ ضَلَالُكَ أَهَا القاري ! إنما هي ذات الدَّبَرْ وهي ثانية عندنا ، فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد .  
ومن ذا من الناس يأخذ من دفتر شعر المعتزل بن عبد الله في وصف الفرس :

من السُّحْ جَوَّا لا كأن غلامه يصرّف سِبْدا في العنان عمر دا<sup>(٣)</sup>  
إلا فرأه سيدا ؟ يذهب إلى الذنب ، والشعراء قد تشبيه الفرس بالذنب .  
وليسرت الرواية المسموعة عنهم إلا ( سِبْدا ) قال أبو عبيدة : المصحفون لهذا  
الحرف كثيرون ، يروونه ( سيدا ) أي ذئبا ، وإنما هي ( سيد ) بالباء معجمة

(١) حزم نبأ<sup>(١)</sup> : جبل أو واد في ديار هذيل . عروان من أمنع جبال الحجاز والكراث بنت . الشس : الغليظ من كل شيء . وعبرق : يزعمون أنها أرض كان يسكنها الجن . حلية : مأسدة بالمين . ترج : جبل بالحجاز كثير الأسد . دفاق : وضع قرب مكة . تضارع : جبل بهامة لبني كنانة .

(٢) من السح : يزيد من الحيل التي تسخن الجرى أي تصب والمرد الطويل .

بواحدة ، يقال فلان سيد أسياد أى داهية دواه ، وكذلك قول الآخر :  
زوجك يا ذات الثنایا الغر      الرتلات والجبن المحر

يرويه المصحفون والآخذون عن الدفاتر (الربلات) وما الربلات من الثنایا  
والجبن وهى أصول الفخذين ، يقال رجل أربيل إذا كان عظيم الربلتين أى  
عظيم الفخذين ، وإنما هى الرتلات بال تمام ، يقال ثغر رتل إذا كان مفلجا<sup>(١)</sup>  
وهو إلى جانب هاتين الناحيتين : ناحية الإعراب وناحية اللغة ينبع منها  
العلماء في التنظيم العلمي والولوع بالأقسام<sup>(٢)</sup> ويصالح نواحي أخرى علاجا  
فيما يشهد له بسلامة الذوق . من ذلك تكلمه في الطبع والصنعة<sup>(٣)</sup> وأشعار  
العلماء<sup>(٤)</sup> والللغظ والمعنى<sup>(٥)</sup> ومحاولة التجديد<sup>(٦)</sup> ودعوى الشعر<sup>(٧)</sup> إلى غير  
هذه المباحث المختلفة في مناهجها .

إذن فقد سلك ابن قتيبة مناهج متعددة في دراسة الشعر والشعراء ،  
وهو مثل للتمكن من ثقافات عصره وتمثيلها بيدو ذلك كله في مقدمته واصفا  
وإن كان يضعف في ثنايا دراسته للشعراء ، أو بعبارة أخرى يضعف في  
ناحية التطبيقية .

رأينا فيما تقدم منهجا في نقد الأدب يستند إلى الموضوعية في أكثر  
نواحيه ويعتمد على الذاتية في قليل منها مع طريقة جديدة هي التي تسمى  
الآن النقد التوضيحي Explanatory Criticism وهو الذي يراد به  
عرض نتاج أدبيين وشرح هذا العرض في جملته ثم أخذنه في بعض جزئياته  
لمواجهة بعضها البعض ، غير أن هذا الذي رأيناها نقد صرف لم يتعرض للبلاغة  
إلا تعرضا ضئيلا . ولقد كان الآمدى في موازنته أقل في هذه الناحية من

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨—٢٩—٣٠ (٢) انظر أقسام الشعر ص ٩ وما بعدها  
(٣) ص ٢٣ (٤) ص ١٥ (٥) ص ٩ (٦) ص ٢٢ (٧) ص ٢٤

التاضايى الجرجانى . أما أبو هلال الصلكى فقد كان هدفه أن يوضح معالم بلاغية يعرفها الأدباء والنقاد ل تكون مقاييس يعتمد عليها فى نقد الأدب .

٣

### الأهداف التي رمى إليها أبو هلال :

نأسأل بعد ذلك عن منهج أبي هلال ، ونسأل قبله عن هدفه الذى رمى إليه من تأليف « الصناعتين » ، وأن يطول بنا السؤال ، ولن تستعصى علينا الإجابة ، وذلك أن أبا هلال نفسه قد أوضح لنا الطريق ، وأفصح عن هدفه كل الإفصاح في كتاب « الصناعتين » .

### إعجاز القرآن :

إن الغاية التي كان يرمى إليها أبو هلال من تأليف الصناعتين غاية دينية أولاً وأدبية ثانياً ، أما أولى الغايتين فإن إثبات إعجاز القرآن وفهم أسرار الجمال ونواحي التفوق التي تفرد بها كتاب الله تعالى ، وهى كما ترى غاية دينية دفعت إليها العقيدة الدينية التي وجدت من ينماضها بالتشكيك في أن حجة النبي صلى الله عليه وسلم وهي الكتاب الكريم مثل أعلى في الفصاحة والبلاغة وادعاء أن العرب كان في مقدورهم أن يأتوا بمثله لو لا أنهم صرروا عن ذلك ، ونشأ عن ذلك مذهب الصرفة الذي قال به إسحق بن ابراهيم النظام ، وقد سرى هذا القول بين الناس في العصر العباسي ، وابنرى للرد على هؤلاء المشككين جماعة من العلماء الذين أخلصوا لدينهم وعقيدتهم ، فأخذوا يدفعون عن كتاب الله هذه الفريدة بتجليه وجوه الإعجاز فيه ، وبيان أن العرب لو استطاعوا لما نكصوا وهم المتحدون ، وكان يسعهم إن استطاعوا أن يعارضوه ليوت الدين الجديد في مده ، ولتبقى لهم زعامتهم وقداسته عقائدتهم ومعبوداتهم .

وكان أبو هلال أحد هؤلاء المدافعين عن دينهم ، المناهضين لأوثنك  
المعتريضين ، استمع إلى قوله في أول كتاب الصناعتين :

« أعلم : علمك الله الخير ودلك عليه ، وقيضه لك وجعلك من أهله ،  
أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله - جل ثناؤه - علم  
البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق  
الهادى إلى سبيل الرشد ، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي  
رفعت أعلام الحق ، وأقامت منار الدين ، وأزالت شبه الكفر بيراهينها ،  
وهنكت حجب الشك بيقينها . »

ثم يوضح أبو هلال عن المدى الذي يستطيع علم البلاغة أن يبلغه في  
إثبات هذا الإعجاز ، فعنده ألا سبيل إلى إدراكه والاطمئنان إليه  
إلا بمعرفة الفصاحة والبلاغة . فإن الإنسان إذا أغلق علم البلاغة وأخل  
بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن .. وقبح لعمري بالفقير المؤتم بـ  
والقاريء المهتدى بهديه ، والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته و تمام آلمه  
في مجادلته وشدة شكيته في حاججه وبالعربي الصائب والقرشى الصریح  
ألا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلا من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي  
وأن يستدل عليه بما استدل به الملاحد الغبي (١) .

هذه هي الغاية التي نصب أبو هلال نفسه لها ، وإن كان لا يقتصر البلاغة  
على تحقيقها يل يرى مع هذه الغاية غاية أخرى ، وهي أنه بالبلاغة يستطيع  
الأديب الناقد أن يفرق بين الجيد والرديء والنادر والبارد من القول ،  
وبها يستطيع الأديب المنشيء على صنع القصيدة وإنشاء الرسالة .  
فعلم البلاغة عنده يتحقق غير ما تقدم فائدتين أولاهما « أن صاحب

---

(١) الصناعتين ٢ .

العربية إذا أخل بطلبه وفرط في المماشه ففاته فضيلته ، وعلقت به رذيلة  
فوته عقى على جميع محسنه وعمى سائز فضائله ، لأنه لم يفرق بين كلام  
جيد وآخر ردئ ولفظ حسن وآخر قبيح وشعر نادر وآخر بارد بان  
جهله وظهر نقصه ، وواضح من ذلك أن أبي هلال يرى أن عالم اللغة  
لا يسعه بحال الاستغناء عن علم البلاغة الذي يستطيع به وزن الكلام وتقدير  
قيمة الفنية ، ومن غيره لا يستطيع أن يكون عالماً أدبياً أو ناقداً أريياً .

والثانية هي أن الأديب إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشئ رسالة —  
وقد فاته هذا العلم — منز الصفو بالكدر ، وخلط الغرر بالعرر ،  
 واستعمل الوحشى العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل (١) .

وعلى هذا فإن العسكري يرى أن البلاغة تتحقق للعالم بها فوائد ثلاثة :

١ — إدراك إعجاز القرآن إدراكاً مبنياً على النظر والفقه والتدوّق ،  
 لا إدراكاً قائماً على الإيمان المجرد والتسلّم من غير نظر كإيمان العوام  
 من الزنوج والأنبياط .

٢ — فائدة نقدية : إعانة العالم على النقد والمقاطعة والقدرة على تمييز  
 الجيد من الرديء والغث ، من السمين .

٣ — فائدة إنسانية : يفيد منها الأديب بدراسة البلاغة إرهاب حسه ،  
 ويستطيع بها أن يميز جيد الألفاظ من ردئها ، وأن يختار لشعره ما يروق  
 ويشوق ، وأن يتتجنب حوشى الألفاظ وكدرها الذي يعرضه استعمالها  
 لاستهزاء الجللاء واعتبار العقلاء .

هذه الغايات الثلاث هي أهداف البلاغة في نظر أبي هلال . ونلاحظ

---

(١) الصناعتين ٣

هنا أنه قد خلط البلاغة بالنقد ، فالبلاغة لإثبات الإعجاز والنقد للتمييز بين الأدب الجيد والأدب الرديء ؛ أما هدفه في كتاب الصناعتين فهو كذلك واضح ظاهر لا لبس فيه ولا غموض .

### رأيه في أحكام السابقين :

وقد قدم لهذا المهدف بعرض بعض آراء سابقيه من العلماء ونقدة الأدب ، ومناقشة هذه الآراء ، وتفنيد الأحكام التي اهتدوا إليها ، ومن ذلك أنه ينقد علماء العربية في استحسانهم بيته ذى الرمة :

رمتني ميّ بالهوى رميّ بمضّعٍ من الوحش لون طِ لم تعقه الأوالس  
بعينين نجلاً وين لم يجر فيها ضمان وجيد حل الدرشامس<sup>(١)</sup>  
وقولهم فيما : إنهم ما سمعوا بأحسن ولا أفسح منها ، ولا يعجب  
أبا هلال هذا الحكم بل يصدر حكمًا أدبياً صحيحًا يعتمد فيه على ذوقه الخاص  
ويصف البيتين بأنهما من الكلام الفج الغليظ والوحش الثقيل الذي لا حظ  
له من الاختيار !

ويعرض استجاده العتي قوله الشاعر :

ولو أرسلت من جبٍ لك مهوتا من الصين  
لوافيتك قبل الصبح أو حين تصلين<sup>(٢)</sup>

(١) أمضع اللحم استطيب وأكل ، ومن معانى الوحش الجوع<sup>١</sup> ، ولاط فلانا  
رماء عين أو بسم أصابه ، والولوس الناقة السريعة ، والضمآن المرض والشمس ومعلاق  
تقلادة في العنق والجمع شموس ، وجيد شامس ذو شموس على النسب .  
والمعنى: أصابته ميّ بالهوى فكان له وقع الطعام العذب المستطاب في نفس الجائع ،  
وكانت عدتها عينين واستعين لم تعرف المرض وجيداً حل الدر ذا شموس .

(٢) المهوت : السائر على غير هداية .

ويرى أبو هلال أنهم إن جاز أن يوصى فلا يجوز وصفهما إلا بـ «دليلاً»  
اللقط وخصاسته، وخلوقة المعرض وقباته!

ويذكر أيضاً نقد العتى لقول جرير :

وقوله :

إن الذين غدوا بلبك غادروا  
وشاًلا بعينك لا يزال معينا  
غَيْضُنَ من عِبراتِهن وقلن لى  
ما زالت لقيت من الْهُوَى ولقينا  
وَحْكَمَ العَقْبَى عَلَى هَذِهِ الْأَيَّاتْ بِأَنَّهَا مِنَ الشِّعْرِ الَّذِى يَسْتَحْسِنُ لَجُودَة  
لَفْظَهُ وَلَيْسَ لَهُ كَبِيرٌ مَعْنَى . . . أَمَّا أَبُو هَلَالٍ فَلَا يَعْلَمُ مَعْنَى أَجْوَدٍ وَلَا أَحْسَنٍ  
مِنْ مَعْنَى هَذَا الشِّعْرَ !

ويذهب العسكري من هذه الأحكام التي ينفذها بالأحكام التي يرتبها إلى أن هؤلاء الأعلام قد خلطوا في آرائهم وحكموا أحكاماً لا تستند على أساس صحيحه ولا ذوق سليم ، وأنه رأى أن يؤلف كتابه لتصحيح هذه الأحكام التي يغلب عليها أثر الارتجال ، ووضع أساس ثابتة تصدر عنها أحكام أكثر دقة وأقرب منها إلى الصواب ، ويقول في ذلك : فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيها راموه من اختيار الكلام ، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ومكانة من الشرف والتبلي ووجدت إليه الحاجة ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب «البيان والتبيين» ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وهو لعمري كثير الفوائد جم المنافع ، لما أشتغل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة والخطب الرائعة والأخبار البارعة وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نسبه عليه من مقاديرهم في البلاغة

والخطابة وغير ذلك ، من فنونه المختارة ونوعه المستحسن « إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبشرة في تصاعيفه ، ومنتشرة في أثناءها فهي صالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير »، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه ، ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تقصير وإخلال ، وإيهاب وإهزار <sup>(١)</sup> .

ونستطيع أن نستخلص من هذا الكلام ما يأتي :

- ١ — أن أبا هلال رأى للأقدمين آراء قاصرة ، وأحكاماً مبتورة لا يقرهم عليها .
- ٢ — أنه عرف فضل هذا العلم - علم البلاغة - وقد ضرورته للهالم والمتعلم والأديب والمتأند ، وأنه أحق العلوم بالدراسة والتأليف .
- ٣ — أنه رأى الكتب التي تعرضت لمباحثه قليلة لا تتفق هي ومنزلة هذا العلم ووجوب الاهتمام به .
- ٤ — أنه يعترف بأن خير الكتب التي تعرضت لبحث البلاغة كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، ولكنه ينقضه التنظيم العلمي الذي يجعل الارتفاع به في هذا الباب ميسوراً .
- ٥ — أن العسكري رأى أن يكمل هذا النقص فيؤلف تأليفاً علمياً منظماً يلامس شرف هذا العلم ، ويحوى ما يحتاج إليه صناع الكلام ونقداته مع تجنب الاختصار المخل ، والتطويل الممل .  
هذه هي الدوافع والأغراض التي حفزت الرجل على تأليف الصناعتين *بيانها فأحسن البيان* .

---

(١) الصناعين ٧ .

منهج أبي هلال :

وإذا كان الدافع يتناً ، والغرض واضحًا ، فإن المنهج الذي رسّمه لنفسه واضح أيضًا في نهاية الفصل الأول من الباب الأول الذي عقده ، في الإبانة عن موضوع البلاغة في اللغة وما يحرى معه من تصرّف في لفظها والقول في الفصاحة وما يتشعب منه ، إذ يختتم هذا الفصل بقوله : وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب فلهذا لم أطل الكلام في هذا الفصل <sup>(١)</sup> .

ويقول في كيفية نظم الكلام وفضيلة الشعر وما ينبغي لتأليفه :

.... فإن كنت متكلماً أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيدة ... فتحظ ألفاظ المتكلمين مثل الجسم والعرض والكون والتأليف والجوهر فإن ذلك مجنة . وخطب بعضهم فقال : إن الله أنشأ الخلق وسواهم ، ومكثهم ثم لا شاهم ، فضحكوا منه . وقال بعض المتأخرین :

نور تبين فيه لاهوتية فيقاد يعلم علم ما لن يعلما  
فأني من المجنة بما لا كفاء له <sup>(٢)</sup> .

والذى ييدو من هذين القولين أن أبو هلال يصرح بنفوره من مذهب الكلامين في بحث البلاغة ، ويفضل عليه مذهب الأدباء من الشعراء والكتاب ، وهذا التصريح هو ما نريد أن نتحققه في هذا البحث ، لترى ما إذا كان المسكرى قد وفي لهذا المنهج الذى صرّح به فتحاشى مذهب الفلسفه والمناطقة ، وجئن إلى أسلوب الأدباء صناع الكلام أو الأسلوب

(١) الصناعتين ١١ (٢) الصناعتين ١٢٩ - ١٣٠

الفنى في نقد أعظم ألوان الفنون الشعر والثر .

أما أسلوب المتكلمين الذى صرخ أبو هلال بأنه سيعرض عنه فهو أسلوب يصدر عن منطق شكلى ، ويعنى بالتقسيم المقلية ، والنظارات الفلسفية على غرار ما صنع علماء الكلام في هذا العصر الذين حاولوا أن يؤيدوا القضايا الدينية بالأدلة العقلية الفلسفية وكأنهم لم يقنعوا بآياتان مجرد فالقصوا تأييده بالأدلة والبراهين .

ومثل ذلك حاول جماعة من تعرضوا للأدب أن ينقدوه نقداً منطقياً فلسفياً يقولون للأديب : عليك أن تقول كذا لأن العقل يوجهه ، وأن تتجنب كذا لأن النظر يردهه ويرفضه ١

ولعلنا لا نعدو الواقع إذا قررنا أن أبو هلال كان يعني بقوله هذا أنه لن يسير في الطريق التي سلكها أبو الفرج قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر الذي تأثر فيه بمذهب أرسطو تأثراً ظاهراً واعتمد على كتابه في الشعر واقتني أثره في نقد الشعر العربي .

هذا الكتاب « نقد الشعر » تذكر له بعض علماء العربية ، وألفوا كتاباً في نقاده ، ومن الكتب التي ألفت في ذلك كتاب « تبيين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر » الذي ألفه العالم الأديب أبو القاسم الحسن ابن بشر الآمدي مؤلف كتاب الموازنة كأ أسلافنا .

فهل كان أبو هلال حقاً من الراغبين عن مذهب المتكلمين في نقد الأدب وعلى رأسهم قدامة ؟

يرى الأستاذ أمين الحولي أن ذلك صحيح وأن أبو هلال يمثل طريقة الأدباء خير تمثيل ، ويقول في ذلك : وأما الطريقة الثانية وهي طريقة الأدباء في درس البلاغة فتمتاز بالإكثار المسرف من الشواهد الأدبية ثرها

وشعرها والإقلال من البحث في التعاريف والقواعد والأقسام ، وتعتمد في النقد الأدبي على الذوق الفني ، وحاسة الجمال أكثر من اعتمادها على تصحيح الأقسام وسلامة النظر المنطق ولا ترجع في ذلك إلى أصول الفلسفة من خلقيات أو غيرها . ونرى هذا في مثل كتابة أبي هلال العسكري في الصناعتين يسوق في المقام الواحد عشرات الأمثلة والشواهد من القرآن والحديث وكلام العرب شرعاً وثرياً ويعتمد في النقد الأدبي على الذوق غير مكتف بالصحة العقلية والسلامة النظرية كما في مثل قوله عن حسن التأليف <sup>(١)</sup> .

أما أن كتاب الصناعتين يتميز بالإكثار المسرف من الشواهد الأدبية شعرها ونشرها فذلك حق واضح ، ولكن القول بأن هذا السبب وحده يجعل أبوهلال رأساً لمدرسة الأدباء في نقد الشعر فذلك ما هو جدير بالنظر والتثبت وبخاصة إذا قرأنا قول الأستاذ الخولي بعد ذلك في صراحة « لعل المدرسة الأدبية لم تك得 تظفر بالكثيرين من أمثال أبي هلال العسكري <sup>(٢)</sup> ».

والواقع أن أبوهلال لم يكن ناقداً أدبياً فحسب ، بل كان خيراً بمذهب الفلسفه عارفاً بآراء قدامة ، ولكن خبرته الشاملة ، واطلاعه الواسع على نصوص الأدب العربي وكثرة استشهاده بالقرآن والحديث والشعر والنشر قد غشى على الروح الأصلية روح البحث العلمي والمنطق المجرد عنده ، واستطاع بدرايته بالأدب العربي وتمكنه منه والقدرة على التمثيل به أن يخفى هذه الروح العلمية وأن يكسوها ثوباً أدبياً ، وكانت النتيجة أنه بهذا الاستشهاد الكبير والإيراد الكبير استطاع أن يثبت مذهب قدامة وأن يؤكد صلته بالأدب العربي ، بعد أن نفر منه النقاد الأدباء بحق من أمثال الأدمى وعبد العزيز الجرجاني .

---

(١) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ٢٠ . (٢) المصدر نفسه .

لقد استطاع أبو هلال أن يوهم الناس أنه قد ظل نافذاً أديباً ، وأنه قد سار على منهج أولئك الأدباء الكبار . . . ولكن هذا ليس لسوء الحظ صحبياً ، وإذا كان العسكري قد رفض أن يأخذ بعض تعاريف قدامة فإنه قد أخذ عنه كل ما عدا ذلك ، حتى ليغتزل إلينا أنه لم يرفض ما رفض إلا حاكاة للسابقين الذين أجمعوا على خطأ صاحب نقد الشعر في تحديد المعاملة والطريق وما شاكل ذلك<sup>(١)</sup> .

والأستاذ أمين الخلوي نفسه يعود بعد ما أسلف من القول إلى تقرير أن أبو هلال جرى في مضمار المتكلمين وخدم أغراضهم بل تبع طرفهم في الدرس وقلدها ، وأما جريه في مضمارهم وخدمة أغراضهم فذلك حين نسمعه يقول إن البلاغة تدرس للاستدلال على إعجاز القرآن وجعل ذلك الإعجاز أمراً برهانياً لا تقليدياً . . . وأما تأثيره بطريقة المتكلمين في الدراسة ومنهجهم فذلك ما نجده في أكثر من موضع من كتابه الصناعتين فهو مثلاً يجاري قدامة في جعل الفضائل الأربع أصول المدح ومعياره ، بل يكاد ينقل عباراته بنصها ، كما يتكلم في خطأ المعانى وصوابها على نحو كلام قدامة بطريقته ، فلم تخالص الطريقة الأدبية في أبي هلال أو لم يخلص أبو هلال بالمطريقة الأدبية ولم ينج من تأثير المتكلمين<sup>(٢)</sup> .

وهذا القول الأخير هو الصواب ، ذلك أن أبو هلال رجل قد اجتمعت فيه ثقافة عصره كاملة سواء كانت ثقافة عربية أصلية أم تأثرت بالعامل الجديد الذي طرأ عليها ، وهذا العامل هو الثقافة اليونانية التي غزت الفكر العربي في مختلف نواحيه ، فنشأت الفلسفة الإسلامية متاثرة إلى حد كبير بالفلسفة

(١) النقد المنهجي ٢٧٣ — (٢) البلاغة العربية ٢٢ — ٢٣

اليونانية حتى الدين أصابه كثیر من ذلك ، فعم الجدل وكثرت الفرق ومكن  
لذهب الاعتزال الذى كان نتيجة للثورة الفكرية التي نشأت بعد ظهور هذا  
العامل الجديد ، وليس تعدد المذاهب والتحل إلا صدى لتوغل الفلسفة  
اليونانية في التفكير العربي .

ومن الناحية الأدبية التي تتصل ببحثنا أن كتاب الخطابة Retorikae  
الذى ألفه أرسطو قد ترجم إلى اللغة العربية ، وقيل أن إسحق بن حنين  
نقله إلى العربي ، ونقله إبراهيم بن عبد الله ، وفسره الفارابي أبو نصر كما  
يقول ابن النديم <sup>(١)</sup> .

لقد اتفق النقاد بهذا الكتاب كما اتفقا بالكتاب الثان لأرسطو وهو  
كتاب الشعر Poitikae الذي نقله أبو بشر متى بن يونس من السريانى  
إلى العربي <sup>(٢)</sup> .

والواقع أن أحداً من نقاد الأدب العربي لم ينفع بهذين الكتباين  
كما اتفق قدامة في كتابه « نقد الشعر » وقد عقد بعض العلماء بحوثاً لدراسة  
أثر كتاب الخطابة لأرسطو في البلاغة العربية ، وبالرجوع إلى ما يحفظ  
الصورة الأصلية لخطابة أرسطو نجد أنه قد تصدى لأبحاث بلاغية كثيرة  
تکاد تكون جهرة ما بأيدينا من أبحاث بلاغتنا أو هي على الأقل أنواع  
كثيرة من فنونها الثلاثة <sup>(٣)</sup> .

وأبو هلال الذي ألم بكل ثقافة من ثفافات عصره ألم بهذا الكتاب  
« نقد الشعر » في جملة ما ألم به ، وظهر هذا الإسلام واضحياً جلياً في كتاب

(١) الفهرست ٣٤٩ . (٢) الفهرست ٣٤٩ .

(٣) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ١٢ وبعد هذه الكلمة إيراد لموضوعات  
بلاغية مشتركة بين اليونان والعرب ، وانظر بلاغة أرسطو بين العرب واليونان .

الصناعتين إذا وزن بكتاب « نقد الشعر » ، أى أن أبا هلال من مدرسة الكلاميين وإن صرخ بأنه لم ينجز نزهتهم ، ولم يذهب مذهبهم ، فليس ذلك إلا ليتحقق هذه الحقيقة حين رأى هذه الحالات القوية على مذهبهم في نقد الأدب نقداً يعتمد على معرفة الحدود وجودة التقسيم وأسلوب المناقشة والجدل ، وحين رأى جماعة الأدباء ينكرون لمذهب قدامة ، ويؤلفون التأليف في نقاده ، ورأى ما كتب ابن قتيبة في معرض السخرية اللاذعة من هذا المذهب الفلسفى الذى يراه « ترجمة تروق بلا معنى واسم يهول بلا جسم ». فإذا سمع الغمر والحدث الغر قوله : الكون والفساد وسمع الكيان والآسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة راعاه ما سمع ، وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فإذا طالعها لم يحل منها بحائل ، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تقسم ، والكلام أربعة أمر وخبر واستخار ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهى الأمر والاستخار والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ، والآن حد الزمانين ، مع هذين كثير ، والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا مائة من الوجوه ، فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه في كلامه كانت وبالاً على لفظه ، وقيداً للسانه ، وعيّناً في المحافل ، وغفلة عند المتناظرين <sup>(١)</sup> .

هذه الأسباب هي التي حملت أبا هلال على أن ينكر فيها يزعم لمذهب الكلاميين وأن يتبرأ من مذهبهم في النقد وهو منهم في الصميم .

أمثلة لأسلوبه الكلامي :

تدبر معنى هذه العبارات التي اقتطفناها من الصناعتين ، وهى شيء قليل

(١) أدب السكاكين ٣ . (٢) الصناعتين ٨ .

إذا قيس إلى أمثاله من المنشور في ثنايا الكتاب ، واحكم بعد ذلك على مبلغ صدق الرجل في دعوه البراءة من مذهب المتكلمين .

(١) سميت البلاغة بلاغة لأنها تهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه (الكلام في العلة والمعلول) .

(٢) تأييده رأيه يقول محمد بن الحنفية : البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه .

(٣) كل صامت ناطق من جهة الدلالة وذلك أن دلائل الصنعة في جمع الأشياء واضحة .

(٤) في صفات الخطيب « .. ونظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والبالغة فيها .

(٥) المعانى بعد ذلك على وجوه : منها ما هو مستقيم حسن نحو قوله رأيت زيداً ، ومنها ما هو مستقيم قبيح نحو قوله قد زيداً رأيت ، وإنما قبح لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير ، ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب مثل قوله حملت الجبل وشربت ماء البحر ، ومنها ما هو محال كقولك آتيك أمس ، وأنتاك غداً !

وكل محال فاسد ، وليس كل فاسد محالا ، ألا ترى أن قوله قام زيد فاسد وليس بمحال ، والحال ما لا يجوز كونه البتة ، كقولك : الدنيا في بيضة . وأما قوله : حملت الجبل وأشباهه فكذب وليس بمحال إن جاز أن يزيد الله في قدرتك فتحمله .

ويجوز أن يكون الكلام الواحد كذبا محالا وهو قوله : رأيت فائما قاعدا ومررت بيقطان نائم ففصل كذبا بمحال ، فصار الذي هو الكذب هو المحال بالجمع بينهما ، وإن كان لكل واحد منها معنى على حاله ، وذلك

لما عقد بعضها بعض حتى صارا كلاما واحدا .  
ومنها الغلط وهو أن تقول : ضربني زيد ، وأنت تريد ضربت زيداً .  
فهلاط ، فإن تعمدت ذلك كان كذلك (١) .

(٦) التقييم الصحيح أن يقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع  
أنواعه ولا يخرج منها جنس من أجناسه .

ولعلك موافق بعد هذا الأسلوب على أن أبا هلال كان متأثراً بأسلوب  
المتكلمين ، وأنه نهج نهج قدامة ، بل هو الذي أحيا مذهب الكلام في النقد  
واستطاع أن يجعل موقفه من قدامة موقف الشارح للنص ، فيوضخ  
ويفصل وينبع نهجاً تقريرياً تعليمياً ، واستطاع أن يخدع عن هذه الحقيقة  
من أمره بهذا الإكثار المسرف من شواهد القرآن والحديث والشعر والتراث  
بما له من دراية بها وسعة اطلاع عليها ، وربما كانت هذه الدرائية ، وربما  
كانت تلك الإحاطة الشاملة تقصص قدامة المستعرب ، فباء أبو هلال فأكمل  
هذا النقص ، وتمكن لمذهب قدامة ، أو ممكن للمذهب العلمي الفلسفى في نقد  
الأدب ، بعد أن كانت الفنية هي الغالبة على أساليب النقد قبل أبي هلال .  
وإذا كان الذي دفع أبا هلال إلى تأليف كتاب الصناعتين هو مارأى  
من الخلط العلامة الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام ، فإن قدامة قد سبقه  
إلى تقرير مثل هذه العلة ، حين قرر أن علم جيد الشعر وردائه قد تخبط فيه  
الناس منذ تفهوموا في العلوم ، فقليلًا ما يصيرون ، ولما وجد الأمر على ذلك ،  
وتبيّن أن الكلام في هذا الأمر أخص بالشعر من سائر الأسباب الآخر ،  
وأن الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه ، رأى أن يتكلم في ذلك  
بما يبلغه الوسع (٢) .

(١) الصناعتين ٧ . (٢) نقد الشعر ١٠ .

وإذا نحن تأملنا هذا القول ملياً استطعنا أن نخرج بفائدة تلقى شيئاً من الضوء على علاقة كل من الرجلين بالآخر ، فإن الحافر لأبي هلال على تأليف الصناعتين هو تخبط العلماه الأعلام في أحکامهم على الشعر والشعراء ، والحافر لأبي الفرج على تأليف نقد الشعر أنه رأى الناس يخبطون في ذلك منذ تق�포وا في العلوم قليلاً ما يصيرون ، فال فكرة من غير شك واحدة وال موضوع الذي يدور حوله الكلام هو النقد ، وتكاد الألفاظ التي أديت بها الفكرية تكون واحدة وكل هذا يدل دلالة واضحة على الاطلاع بل على الاحترام والاقتفاء ، وأبو الفرج يعني من غير شك بفقه الناس في العلوم وقوفهم على أساليب التفكير اليوناني الطارئ على أسلوب النقد العربي ، ولعله كان يرى أنه أقدر منهم على فقه هذه العلوم والإفادة منها وإصدار الأحكام على مقتضاهما ، وربما كان ذلك لإمامه باللغة اليونانية واطلاعه بنفسه على آثارها ، أما خبط غيره من الناس فأثنائهم شفواها بالواسطة والنقل من غيرهم ، وفرق بين العالم الخبير ، والآخذ عن العالم الخبير !

ومن كل هذا يتبين أن دعوى أبي هلال البراءة من مذهب المتكلمين وهم ومعالطة ، ولعلك لو رجعت قليلاً إلى الوراء فتذكرة قوله عن كتاب الماجحظ «البيان والتبيين» ، إن الإبارة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تصاعيده ومنتشرة في أثنائه ... لعرفت أن الرجل مغرق في مذهب المتكلمين وأن الذي يعنيه بل إن جل غايته من تأليف كتابه إنما هو الإبارة عن الحدود والتعريف ، وتصحيح الأقسام بالنظر العقلى والتنظيم العلى . وما أسلوب المتكلمين غير ذاك ؟

والحقيقة الثانية أن أبو هلال كان عالماً نحوياً ولغوياً أيضاً ، وقد قدمنا  
نماذج من نقد ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء توضح خصائص هذا  
المذهب النقدي . أما أبو هلال فإن المنهج اللغوي يقوى عنده حتى يطغى  
على باب بأسره من أبواب كتابه ، ويظل سائداً بقية فصول الكتاب .  
وسأعرض الآن لكيفية معالجته لمعنى البلاغة والفصاحة ، وهي معالجة  
لغوية مختصة ، حتى ليختبر إلى القارئ أنه يقرأ معجماً من معاجم اللغة ،  
لا كتاباً يؤلفه صاحبه في النقد ، ويشرع به التأليف في علم البلاغة .

#### أمثلة لأسلوبه اللغوي :

البلاغة من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ، وبلغتها غيري ،  
ومبلغ الشيء منتهاه ، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايتها ، فسميت البلاغة  
بـ«لغة لأنها تنتهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه» (١) .

ويقول بعد ذلك : والبلاغة من صفة الكلام لامن صفة المتكلم ، فلهذا  
لا يجوز أن يسمى الله عز وجل بأنه بلغ ، إذ لا يجوز أن يوصف بصفة كان  
موضوعها الكلام (وهذا أسلوب كلامي).. وتسميت المتكلم بأنه بلغ توسع ،  
وحقيقة أن كلامه بلغ ، كما تقول فلان حكم ، وتعني أن أفعاله حكمة ،  
قال الله تعالى : «حكمة باللغة ، فجعل البلاغة من صفة الحكمة ولم يجعلها  
من صفة الحكيم .

إلا أن كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بأنه بلغ كالحقيقة ، كا  
أنها جعلت تسمية المزادة رواية كالحقيقة ، وكان الرواية حامل المزادة  
وهو البعير وما يجرى مجرراً ، وهذا سمي حامل الشعر راوية .

---

(١) الصناعتين ٨ .

ولما صار تسمية البغى المكتسبة بالفجور الفحمة حقيقة ، وإنما القحاب السعال ، وكانوا إذا أرادوا الكذب عن زنت وتكسبت بالفجور قالوا : قحبت أى سعلت . ومن ذلك النحو لأن الرجل إذا أراد قضاء الحاجة استتر بنجوة والنجوة الارتفاع ، فسمى ذلك الشيء بنجواً مجازاً ، ثم كثرا استهلاهم له فصار كالحقيقة وصرفوه فقالوا : ذهب ينجو ، كما يقال ذهب يتغوط إذا صار إلى الغائط ، وهو البطن من الأرض لقضاء الحاجة ، وسموا الشيء الغائط ، وصار كالحقيقة حين كثرا استهلاهم له ، وقانوا إذا غسل ذلك الموضع من النجوى يستنجد ، ومثل هذا كثير ليس هذا موضع استيعابه ! فأما الفصاحة فقد قال قوم إنها من قولهم أفضح فلان عما في نفسه إذا أظهره ، والشاهد على أنها الإظهار قول العرب : أفضح الصبح إذا أضاء ، وأفضح اللبن إذا انجلت عنه رغونه ظهر وفصح أيضاً ، وأفضح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح وبين ، وفصح اللحان إذا عبر عما في نفسه وأظهره على وجه الصواب دون أخطاء<sup>(١)</sup> .

وقوله : إن رجلاً أراد أن يسأل بعض الأعراب عن أهله ، فقال كيف أهلك ؟ بالكسر ، فقال له الأعرابي : صلباً ، إذ لم يشك أنه إنما يسأله عن السبب الذي يهلك به !

وقال الوليد بن عبد الملك لأعرابي شكا إليه ختنا له : من ختناك ؟ (فتح التون) فقال : معذر في الحمى ! إذ لم يشك في أنه إنما يسأله عن خاتنه<sup>(٢)</sup> ( وهذا نقد نحوى ) .

وهكذا نرى أبا هلال قد ضم إلى مذهب المتكلمين مذهب النحاة واللغويين وتلك ثقافات عصره اجتمعت لديه فجاء كتابه ملتقى لها .

(١) الصناعتين ٩ . (٢) المصدر السابق ١٢ .

## عزوفه عن المنهج التاريخي :

غير أن شيئاً واحداً يسترعي الانتباه ، ذلك أن أبا هلال لم يعتمد في دراسة الأدب ونقده إلى شيء من الأسلوب التاريخي ، أو مراعاة الزمان والمكان ، ولم يتحدث في أثر البيئة في النتاج الأدبي ، ولا في تقسيم الشعراء إلى طبقات بحسب التاريخ أو بحسب القبائل ، أو بحسب النتاج الشعري قلة وكثرة ، أو إجاده وقصيراً ، كل ذلك لم يتحدث فيه العسكري ولم يعرض له ، كما لم يعرض للعوامل المؤثرة في الشعر والشعراء كما فعل ابن سلام في « طبقات الشعراء » .

ونحن نسأل : أكان أبو هلال قد اطلع على كتاب « طبقات الشعراء » ووقف على منهج ابن سلام واتجاهه فيه أم فاته ذلك ؟  
 نرجح أن أبا هلال العالم الأديب الواسع الاطلاع لم يفته هذا الكتاب كما لم يفته غيره من الآراء التي احتوتها كتب سابقته ، بله الأحكام الشفوية التي حكمها سابقوه ورووها الرواة .

إذن فلم أغفل أبو هلال مثل هذا الأسلوب ؟ وهو أسلوب جيد في نقد الشعر وأحكم على الشعراء ؟

الجواب على هذا السؤال : أن أبا هلال نهج في كتاب الصناعتين نهجاً عليهما خالصاً عالج فيه جوهر الشعر ، ودرس المعانى والألفاظ وفصل ما تسمى به وما تتضمن ، دون أن يتعرض لعوامل الإجاده وبواعث المعانى ومنابع الألفاظ ، أو بعبارة أخرى نقول إن أبا هلال قد اتجه للمرة الأولى إلى تحويل أساليب النقد إلى مناهج بلاغية تعنى بالتقسيم والتحديد لأطراف الفن الأدبي .

أما الأسلوب التاريخي فلعله رأى في كتاب ابن سلام *الكتفافية* . . .  
أما جوهر الأدب فقد رأى تخليط العلماء كما يقول في الحكم وفي الاختيار  
فأراد أن يضع الأساس لهذه الأحكام ، وأن يستدرك مافات المحافظ من  
التنظيم العلمي .

لا شك أن هذه الرغبة في تنظيم هذا العلم علم النقد الأدبي أو علم  
البلاغة كما أراد أبو هلال أن يسميه ، أو كما أراد أن يجعله مجرى النقد  
الأدبي إلى أصول وقواعد تحتيدي ، واضحة صريحة في كتابة العسكري  
نفسه ، فلم يدخل في منهجه شيئاً له صلة بالمذهب التاريخي وعلاج الزمان  
والمكان . . وبعبارة أصرح نقول إن أبو هلال كان واضح قواعد ومنظماً  
أحكام تصل بجوهر الفن الأدبي أو هكذا كان يريد ، وتلك حقيقة واضحة  
ترفعه إلى مقام الأدباء المفكرين الذين ينظرون إلى الأدب فناً له خصائصه  
وميزاته ، من غير مراعاة لقائه ، فترك الجانب التاريخي للمؤرخين .

## ٧

ونسأل بعد ذلك : هل نجح العسكري في وضع أساس ومقاييس تقاس  
بها الآثار الأدبية ، ويوزن بها النتاج الأدبي ؟ وهل استطاع الرجل أن يصدر  
أحكامًا قاطعة في أحكام السابقين تبين صحتها أو خطأها ؟ وهل علل هذه  
الأحكام تعليلاً ترضاه القواعد التي وضعها ؟

كنا نؤثر أن ندخل في القول كله في هذا الأمر إلى الفصل الذي عقدناه  
لمقاييسه النقدية والبلاغية ، ولكن لا نرى بأساساً في هذا المقام من أن نشير  
إلى أن أبو هلال في بعض فصول الصناعتين ينسى شخصيته ، ويقف جده  
عند ترسم خطأ السابقين من النقاد والعلماء ، فيتحقق أقوالهم في حد الفصاحة

وَحدُ الْبَلَاغَةِ، ثُمَّ ذَهَنَهُ وَحَفَظَتِهِ فِي شِرْحٍ كُلِّ قَوْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، وَقَدْ  
يَكُونُ الشِّرْحُ أَيْضًا مِنْ ثُمَراتِ غَيْرِهِ.

وَلِيَتَهُ إِذَا أَحْصَى هَذِهِ الْحَدُودَ اسْتِطَاعَ أَنْ يَسْتَخلُصَ مِنْهَا الْحَدُودُ الَّذِي  
يُرْضِاهُ عَقْلُهُ وَيُطْمِئِنُ إِلَيْهِ فَكْرُهُ، أَوْ أَصْدَرَ حَكْمًا مُفْسَدًا مُعَلَّلًا لِهَا بِلَ قَدْ  
تَعْجَبَ حِينَ تَرَاهُ يَجْمِعُ الرَّأْيَ إِلَى ضَدِّهِ دُونَ أَنْ يَرْجُحَ أَحَدَ الرَّأْيَيْنِ، بَلْ  
رَبِّما شَرَحَ الرَّأْيَيْنِ وَأَيْدِيهِمَا بِمَا وَعَتْ حَافِظَتِهِ مِنْ شَوَاهِدِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ  
وَالشِّعْرِ وَالنَّثْرِ، وَلَسْنَا نَرِحُ الْكَلَامَ عَلَى عَوَاهِنِهِ، وَلَسْنَا نَظِلُّ الرَّجُلَ بِلَ إِنْ  
إِلَيْنَا صَافٍ يَقْتَصِينَا أَنْ نَدْرُسَ الرَّجُلَ أَوْ بِعِبَارَةِ أُخْرَى نَخْدُمُ الْفِكْرَةَ يَابْرَازِهَا  
نَاهَا وَمَاعِلِهَا، وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ النَّاسِ فِي زَمَانِنَا أَنَّ اخْتِيَارَ مُؤْلِفِ لَوْضُوعِ  
مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ أَوْ شَخْصِيَّةِ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ، عَامِلٌ مِنْ عَوَافِلِ الْأَنْجِيَازِ  
وَالْعَصْبُ لِمَا اخْتَارَ، وَإِنْ جَانِبَ الْحَقَّ وَبَعْدَ عَنِ الصَّوَابِ، وَمَا نَرِحُ هَذَا  
الرَّأْيَ لِمَنْ يَتَصَدَّونَ لِمُثْلِ مَا تَصَدَّيْنَا لَهُ، بَلْ نَرِحُ أَنْ خَدْمَةَ الْعِلْمِ دَائِمًا، تَلْتَقِ  
دَائِمًا بِنَصْرَةِ الْحَقِّ وَإِنْ خَالَفَ الْهَوَى، وَفِيهَا يَأْتِي الدَّلِيلُ عَلَى مَا أَسْلَفَنَا :

(١) فِي مِبْحَثِ الْفَصَاحَةِ :

(١) قَالَ قَوْمٌ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا فَالْفَصَاحَةُ وَالْبَلَاغَةُ تَرْجِعُهُانِ  
إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَإِنْ اخْتَلَفَ أَصْلَاهُمَا، لَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِنَّمَا هُوَ الإِبَانَةُ  
عَنِ الْمَعْنَى وَالْإِظْهَارُ لَهُ .

(٢) وَقَالَ بَعْضُ عَلَمَانَا : « الْفَصَاحَةُ تَكَامُ آلَةُ الْبَيَانِ »، وَعَلِقَ عَلَى هَذَا  
بِقَوْلِهِ : فَلَهُذَا لَا يَحِوزُ أَنْ يَسْمَى اللَّهُ تَعَالَى فَصِيحَا إِذْ كَانَتِ الْفَصَاحَةُ تَضَمِّنُ  
مَعْنَى الْآلَةِ .

(٣) وَسَمِعْتُ قَوْمًا يَذَهَّبُونَ إِلَى أَنَّ الْكَلَامَ لَا يَسْمَى فَصِيحَا حَتَّى يَجْمِعَ مَعْنَى  
هَذِهِ النَّعْوَتِ نَخَامَةً وَشَدَّةَ جَزَالَةً .. فَيَكُونُ مُثْلُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

ألا إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهر أبايق ، ومثل كلام الحسين بن علي رضي الله عنهما : إن الناس عبيد الأموال والدين لغو على ألسنتهم يحوطونه مادرت به معايشهم ، فإن حصوا بالابتلاء قل الديانون ، ومثل المنظوم قول الشاعر :

ترى غاية الخطى فوق رءوسهم     كأشرق فوق الصوار قرونها<sup>(١)</sup>  
 (٤) قالوا : إذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة ولم يكن فيه خاتمة وفضل جزالة سمي بليناً ولم يسم فسيحاً<sup>(٢)</sup>.

### (ب) في بحث البلاغة :

(١) قال محمد بن الحنفية رضي الله عنه : البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه بأسهل العبارة .. فقوله تضطر العقول إلى فهمه عبارة عن إيضاح المعنى ، و قوله : بأسهل العبارة تنبيه على تسهيل اللفظ وترك تنقيحة<sup>(٣)</sup>.

(٢) وقد جاء عن الحكماء أقوال أنا ذاكراها ومفسرها لتكميل فائدة الكتاب إن شاء الله : قال إسحق بن حسان : لم يفسر أحد البلاغة تفسير ابن المفعع : البلاغة اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة ، منها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون خطباً ، وربما كانت رسائل .. ثم يأخذ في الشرح .

(٣) وقال معاوية رضي الله عنه لابن أوس : ابغ لي محدثاً ، قال : أو تحتاج معى إلى محدث ؟ قال : أستريح منه إليك ومتلك إليه ، وربما كان صحتك في حال أوفق من كلامك .. وله وجه آخر<sup>(٤)</sup>.

(١) الخطى : الرماح ، والصوار : بالضم والكسر القطيع من البقر ، أو أعلى الجبال والقرون قرون البقر ، وإذا أريدت الجبال كانت القرون أشعة الشمس .

(٤) وقال بعض الهند : جماع البلاغة البصر بالحججة والمعرفة ب الواقع  
الفرصة ، ومن البصر بالحججة ... الخ .

(٥) وقال الهندى أيضاً : البلاغة وضوح الدلالة واتهار الفرصة  
وحسن الإشارة ، وقول عبيد الله بن عتبة : البلاغة دنوًّا المأخذ وقوع  
الحججة ، وقليل من كثير . فاما البصر بالحججة فمثل ما أخبرنا به أبو أحمد<sup>(١)</sup> .. اخ.

(٦) وقال حكيم الهند : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن  
يكون الخطيب رابط المأمور ساكن الجوارح متخير اللفظ ، لا يكلم سيد  
الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوق<sup>(٢)</sup> .

فقوله : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ... ويأخذ في شرح هذه  
العبارة في تطويل وإسهاب واستدلال ، حتى يستغرق شرح هذه العبارة  
الوجيزة والتمثيل لها ثمانى عشرة صفحة كاملة من كتاب الصناعتين<sup>(٣)</sup> .

(٧) وقول بعض الحكماء البلاغة قول يسير يشتمل على معنى خطير ،  
وهذا مثل قول الآخر : البلاغة حكمة تحت قول وجيز ، وقول الآخر :  
البلاغة علم كثير في قول يسير ، ومثاله قول الأعرابي ...<sup>(٤)</sup>

(٨) وقال ابن الروى : البلاغة حسن الاقتصاب عند البداهة ،  
والغزاره عند الإطالة ... الاقتصاب أخذ القليل من الكثير وأصله من  
قوفهم اقضبت الغصن إذا اقتطفته من شجرته ، وفيه معنى السرعة أيضاً<sup>(٥)</sup> .

(٩) وقال جعفر بن يحيى : البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك ،  
ويحيط عن معزاك ، وتخوجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة ،

---

(١) الصناعتين ١٧

(٢) ص ٢٠

(٣) الصناعتين من ص ٢٠ إلى ص ٣٩ (٤) ص ٣٨ (٥) ص ٤١

ويكون سليماً من التكلف ، بعيداً من سوء الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأمل ..

قوله : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، فالاسم هنا المفظ أى يحصر اللفظ جميع المعنى<sup>(١)</sup> .

(١٠) وقال العربي : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ، والتبتعد من حشو الكلام ، وقرب المأخذ ، وإيجاز في صواب ، وقد إلى الحجية ، وحسن الاستعارة ومثله قول الآخر : البلاغة تقرب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب ... والتقارب من المعنى الغريب<sup>(٢)</sup> ... إلى أن يقول : والرواية الصحيحة أن العربي قال : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ، ولكن رأيته في بعض أصولي كما ذكرته قبل فأوردها هنا ، وفسرته على مارأيته في الأصل ! هذا هو جهد أبي هلال في باب الفصاحة والبلاغة اكتفيت بما أورده فيما من هذه النصوص والأخذ في شرحها وتوضيحها .

أما القول في إيجاز القرآن وتفصيل وجوهه فلم يتعرض له العسكري وكل ما فعله أنه ساق أمثلة من القرآن الحكيم إلى جانب شواهد من الحديث والشعر والنشر ، مع أنه ذكر في أول كتابه ما يدل على أن الكلام في الإيجاز من أهم الغايات التي ألف لها كتابه .

## ٨

اعترافه بأنه مفسر وشراح :

ونلاحظ أنه لم يستطع أو لم يحاول أن يستخلص تعريفاً واحداً من هذه التعريفات الكثيرة يرضاه ويستخدمه غيره قاعدة . وهذا نجل عمله ومداعاة نفره أنه جمع هذه الأقوال والتعريفات والحدود وفصلها وشرحها ،

(١) ص ٤٢ (٢) ص ٤٧

وهذه عبارته في التباهي بنفسه والزهو بعمله : « ذكرت في هذا الباب وهو ثلاثة فصول من نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة ما فيه كفاية ، وأتيت من تفسير مشكلها على ما فيه مقتضى ، ولم يسبقني إلى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد . وإنما اقتصر من كان قبلى على تلك النعوت عارية مما هي مفتقرة إليه من إيضاح غامضها ، وإثارة مظلمتها ، فكانت المنفعة بها للعالم دون المتعلم والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز فسقطت عنه معرفة كثير منها ، وأنت — أيدك الله — تعتمد ما ذكرته من ذلك ، وتأتم بما شرحته منه ، وتستدل على ما ألفيته من جنسه إذا عثرت به ، ل تستغنى عن جميع ما صنف في البلاغة وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة إن شاء الله (١) .

والذى يبدو لنا أن العسكري يعني بمن كان قبله أبا عثمان المحافظ الذى ذكر تلك النعوت عارية مما هي مفتقرة إليه ، ومن يقرأ البيان والتبيين يقف على تلك النعوت والحدود للبلاغة والفصاحة ، ولم يكن أبو هلال أميناً في إغفاله المصدر الذى أخذ عنه ، وإن ذكر المحافظ وكتابه وعبر عن إعجابه به . ولسنا نعرف من أحصى تلك النعوت والحدود غير المحافظ . فلم يكن من الأمانة العلمية ، ولا من أخلاق العلامة أن ينقل عالم كأبى هلال نقلآ ييتناً من غير أن يشير إلى المصدر الذى استق منه .

وليس يعنينا هذا الآن بقدر ما يعنينا أن أبا هلال فى أكثر هذه الأقوال لم يجهد نفسه في تعرف قائلها ، وكان يفيدنا ذلك أن نرجع إليها في مظانها ، وإنما أنت ترى كما نرى أن أبا هلال يجتزئ بقوله قالوا ، ومن قولهم في ذلك ... قال الهندى ... قال العربى ، وتلك زيادة في التعمية

والإلغاز، وكان يرفعه الإنماض عالماً، أكثر مما يحيط به الاعتساف مختصاً.

### منهج المعلمين

على أن منهج أبي هلال في تناول هذه النصوص هو منهج المعلمين، وقد كان مثل هذا الأسلوب سائداً منذ عهد قريب في أساليب التعليم، تناول المتون بالضبط، ثم الشرح والتحشية والتحليل والتثليل، والاستطراد في ذلك حتى تستنزف العبارة الواحدة شرحاً كثيراً وجهداً كبيراً ووقتاً طويلاً، وهو أسلوب التفریع الذي ينطوى به الأصل بين الفروع. وهذا أسلوب الكتب القدیمة التي كانت إلى عهد قريب مورداً ثقافياً في مصر والبلاد العربية. وهو أسلوب تقريري تعليمي يكون بعرض الكلمات ثم تناول جزئياتها، ولكن هذا العرض وذلك البحث لا يؤديان إلى قاعدة توضع ولا إلى حكم يرتضى، وإنما اكتفاء بالشرح والتفسير، وزعم أن ذلك العلم كله الذي يرفعه على الساقين.

وقد يعطيك البحث عن الجديد في تناول الأصول ونقد الأحكام في مثل هذا الباب فلا تكاد تجده.

ثم ما الذي يعنيانا، وما الذي نفيد من أمثل التعريفات ومن شروحها هل يفيد منها الأديب؟ هل يفيد منها الناقد؟ هل يفيد منها المنشيء؟ هل يفيد منها الناظر في إعجاز القرآن؟

نعتقد أن هذا الباب بأسره – الباب الذي عالج فيه معنى الفصاحة والبلاغة – لا يضيف إلى العلم ولا يضيف إلى النقد في أي اتجاهاته فائدة جديدة. وإنما هو باب توثيق أو باب تقريري يفيد منه المتعلم لا العالم، ويدرك به اللاحق ما عند السابق من علم ومعرفة، وقد يفيد منه – كما يقول العسكري – العالم المبرز إذا غاب عنه شيء منه كما يقول.

على أننا لانستطيع أن نجحد قيمة هذه الشروح التوضيحية من حيث الإفادة في التأليل وعرض نماذج جيدة من ثمرات الأدب الشهية في أثناءها.

### منهج الصناعة

ومنهج أبي هلال بعد كل ما تقدم منهج الصنعة يحرص عليها ويصطنعها ولا يستطيع بعد ذلك أن يخفي إعجابه برجال الصنعة ، والمقاييس الذي يقيس به الشعراء والأدباء هو إحكامهم للصنعة واقتدارهم على الإفاداة من مذهب البديع ، واستخدام محسنته في ضروب الكلام .

وأنت ترى ذلك بوضوح فيها أورد من أمثلة للتبنيس فيها التكاليف المقوت ، وفيها السجع المصنوع ، أوردها مورد الاستشهاد وخلطها بغیرها من الجنس المستحسن والسبع المقبول ، ومن ذلك : هشمتك هاشم . وأمتك أمية ، وجمنت بك جح ، وخزمتك مخزوم ، وأقصتك قصى<sup>(١)</sup> .. وجنس أبو تمام أربع تجنیسات في بيت واحد ولعله لم يسبق إليه وهو قوله : بحوافر حفر وصلب صلب وأشعار شعر وخلق أخلق<sup>(٢)</sup> وقوله أيضاً :

لسلمي سلامار وعمره عامر وهند بنى هند وسعدى بنى سعدى  
ومما جنس فيه قوله :

ففصلن منه كل بجمع مفصل و فعلن فاقرة بكل فقار<sup>(٣)</sup>  
وأبوهلال مولع الولوع كله بهذه الصناعة العجيبة وهذا التراجم الغريب

(١) الصناعتين ٣١٣ (٢) الأشعار ما استدار بالحافر من منتهى الجلد

(٣) الصناعتين ص ٣٢١ والفار : جمع فقارة ما انتقد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجب ، و الفاقرة : الداهية .

الذى لا يُستسيغه إلا ذُوو الأذواق المعقّدة والتلكّف المقيّت ، انظر إليه يقول في بيت امرىٰ القيس في وصف حصانه :

له أَيْطَلَا ظِبِّيٍّ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سَرْحَانٍ وَتَقْرِيبٌ تَسْفُلٌ  
وهذا من بديع التشبيه لأنّه شبه أربعة أشياء في بيت واحد ، وكذلك قول المرقس :

النَّشَرُ مِسْكٌ وَالْوِجْهُ دَنَا نَيْرٌ وَأَطْرَافُ الْأَكْفَفِ عَنْمٌ  
فهذا تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد .

وليت أبا هلال كان يجتازىء باستحسانه الصريح المبنى على ذوقه الخاص . ولકأنه لا يفعل ذلك حتى يدعو الشعراً إلى اقتداء هذه الآثار في تزامن البديعيات والتشبيهات فيقول : ثم نوردها هنا شيئاً من غرائب التشبيهات وبدائعها ليكون مادة لمن يريد العمل برسمنا في هذا الكتاب .  
ثم يعرض طائفه مما استحسن من الآيات الموقرة بالتشبيهات حتى يقول : ومن بديع التشبيه قوله الآخر :

نَشَرَتْ إِلَى عَدَائِرَاهَا حَذَرُ الْكَوَاشَحُ وَالْعَدُوُّ الْمُوْبَقُ  
فَكَأْنَىٰ وَكَأْنَهَا صَبَحَانٌ بَاتَتْ تَحْتَ لَيلٍ مَطْبَقٌ  
فتشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء مفصلة .

ولست بحاجة إلى أن أفصل موضع السخف في البيتين في قوله «فَكَأْنَىٰ» و«كَأْنَهَا» ، ولن يشفع للشاعر ولن ينفع أبا هلال أن يأتى الشاعر بألف تشبيه !

وبعد لأىٰ وكيف يصل العسكري إلى مثله الأعلى وغاية الغايات في ذوقه الخاص في قوله الأوّل الدمشقي :

(٢) الصناعتين ٢٣٩ .

(١) الصناعتين ٢٣٨ .

وأسبلت لولواً من نرجس فستق  
ورداً وغضت على العناب بالبرد  
فيجعله أتم التشبيه ، لأنه شبه خمسة أشياء بخمسة أشياء في بيت واحد :  
الدمع بائلولوا ، والعين بالنرجس ، والخد بالورد ، والأناهل بالعناب ،  
لما فيهن من الحضاب ، والثغر بالبرد . . . ثم ينهى حكمه وإعجابه بهذا البيت  
فيقول : ولا أعرف لهذا البيت ثانياً في أشعارهم <sup>(١)</sup> .

أرأيت أن العسكري رجل صناعة قبل كل شيء يضع أساسها ويعجب  
بقاليلها ، ويبارزهم في استخدامها في شعره ونشره ، وكان من دعاتها الذين  
استجابت لهم القرون التالية ، فأحالت الأدب إلى طلام زخرف لا تكاد  
تميز به جمال البناء ولا روعة الإنشاء ، وجعل الصناعة مقاييس الأدباء ،  
ومقاييس النقاد في الحكم بالإسلامة أو بالإحسان .

#### خلاصة الفصل :

نستطيع أن نستخلص مما فصلنا في هذا البحث منهج أبي هلال في دراسته  
البلغية ونحمل هذا المنهج فيما يأنى :

١ - نهج أبو هلال منهج المتكلمين في دراسة الأدب ونقده — وإن  
ادعى نفوره من مذهبهم ، وحاول أن يخفى سلوكه مسلكهم — خوف تيار  
النقد الأدبي الذي كان يعتمد أول ما يعتمد على تطبيق النصوص الأدبية  
على تقاليد العرب المأثورة ، وما درج عليه الشعراء القدامى في مطالع قصائدهم  
وتشبيهاتهم واستعاراتهم وأغراضهم ومعانيهم إلى منهج عقل يعنى بالحدود  
والتقاسم .. حول القول فيما هو كائن إلى القول فيما يجب أن يكون .

٢ - عنى بالتنظيم العلى وحصر الأحكام ، بعد أن كانت مبنوته في  
بيان والتبيين وغيره ، فشرع قواعد للفنون الأدبية ، أو بعبارة أخرى ،

(١) ص ٢٤٠ .

حول بجرى النقد الذى يعتمد على الذوق والموازنة إلى علم منظم واضح  
المعالم بين السمات هو علم البلاغة الذى وضع أساسه قدامة بن جعفر وأرسى  
قواعدـه ، وأتم بناءه أبو هلال .

٣ — ومنهجه منهج تقريري من جهة أخرى إذ يتناول التعاريف  
والتقاسم ، أو يضع القاعدة ويقسم الأقسام ، ثم يشرحها ويحللها ويمثل لها  
من محفوظه ويسرف في التشيل والاستشهاد إسراً ظاهراً ، حتى لقد يكون  
من الممكن أن يعد كتاب الصناعتين بهذا كتاباً من كتب الأدب التي تحشد  
فيها النصوص البليغة والأقوال المأثورة في كل فن من فنون الأدب .

٤ — وهو منهج تعليمي من ناحيتين :

(١) للقاد الذين يحرصون على تعلم أصول النقد ، وتعرف أسباب  
الحكم بزيفه أو أصالته ، وجده وردائه ، سواء منهم المبتدئ ،  
والأخذ منه بنصيب إذا غاب عنه وندّ عن فهمه شيء منه .

(ب) للأدباء المنشئين الذين يحرصون على جمال الفكرـة وحسن  
الصورة يعلـمـهم قواعد الصناعة ، ويرسم لهم أساليب الإجادـة  
والإتقان — كما ترافق له — ليسـكـوا سـبـلـها .

(٥) منهج العسكري هو منهج البحث عن الصناعة البلاغية بكل ما تحتوى  
هذه الكلمة من معان ، سواء في ذلك ما يتصل بـأسـالـيـبـ الـبـيـانـ أوـ مـحـسـنـاتـ  
الـبـدـيـعـ ، يـشـيدـ بـرـجـاـهـاـ وـيـدـعـوـ إـلـىـ اـقـفـائـهـ ، وـيـحـذـوـ هوـ نـفـسـهـ حـذـوـهـ فـيـ تـرـهـ .  
وـشـعـرـهـ ، وـخـيـرـالـأـسـالـيـبـ الـأـدـيـةـ فـيـ نـظـرـهـ مـاـحـلـاهـ الـبـدـيـعـ ، وـكـاهـ التـصـنـيـعـ .

# المقدمة

نماج في هذا الفصل المقاييس التي وضعها أبو هلال لقياس الأدب ، ونوضح القواعد البلاغية التي رسماها لسلامة الأساليب الأدبية من العيوب ولتسلم من النقد لتكون البلاغة نحو الأدب تعصم الأديب من أخطاء الأساليب وعيوب التراكيب كما يحب النحو الخطأ في الأعارات ، ويصون اللسان والقلم من اللحن . وسنجهد في عرض هذه القواعد والإشارة إلى منابعها الأولى إن كانت قد تهافت لواحد من السابقين الذين عرضوا للعلاج فنون الأدب .

وأبو هلال – كما قدمنا – ينبع في كتاب الصناعتين نهجاً تعليمياً إذ كانت غايتها أن يخضع صناعتي الشعر والنشر لقواعد ومقاييس ، ويلزم الأدباء الالتزام بهذه القواعد والاقتداء بها . وهو الذي جنح بالنقד الأدبي الذي يعتمد على الذوق أكثر ما يعتمد إلى علم ذي أسس وأصول وهو علم البلاغة الذي شرعه وبين معالمه .

ولست أحب أن يتبدادر إلى الدهن من هذا أن تلك المقاييس والقواعد التي نجدها في كتاب الصناعتين من صنع العسكري وحده ابتكرها ابتكاراً ، ولم يسبقها إليها واحد من الذين عرضوا لنقد الأدب ، فإذنا سنجهد أن نوضح مصادر هذه المقاييس وما أخذها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . وقد مر في الفصل الثالث من هذا البحث الإشارة إلى منابع بلاغته بوجه عام ولكننا هنا سنقف القاريء على حظ العسكري من الابتكار ، وحظ آرائه

ومعاييره من الجدة والأصالة في كل مقياس من المعايير التي نعرض لها بالبحث وضع أبو هلال للأدب مقاييس لا تكاد تدع ناحية من نواحي الكلام إلا تعرضت لها ورسمت لها سبيل الإجاده . ولقد اشتد الخلاف بين النقاد أنفسهم حول وضع المعايير للفنون عامة والنقد بوجه خاص « فنهم من قال إن النقد مسألة ذاتية خالصة تعتمد على ماتبعه النصوص في نفوس القراء من انفعالات وما تؤثر في آذواقهم من آثار مقبولة أو منكرة ، وهذه النفوس والأذواق مختلفة باختلاف الأفراد ، فكل يتألق النصوص وأثارها بطبيعة ممتازة ، ويتدوّلها بحسب خاص ، ويقدرها تبعاً لذلك . على أن هذه النصوص والأذواق تستحيل مع الأيام وسعة الثقافة وباستحالة الحياة الاجتماعية والطبيعية فتصبح أحكامها معرضة للنقض والتناقض . ومعنى ذلك تعدد الأحكام ببعد النقاد ثم تغيرها بتغير الأحوال ، وليس هذا من طبيعة العلم ذي القوانين العامة الثابتة التي لا تتأثر باللاحظات الفردية ولا المؤشرات الزمانية والمكانية ، ولكنها تمثل الموضوعية دون الذاتية التي هي طابع الفنون <sup>(١)</sup> . وكلمة « الصناعة » التي ذكرها أبو هلال ترجمة لكلمة الفن للتمييز بينها وبين العلم ، والفن هو المهارة سواء كانت تلك المهارة فيما تشفه اليدي أو يشفه اللسان ، فهو صناعة ، فالدمية صناعة اليد ولا يزاولها إلا الفنان أو الصانع الصناع الذي يختار لها المادة الجيدة والأوضاع الجيدة ، وقد يقصر بحسب تمكنه من صناعته ، فإذا اجتمعت جودة المادة إلى جودة الهيئة الخاصة عدّ الفنان متمنكاً من صناعته ، وكذلك سمي الأدب صناعة لما فيه من المهارة في إصابة المعنى أو ابتكار الخيال أو جمال الفكرة وحسن الصياغة والتألق في الأسلوب .

(١) أصول النقد الأدبي ١٥٦

أما تاريخ هذا المصطلح في الأدب العربي فلعل محمد بن سلام كان أول من فطن لذلك حين قرر أن الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات<sup>(١)</sup> .. وأخذ العسكري عنده ذلك فسمى كتابه «الصناعتين» كما ظهرت كلية الصناعة على لسان غيره من النقاد كالأمدي الذي يذكر لفظ الصناعة ويردد قول ابن سلام وما نقله عن خلف<sup>(٢)</sup>. والعمدة في الصناعة على المرانة والدربة والممارسة والمهارة ، وكل أولئك يتفاوتون بتفاوت الأداء والتقاد ، وكذلك الفنون عامة مبنية على كثرة المزاولة ، ومن هنا كان الشك في حاجة الفنون إلى قواعد تنظمها مع التسليم بأن الذوق لاغنى عنه في هذا السبيل . وكان أبو هلال يتمتع من الذوق بمحظ رفيع ، ولديه القدرة على إصدار أحكام صائبة في كثير من الأحيان .

وكان يسعه أن يتمحض لذوقه وطول معاناته للأدب فيجيد إجادته ليس وراءها بغية لمستزيد ، ولكن رغبته في الإحاطة بجميع المذاهب ، وجمع الآراء هي التي أفسدت عليه ذوقه ، ب فعلته يؤثر مذهب الصنعة ، ويتابع المتكلمين فيunci بأساليبهم في الدرس والبحث ووضع الحدود وتنظيم الأقسام ، ولو أنه أسلم نفسه لفنه وأطلق العنوان لذوقه وبصيرته النفاذه لسلم من التخبط بين المذاهب المختلفة ولكان له ولكتاب الصناعتين شأن أى شأن . عاجل العسكري الكلام بشطريه الشعر والنثر ، وسمى كتابه الصناعتين الكتابة والشعر ، وكان الأجر أن يسميه الشعر والنثر ليكون أقرب إلى الصواب ، وإن كان قد ذكر الكتابة وحدها فلأنها كانت أهم ألوان النثر في مصر الذي عاش فيه وتبوا الكتاب في زمانه أعلى الدرجات ، وكانوا المرموقين من بين أصحاب الصناعات ، وتسلّموا المناصب الرفيعة ولكن

على الرغم من هذه التسمية فإن الكتاب يعالج مسائل من فنون النثر الأخرى كالخطب والرسائل والمناظرات وغيرها.

قسم أبو هلال الكلام إلى قسميه المعروفين الشعر والنثر وتكلم في أحكام تعمهما، ووضع مقاييس يقاس بها كل منها. وإذا كان اللفظ والمعنى ركناً الأدب اللذين جعلهما أبو هلال محوراً لدراسة الصناعتين، وكان من السابقين في علاجها وبيان منزلة كل منها في بناء الكلام فقد آثرنا أن نتابعه في جملة اللفظ والمعنى أساس دراستنا لاستخلاص مقاييسه.

## الالفاظ

كان العسكري من مدرسة الماحظ التي تشيع للصياغة وتعصب لللفظ وربما كان العسكري أكثر من رأينا مغالاة في تقدير قيمة اللفظ يجعله في الآخر الأدبي كل شيء، ويتجدد المعنى فلا يجعله شيئاً. ونستطيع من غير جهد أن نقرأ هذا القول ونستخلص منه هذا الرأى في الفصل الذي عقده في تمييز الكلام، وهو الفصل الأول من الباب الثاني<sup>(١)</sup> الذي يؤكّد فيه هذا الرأى حين يقرر أن الكلام إنما حسنه بما يكون فيه من سهولة ونصاعة. وتخبر لفظ وإصابة معنى، وجودة مطالع، ولبن مقاطع، واستواء تقاسيم، وتعادل أطراف، وتشبه أعيجازه بهواديه، وموافقة مآخذه لمباديه، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلاً، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر، فتجدد المنظوم مثل المشور في سهولة مطلعه وجودة مقطعه، وحسن رصده وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه، فإذا كان كذلك كان بالقبول حقيقةً وبالتحفظ خليقاً ... إلى أن يقول لها في صراحة :

• ليس الشأن في إيراد المعانى لأن المعانى يعرفها العربي والمعجمى.

(١) كتاب الصناعتين ٥٤ .

والقروى والبدوى . وإنما هو في إجاده اللفظ وصفاته ، وحسنها وبهاءه ، وزاهته ونقاشه ، وكثرة طلاوته ومامته مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف . . . وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً ( وهو ما أراده من قوله « وإصابة معناه ، في عبارته الأولى ) ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نوعته التي تقدمت .

فدار البلاغة في نظر العسكري هو الصناعة اللغوية والتألق في صوغ

اللفظ ، ويعده ذلك التألق غاية الغايات من نظم الكلام أو هدف الأدب ، أما أن تكون الغاية إفهام القارئ أو السامع خوى الكلام فذلك ما لا يراه العسكري ، مستدلاً بأن الخطب الرائعة والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعانى فقط ، لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام . . . ولهذا تألق الكاتب في الرسالة ، والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة يبالغون في تجويدها ، ويفلغون في ترتيبها ليدلوا على براعتهم وحذقهم بصناعتهم . ولو كان الأمر في المعانى لطربوا أكثر هذا العناء فربعوا كداً كثيراً ، وأسقطوا عن أنفسهم تعباً كثيراً<sup>(١)</sup> .

وهذا الرأى الذى يذهب إليه من أن الأدب ليست غايته الإفهام ولا بسط المعلومات وتلقينها يشبه إلى حد كبير نظرية أرسطو في الفن الأدبي : ذلك أن البحث في الفنية هو بحث في الابتكار وفي الوسائل التى تتيح للوصول إلى شيء مبتكر قد يكون موجوداً وقد يكون غير موجود ، لأن الفنية موجودة في نفس مبتكرها لافي طبيعة الأشياء المتحدث عنها ، والفنان يستطيع أن يبتكر جمالاً من شيء لا جمال فيه ، وأن يضفي جمالاً على شيء ليس جيلاً في ذاته وليس موضعًا للجمال ، فإذا وصفنا الأشياء وصفاً مادياً كما هي في الطبيعة

---

(١) الصناعتين ٥٧ — ٥٨ .

والواقع ، فليس هذا فناً لأنه لا ابتكار فيه ومن ثم لا فنية . ولنست هناك فنية في الأشياء الموجودة بالضرورة ولا في الأشياء الالزمة لزوماً عقلياً لأن مثل هذه الأشياء لها عناصرها في الطبيعة وما زدنا على الطبيعة شيئاً<sup>(١)</sup> . فإن كان الذي يريد أبو هلال من أن الأدب ليس غاية الإلقاء ، وإنما الهدف العمل الفني الذي يدل على ذاتية الأديب وترز فيه شخصيته ومقدرتها على التصرف في الصورة وإلباس الفكرة ثوباً من الخيال تسمى به عن الواقع المألف ، فلا غبار على هذا الرأي .

ويؤيد أبو هلال هذا القول في الفن بتقريره أن الأثر الأدبي قد يسمى باللقط وحده إذا كان ساماً ، وحسب المعنى أن يكون وسطاً ، فالكلام إذا كان لفظه حلواً عذباً وسائساً سهلاً ومعناه وسطاً دخل في جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر كقول الشاعر :

ولما قضينا من منى ..... الآيات

ألاست ترى أن العسكري قد غلا واشتط ، ولم يقدر إلى هذا الشطط سوى تعلقه بذهب الصنعة هذا التعلق الذي أعماه عن تقدير المعنى ، وليس المعنى دون اللفظ منزلة في تقدير القيمة الفنية للأدب ، ولاشك عند المنصفين أن وجوب مراعاة جانب المعنى لا يقل شأناً عن وجوب الاهتمام بالألفاظ ومانظمن أحداً يقره على هذا الذي ذهب إليه من أن المعانى يعرفها الحضري كما يعرفها البدوى ويعرفها العربي معرفة العجمى ، بل إن التفاوت بين طبقات الناس هو القاعدة ، ومن ذا الذي يجحد تفاوتهم في الموهاب ، وتفاوتهم في الاستعداد وعوامل الوراثة ؟ بل من ذا الذي يستطيع أن يتذكر لأثر التجربة وأثر البيئة وأثر الثقافة في العقليات ، وهى لا تنسى للناس بدرجة

(١) كتاب الخطابة لأرسسططليس : ٣٧ .

واحدة؟ وليست المعانى إلا الأثر لهذه المقومات أجمع؟

فأين الحقيقة من المجاز والاستعارة والكلنائية؟ والخيال يلعب فيها دوراً خطيراً، بل هو كل شيء فيها، ومعانى الشعر مبنية الكبرى أنها خيالية، وهذه المعانى وهذا الخيال يختلف من شخص إلى شخص، وخيال ساكن الصحراء غير خيال سكان الشواطئ، غير خيال سكان الأودية، وخيال العالم غير خيال الجاهل. والحقيقة أنه لم يعثر هذه العترة إلا لإيشاره مذهب الصنعة وهذه الصنعة ميدانها من غير شك الألفاظ والأسالب.

إن العسكري وأضرابه من الذين يذهبون مذهبـه في تقدير اللـفـظ وإنكار التفاوت بين الناس في الإـجادـة في المعنى في تقدير البلاغـة يـتـجـاهـلـون عـدـآـعـقـلـيـتـهمـ؛ بل يـنـكـرـونـ أـثـرـ الـحـضـارـةـ فيـ بنـاءـ هـذـهـ العـقـلـيـةـ، وـكـذـلـكـ شـأنـ الـذـينـ يـبـحـثـونـ التـفـاضـلـ بـيـنـ الـأـلـفـاظـ، لـأـنـهـماـ مـتـصـلـانـ أـشـدـ اـتـصـالـ لـأـنـ التـفـكـيرـ فـيـ الـلـفـظـ وـالـمـعـنـىـ تـفـكـيرـ جـلـيـ يـفـكـرـ فـيـ الـأـدـيـبـ مـرـةـ وـاحـدةـ وـبـحـرـكـهـ عـقـلـيـةـ وـاحـدةـ إـذـاـ رـتـبـتـ الـمـعـانـىـ فـيـ الـذـهـنـ تـرـتـيـباـ منـطـقـيـاـ، وـإـذـاـ تـحـدـدـتـ فـيـ الـفـكـرـ تـحـديـداـ يـجـمـعـهـ تـرـابـطـ الـمـعـانـىـ وـتـدـاعـيـهاـ، هـذـاـ التـرـابـطـ وـهـذـاـ التـدـاعـيـ الـذـيـ يـرـضـاهـ الـمـنـطـقـ أوـ يـرـضـاهـ حـسـ الـأـدـيـبـ، اـنـخـدـرـتـ هـذـهـ الـمـعـانـىـ عـلـىـ الـلـسـانـ بـأـلـفـاظـهـاـ الـمـلـأـةـ هـاـ خـطـابـةـ وـانـخـدـرـتـ عـلـىـ الـقـلـمـ بـأـلـفـاظـهـاـ الـمـطـاوـعـةـ هـاـ كـتـابـةـ وـشـعـرـآـ مـنـ غـيرـ تـهـذـيبـ وـاـخـتـيـارـ هـذـهـ الـأـلـفـاظـ. وـكـبارـ الـكـتـابـ الـذـينـ يـنـقـحـونـ مـنـ الـأـلـفـاظـهـمـ بـعـدـ كـتـابـتـهـاـ إـنـماـ يـغـيـرـونـ مـنـ هـذـهـ الـأـلـفـاظـ لـأـنـ مـعـانـيهـاـ قـدـ تـغـيـرـتـ فـيـ نـفـوسـهـمـ إـمـاـ بـالـتـحـديـدـ إـمـاـ بـالـرـيـادـةـ وـالـنـفـصـ فـهـمـ يـسـتـبـدـلـونـ الـلـفـظـ بـالـلـفـظـ وـفـقـ مـاـغـيـرـ وـاـفـيـ أـنـفـسـهـمـ مـنـ الـمـعـانـىـ فـصـلـ الـلـفـظـ عـنـ الـمـعـنـىـ هـذـاـ الـفـصـلـ الـذـيـ يـرـيدـهـ أـبـوـ هـلـالـ مـخـالـفـ لـطـيـعـةـ الـأـشـيـاءـ وـلـطـيـعـةـ الـعـقـلـ نـفـسـهـ<sup>(١)</sup>.

(١) بـلـاغـةـ أـرـسـطـوـ بـيـنـ الـعـرـبـ وـالـيـونـانـ ١٥١ - ١٥٢ .

على أن عالماً أديباً يسبق أبو هلال بنحو قرنين من الزمان يعرف منزلة  
اللفظ ، كما يفطن إلى منزلة المعنى في الحكم على الأدب وتقدير قيمته الفنية ،  
ذلك هو بشر بن المعتمر<sup>(١)</sup> الذي كتب صحيفه ذكر فيها البلاغة ، ودل على  
مظان الكلام والفصاحة يقرر فيها أن التوعر يسلم إلى التعقيد والتعقيد هو  
الذى يستهلك المعنى ويشين الألفاظ ، والأديب الذى يريغ معنى كريما  
عليه أن يتمس له لفظاً كريماً ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف .  
ومن حقهما أن يصانعاً عمماً يفسدهما ويجهنما .

والمنزلة الأولى عند بشر للأديب الذى يكون لفظه رشيقاً عذباً ، ونفما  
سهل ، ومعناه ظاهراً مكتشوفاً وقريباً معروفاً ، إما عند الخاصة إن كان إليها  
قصد ، وإما عند العامة إن كان إليها أراد ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون  
من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضمن بأن يكون من معانى العامة ..  
والبلين التام هو الذى يبلغ بيان لسانه وبلاعنة قلمه ولطف مداخله أن يفهم  
ال العامة معانى الخاصة ، ويكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلتف عن الدهماء ،  
ولا تجفو عن الأكفاء .

فالمعنى عند بشر ليست على درجة واحدة بل هي متفاوتة فيها الكريم  
وغير الكريم ، وفيها معانٍ لل خاصة ومعانٍ لل العامة ، كما أن الألفاظ كذلك .  
ولا شك أن هذا هو الصواب مع تقدمه في الزمن ، وليس الأمر كذا زعم  
أبو هلال أنها في مستطاع الناس بدرجة واحدة مما اختلفت مواهبهم ،  
وتعددت أنواعهم ، وتبينت ثقافاتهم ! والعجيب أن صحيفه بشر قرأها أبو هلال  
وسجلها في كتابه .

وإذا تذكر العسكري للمعنى على هذه الصورة فإن الحقيقة تغالبه

---

(١) توفى بشر بن المعتمر سنة ٢١٠ هـ .

فلا يلتبث أن يقررها إن قصداً وإن عفواً فيقول<sup>(١)</sup>: الكلام ألفاظ تشمل على معانٍ تدل عليها وتعبر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى لكافحة إلى تحسين الألفاظ، لأن المدار بعد إصابة المعنى، ولأن المعنى تحمل من الكلام محل الابدال والالفاظ تجرى معها مجرى الكسوة ومرتبة إحداها على الأخرى معروفة . وتراه يقول في موضع آخر<sup>(٢)</sup> : لا خير فيها أجيد لفظه وسخف معناه ! وهذا هو الصواب الذي لا ينزعه فيه أحد ، لأن الذي ينبغي أن يمنع هو أن يفكك الأديب في معانيه تفكيراً سليماً يقره العقل وتدفعه العاطفة ثم يورد هذه المعانٍ في عبارات سقية متداعية . ولكن من قال إن هذا يسمى أدبياً أو يستحق أن تطلق عليه هذه الكلمة ؟ إن الأديب هو الذي يملك اللغة التي ينشئ بها الأدب ، فإذا قصرت به لغته لم ينفعه عقله ولم تنفعه معانيه . فقبل الأدب لا بد أن يعرف الأديب اللغة التي يوردها الأدب ، والأمر لا يعود ماقال أرسسطو مخاطباً الخطباء : يجب أن نعرف اللغة اليونانية<sup>(٣)</sup> .

ولنا بعد هذا البيان كلية ، هي أن هذه الظاهرة ظاهرة الخلاف في تقدير اللفظ والمعنى ربما ترجع في أساسها إلى خلاف عنصري ؛ ذلك أن أكثر الذين تشيعوا للألفاظ كانوا من المنصر العربي ، أو من الذين تفانوا في العروبة وتلاشت فيها عصيّتهم ، وكان أكثر الذين تشيعوا للمعنى من غيرهم من الأمم ، الذين سكنت ريحهم ، ودالت دواتهم ، وبقي في نفوسهم شعور مكتوب ، وحنين خفي إلى مجدهم الغابر ، فاصطرب العداء السافر بين الشعوبية والعرب ، وكان هذا الصراع الحق في إبداء الرأى متفسراً لغيرهم من منهم دينهم وحرصهم على وحدتهم عن المجاهدة بهوى النفوس ، فاتخذ هذا الصراع الحق مظاهر شتى ،

---

(١) الصناعتين ٦٨ . (٢) الصناعتين ٥٥ . (٣) بلاغة أرسسطو ١٥٢ .

لعل منها هذا الخلاف النظري بين اللفظ والمعنى ، وهو في أصله أكبر من خلاف بين اللفظ والمعنى، ولكنكَنْه في حقيقته هتاف العرب : لنا لسان وبيان ، فيجيئهم لسان حال أولئك : ولنا فكر وعقل !

بعد هذا البيان ننتقل إلى القول في مقاييس الألفاظ التي وضعتها العسكرية ، وسنجد أنه قد وفق فيها توفيقاً يرضاه الذوق والإنصاف لأنه استوحى فيه ذوقه وطبعه الفنى . ولقد جمع العسكري هذه المقاييس في هذه العبارة : إن الشعر كلام منسوج ولفظ منظوم ، وأحسن منه ما تلاعماً نسجه ولم يسخف ، وحسن لفظه ولم يهجن ، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفاً بغيره ، ولا السوق من الألفاظ فيكون مهلهلاً دوناً<sup>(١)</sup> . فالمقياس الذي يقيس به لغة الشعر أن يكون الأسلوب متلائماً النسج في غير سخف ، وأن يكون اللفظ حسناً في غير ابتذال ، متوسطاً بين البغيض والسوق المهلل . هذه هي القاعدة العامة أو المقياس العام للغة والشعر ، ثم قسم الألفاظ أقساماً وين ما يستجاد منها وما يستهجن وفيما يأتى تفصيل ذلك :

الغريب

الغرابة تخل بالفصاحة ، وتباعد بين الأسلوب والوصف بالبلاغة ، هذا هو رأى العلماء والنقاد ، وهو رأى العسكري الذي صرّح بأن الغريب لم يكن في كلام إلا أفسده لما فيه من دلالة الاستكراه والتلفظ <sup>(٢)</sup> فالأديب الذي يميل إلى الإغراق في اللفظ أديب ملتوى الحس لا يصدر عن ذوق ، ولا يعبر فيه صاحبه عن طبع ، بل يصرّح بأن الاستعانة بالغريب عجز ، حتى النقاد والرواة الذين يعنيون برواية الغريب لا يرضي العسكري عن مسلكهم .

٥ الصناعتين

٥٩) الصناعتين

فالمفضل الضبي وهو المعروف بحسن الرواية وصحة النقل ، وقد أَكَسَهُ هذا هيبة واحتراماً في نفوس العلماء يعيّب عليه أبو هلال أنه كان لا يختار من الشعر إلا ما يقل تداول الرواة له ويكتشفه الغريب ، وهذا حظه في الاختيار، فكان اختياره فاسداً وعلة هذا الفساد أنه اختار الغريب ، و اختيار الرجل دليل على عقله ، ولم ينجِ الاصماعي وهو الثقة الصدوق من نقد العسكري ، لأنّ هذه الغرابة تناهى الواضح والظهور في معنى البيان ، وإنما الكلام الفصيح هو الذي كانت ألفاظه مألوفة عند الأدباء شعراً وهم وكتابهم لما اتصف به من نعوت الجودة وصفات الجمال .

### الوحشى :

إن العدول عن سلس الألفاظ وسهلاً إلى الوحشى منها بما يقتضيه أبو هلال أشد المقت ، ويعده تعقيداً ويسميه إغلاقاً وتقعيراً يؤدى إلى تغليف الكلام بعضه ببعض حتى يستفهم المعنى ، فزهير بن أبي سلى الجاهلى معيّب لأنّه أورد لفظاً حوشياً هو قوله في المدح :

نقى نقى لم يكتثر غنيمة      بهكة ذى القربي ولا بحقلد  
فاستبشر لفظ (الحقلد) وهو السٰيُّونُ الخلق ، وليس في لفظ زهير  
أنكر منه<sup>(١)</sup> .

أما الطريق في هذا الباب فهو ما زعمه العسكري من أن بعض الأمور قد اعتلت، أمّه فكتب رقاعاً وطرحها في المسجد الجامع بمدينة السلام فيها: صين أمرؤ ورعى دعا لامرأة انقلحة مقصنة قدمنيت بأكل الطرموق فأصابها من أجله الاستعمال أن ين الله عليها بالاطرغشاش والبرغشاش<sup>(٢)</sup> .

---

(١) الصناعتين ٢٢ (٢) انقلحة : هكذا في النسخ ولم تتفق لها على معنى وإنما الذي وجدناه (انقلحة) بالقاف : قحل الشيخ يبس جلده على عظمه فهو قحل —

فكل من قرأ رقعته دعا عليه ولعنه ولعن أمه !  
 ويصف العسكرى بالجهل قوماً صاروا لا يستجيدون الكلام إلا إذا  
 لم يقفوا على معناه إلا بكم ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كثرة غلبة  
 وجاسية غريبة، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلساً عند بأو سهلاً حلواً؛ ولم  
 يعلموا أن السهل أمنع جانباً وأعز مطلبًا وهو أحسن موقعًا، وأعذب مستمعاً  
 ولهذا قيل أجود الكلام السهل المتع .. . وقيل للسيد إلا تستعمل الغريب  
 في شعرك ، فقال ذلك عيّن في زمانه ، وتكلف مني لو قلته ! وقد رزقت  
 طبعاً واتساعاً في الكلام فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير ، ولا يحتاج إلى  
 تفسير ، ثم أشد :

أيا رب إني لم أرد بالذى به مدحت علياً غير وجهك فارح  
 فهذا كلام عاقل يضع الشيء موضعه، ويستعمله في إبانه . ليس كمن قال:  
 جفخت وهم لا يجفخون بها بهم

فأشئت عدوه بنفسه (١)

لم يعرف أبو هلال الحوشى أو الوحشى ، ومعناه اللغوى الغامض من  
 الكلام (٢) . وعرفه الآمدى فقال : هو الذى لا يتكرر كثيراً في كلام العرب  
 فإذا ورد ورد مستهجناً (٣) . وقد يعيننا تعريف الآمدى للوحشى على التفريق  
 بينه وبين الغريب ، فالغريب ما خفى معناه لأنه ليس من لغة العصر الذى

بالفتح وككتف وانقلب كجرد حل (قاموس ج ٤ ص ٣٦) مقصئنة : عجوز .  
 منيت : أصييت . الطرموق : الطين . الاستعمال : الإسهال . الاطرغشاش : التهائى  
 من المرض فعله اطرغشن . الابلال من المرض ، قال الجاحظ : ولو خاطب  
 أحد الأصمى بمثل هذا الكلام لظننت أنه سيجهل بعضه (صناعتين ٢٢)

(١) الصناعتين ٦١ (٢) القاموس ج ٢ ص ٢٧٠ (٣) الموازنة ١٢٥

تواضع عليها الأدباء، وليس لغة أو ساط الناس فإذا ورد لم يفهم معناه يسر وسهولة ، وقد يتسرى الفهم باستشارة خبير من العلماء أو الرجوع إلى معجم معاجم اللغة . وهو لهذا يعوق القارئ أو السامع من متابعة اللذة الفنية التي يجدها في الأثر الأدبي . أما الحوشى فإن استبعاده ناشئ مما فيه من تقلل في الحروف التي بنيت منها الكلمة فإذا نطق نطق مستكرها . ولذلك لم يتكرر في كلام أصحاب اللغة، وإنما نطقه أحلافهم فإذا سمعه غيرهم كرهوه واستهجنوه ولعل من أوضض الأمثلة للحوشى أو الوحشى العكر قول ابن جحدر :

حلفت بما أرقلت حوله هم جلة خلفها شيطهم  
وما شبرقت من تنوفية بها من وحى الجن زيزيم<sup>(١)</sup>  
ونستطيع أن نوجز القول في التفريق بينهما فنقول : إن الغريب عييه  
في معناه والمحوشى عييه في لفظه .

والأقدمون - و منهم العسکری - لم يفرّقا بين الحوشی والغريب خلطاً  
بینهما . ألسنت تراه يقول : غالب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام  
إذا لم يقفوا على معناه إلا بـكـد ( وهذا نعم للغريب ) ثم يقول ويستصحـونـه  
إذا وجدوا ألفاظـهـ كـزـةـ غـلـيـظـةـ وجـاسـيـةـ . . . ( وهذا نعمـ للـحـوشـيـ ) و تراه  
يسـتـدـلـ عـلـىـ رـأـيـهـ فـيـ الـحـوشـيـ بـقـولـهـ : وـقـيلـ لـالـسـيـدـ أـلـاـ تستـعـمـلـ الغـرـيبـ فـيـ شـعـرـكـ ؟

مشك

ومن الألفاظ ما تعدد معناه وهو المشترك ، فإذا أراد الأديب الإبادة عن معنى من المعانى فأئى بـألفاظ لا تدل عليه خاصة بل تشتراك معه فيه معانٍ آخر فلا يعرف السامع أيها أراد فربما استبهم الكلام في نوع من هذا الجنس

(١) أرقلت أسرعت . والهمم جلة الناقة النجيبة . والشيمط الفتى من الإبل والناس  
والشقرة عدو الدابة . والتنوفية الفلاة . وزيزيرزم حكاية أصوات الجن .

حتى لا يوقف على معناه إلا بالتوهم فذلك ما يخل بفصاحة الكلام .

فقول جرير :

نو كنت أعلم أن آخر عهدمك يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل  
من المشترك الذي يستفهم به الكلام ووجه الاشتراك في هذا  
أن السامع لا يدرى إلى أي شيء أشار من أفعاله في قوله ما لم أفعل : أراد  
أن يكى إذا رحلوا ؟ أو يهم على وجهه من الفم الذي لقاه ؟ أو يتبعهم إذا  
ساروا ؟ أو يمنعهم من الماضى على عزمه الرحيل ؟ أو يأخذ منه  
 شيئاً يتذكّرهم به ؟ أو يدفع إليهم شيئاً يتذكّرون به ؟ أو غير ذلك مما  
يجوز أن يفعله العاشق عند فراق أحبه ، فلم يُبَيِّن عن غرضه وأحوج  
السامع إلى أن يسأله عما أراد فعله عند رحيلهم . وليس هذا كقولهم  
(لو رأيت علياً بين الصفين ) لأن دليل البساطة والنكالية في هذا الكلام بين  
وأمارة النقصان في بيت جرير واضحه ، فمن لم يسمعه إن لم يكن من أهل  
البلاغة يستبرده ويستغشه ويسترجع الآخر ويستعيده .

ومثله قول سعد بن مالك الأزدي :

إإنك لو لاقيت سعد بن مالك لللاقيت منه بعض ما كان يفعل  
فلم يُبَيِّنَ عما أراد بقوله : أخيراً أراد أم شرآ ؟ إلا أن يسمع ما قبله  
أو ما بعده فيتبين معناه ، وأما في نفس البيت فلا يتبيّن معزاه<sup>(١)</sup> ، ونقد  
الشعر على هذه الصورة ما يوافق رأى أبي هلال في أن « التضمين » وهو  
افتقار البيت إلى ما قبله أو بعده من عيوب الشعر ، ولنا فيه قول نذكره  
فيما بعد ، وعلى هذا لا يكون العيب في هذا البيت آتيا من جهة الاشتراك  
في معنى اللفظ ، بل من افتقاره إلى غيره من الآيات .

(١) كتاب الصناعتين ٣٥ .

نظر العسكري إلى لغة الأدب وألفاظ المختارة الجديرة بالقبول نظره العالم ذي الحس المرهف والذوق البارع قادر على التمييز بينها والتبنّه إلى الجدير بالاختيار منها ، واتبع لذلك سيل التقسيم العلمي فجعل الألفاظ سهلة وجزلة ، ولكنّه كغيره من العلماء الذين لا يعنون بتحديد مدلول الألفاظ لم يحدد كلاً منها التحديد الصريح الذي يستقل به ويميزه من غيره ، وإن كان في الأمثلة التي مثل بها ما يكفي للفرق بينهما بالذوق والنظر الفاحصة . إن أعلى ضروب اللفظ عند أبي هلال الجدير بالاحتداء هو السهل

المطبوع الجيد أو السهل الممتع . والأدب المقدّر على تأليف هذه الألفاظ

السهلة العذبة هو الأدب المطبوع سوام أكان شاعراً أم ناثراً . فعمرو بن مسعدة أبلغ الناس ، ودليل بلاغته أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كتبه ، لما يجد فيها من اليسر فإذا رأها تعذر عليه .

والعباس بن الأخفف أشعر الناس في هذه الآيات :

إليك أشكو ربّ ما حلّ بي من صد هذا التائه المعجب  
إن قال لم يفعل وإن سيل لم يبذل وإن عותب لم يعتب  
صب بعصياني ولو قال لي لا تشرب البارد لم أشرب  
فهذا شعر حسن المعنى ، سهل اللفظ ، عذب المستمع ، قليل النظير ،  
عزيز التشبيه ، يمتع يمتع ، بعيد مع قربه ، صعب في سهولته<sup>(١)</sup> ... هكذا  
وصفة أبو هلال ، وهكذا وصفه أبو أحمد .

ومن أمثلة النثر السهل اللفظ الذي يدل على طبع م الواقع به على بن عيسى : قد بلّغتك أقصى طلبتك ، وأنلتك غاية بغيتك ، وأنت مع ذلك تستقل

(١) كتاب الصناعتين ٦٠ .

كثيرى لك ، و تستحب حسنى فيك ، فأنت كما قال رؤبة :  
 كالحوت لا يكفيه شيء يلقمه يصبح ظمآن وفي البحر فه  
 على أن هذا السهل قد يصبح مرسولاً مرسوداً ، إذا كان معناه مكتشوفاً  
 بينما فليست سهولة اللفظ وحدتها مقاييس القبول عند العسكري ، وإنما هي السهولة  
 المقترنة بقوة المعنى . وقد نجده هنا يخفف من غلوائه في تقدير اللفظ  
 وجعله مدار البلاغة كمارأينا فيها سبق . فقول الشاعر :

يا رب قد قلْ صبرى	وضاق بالحب صدرى
واشتند شوقى ووجدى	وسيدى ليس يدرى
مغفل عن عذابى	وليس يرحم ضرى
إن كان أعطى اصطبارا	فلست أملك صبرى
أنا الفدا لغزال	دنا فقبل نحرى
وقال لي من قريبٍ	ياليت بيتك قبرى !

من هذا الردىء المرذول ، وليس فيه مع سهولة خير ، لاسيما إذا ارتكب  
 فيه مثل هذه الضرورات .

يؤكد العسكري نفوره من هذا الأسلوب ، ويشترط في السهل المقبول  
 أن يكون بريئاً من الغثاثة ، عاريًّا من الرثاثة ، والكلام إذا كان عنا  
 ومعرضه رثا كان من المردود ، ولو اشتمل على أجل معنى وأبله وأرفعه  
 كقول الشاعر :

لما أطعناكم في سخط خالقنا	لا شك سل علينا سيف نقمته
---------------------------	--------------------------

وقول الآخر :

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا	وما أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما اس	تعنى الملوك بدنياهم عن الدين

لا يدخل هذا في جملة المختار و معناه كاترى نبيل فاضل جليل<sup>(١)</sup> وقد  
تَسْأَلُ عَنْ مَوْضِعِ النِّبْلِ وَالْفَضْلِ فَلَا تَجِدُ لَهُ أثْرًا إِلَّا مَافِيهِ مِنْ وَعْظٍ وَإِرْشَادٍ،  
وَهُوَ فِي الْحَقِّ مَعْنَى عَمَى لِيْسَ لَهُ حَظٌ مِنَ الْأَصَالَةِ وَالْابْتَكَارِ .

وَكَمَا يَكُونُ السَّهْلُ الْجَيْدُ مَقْبُولًا ، يَكُونُ الْجَزْلُ مَقْبُولًا ، وَمَقْيَاسِ  
الْجَوَدَةِ فِي الْجَزْلِ أَنَّ الْعَامَةَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْرِكَهُ وَتَقْفِي عَلَيْهِ مَعْنَاهُ وَإِنْ كَانَتْ  
لَا تَسْتَعْمِلُهُ فِي حَمَاوِرَاتِهَا ، وَمِنْهُ قَوْلُ مُسْلِمَ بْنِ الْوَلِيدِ :

وَرَدَنْ رَوَاقُ الْفَضْلِ فَضْلُ بْنُ خَالِدٍ فَخْطُ الثَّنَاءِ الْجَزْلُ نَائِلُهُ الْجَزْلُ  
بِكْفِ أَبِي الْعَبَاسِ يَسْتَمْطِرُ الْغَنِيُّ وَيَسْتَرْعِفُ النَّصْلُ  
وَيَسْتَعْطِفُ الْأَمْرُ الْأَبْيَّ بِحَزْمِهِ إِذَا الْأَمْرُ لَمْ يَعْطُهُ نَقْضٌ وَلَا فَلْتُ  
وَمَا هُوَ أَجْزَلُ مِنْ هَذَا قَوْلُ الْمَارِ الْفَقِيْسِيِّ :

فَضْلٌ يَدِيرُ الْمَوْتَ فِي مَرْجِحَتَهِ تَسْفِيَةُ الْعَوَالِيِّ وَسَطْهَا وَتَشُولُ  
وَكَانَ تَرَكَنَا مِنْ كَرَامَتِ مَعْشَرِ لَهُنَّ عَلَى أَيَّامِهِنَّ عَوْيِلٌ  
عَلَى الْجَرَدِ يَعْلَكُنَ الشَّكِيمَ كَأَنَّهَا إِذَا نَاقَلَتْ بِالْمَارِعِينَ وَعَوْلَ<sup>(٢)</sup>  
فَهُذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِ الْعَامَةِ فَإِنَّهُمْ يَعْرُفُونَ الْغَرْضَ فِيهِ ، وَيَقْفَوْنَ  
عَلَى أَكْثَرِ مَعَانِيهِ .

وَلَقَدْ مَثَلَ أَبُو هَلَالَ لِلْجَزْلِ الْمُخْتَارِ مِنَ النَّثَرِ بِقَوْلِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ :  
أَعْطَانَا الدَّهْرَ فَأَسْرَفَ ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْنَا فَعَسْفَ . وَقَوْلُ سَعِيدَ بْنِ حَمِيدٍ :  
وَأَنَا مِنْ لَا يَحْاجِجُكَ عَنْ نَفْسِهِ وَلَا يَغَالِطُكَ عَنْ جَرْمِهِ ، وَلَا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ  
إِلَامِنَ جَهَتِهِ ، وَلَا يَسْتَدِعِي بِرَبِّكَ إِلَامِنَ طَرِيقَتِهِ ، وَلَا يَسْتَعْطِفُكَ إِلَامِنَ إِلَاقَرَارِ  
بِالذَّنْبِ ، وَلَا يَسْتَمِيلُكَ إِلَامِنَ الْاعْتَرَافِ بِالْجَرْمِ .

(١) كتاب الصناعتين ٩٧ . (٢) المرجحة : المتالية الثقيلة . تشور : تفرق .  
المناقلة : ضرب من السير . الدارعون : المتقدمون في السير .

هذا ما ماثل به العسكرية ، وعندى أن مثالى النثر ليسا من الجزالة في شيء بل هما أجدر أن يكونا من السهل المطبوع .

والحق أن مفهوم الجزالة غير واضح وغير محدود ، فإن أبو هلال وغيره من العلماء لم يبينوا لنا حدود هذه الجزالة ، وإنما الذى رأينا أنه يذكرونها مقابلة السهولة والسلاسة ، والمقابل للسهولة الصعوبة والتعقيد ، فإن كان ذلك الذى يريد أبوهلال فإننا لانرى في مثالى النثر شيئاً من المسر والتعقيد ، والعامة يفهمون مدلول هذه اللفاظ من غير استكراه ويستعملونها في حماوراتهم من غير عناء ولا عناء .

والمعنى اللغوى للجazel الخطب اليابس أو الغليظ منه .. والجazel خلاف الركيك من اللفاظ<sup>(١)</sup> . ولعل هذا المعنى منقول عن المعنى الأول . ولعل هذا المعنى أيضاً (الجazel خلاف الركيك من اللفاظ) هو الذى ذهب إليه العسكري في تقسيمه، بدليل أنه جمع الجزالة والسهولة في وصف الكلام الجيد حين قال : وأجدد الكلام ما كان جزاً سهلاً لا ينغلق معناه ولا يستقيم مغزاه .

على أن هذا الجazel قد يحول بخا بغيضاً إذا كان تميز اللفاظ يحتاج إلى

جهد ومشقة وإذا كان قبيح الرصف فاسد النسج كقول تأبط شرا :

إذا ما تركت صاحبى لشلة	أو اثنين مثلينا فلا أبت آمنا
ولما سمعت العَوْض تدعى تنفرت	عصافير رأسى من نوى فعواينا
وتحثشت مشعوف الفؤاد فراعنى	أناس بفيغان فزت القرابينا
فأدبرت لا ينجو نجائب نفق	يبار فرخيه شمالة وداجنا
من الحص هزروف يطير عفاؤه	إذا استدرج الفيء مدّ المغابنا

(١) انظر القاموس ج ٢ ص ٣٤٨ .

# أزج زلوج هزرفى زفازف هزف ييد الناجيات الصوافنا<sup>(١)</sup>

\*\*\*

هذه المقايس التي فصلناها تتصل باللغة المفردة ، وهناك مقاييس  
المترافق في مجموعها منها :

١ - حروف الوصل والربط : يجب أن تتجنب إعادة حروف  
الصلات والرباطات في موضع واحد فن المعيّب أن يكتب مثل قول القائل :  
منه له عليه . أو عليه فيه . أو به له منه . وأخلفها له عليه . وسيله أن تداويه  
حتى تزيله بأن يفصل ما بين الحرفين ، مثل أن تقول : أفت به شهيداً عليه .  
ولا يعرف العسكري أحداً كان يتبع العيوب فيها غير مكترث إلا المتنبي  
فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام حتى تخلي إلى هذا النوع فقال :  
ويسعدني في غمرة بعد غمرة سبوج لها منها عليها شواهد  
فأقى من الاستكراه بما لا يطار غرابة<sup>(٢)</sup> .

---

(١) العوض : قبيلة من العرب (بالضاد أو الصاد) . وعصافير الرأس : قطع  
في مقدمة الدماغ . عواينا : يعني الاستضعفاف . الفيفان : موضع بالبادية . والقرابين :  
جبال معروفة مقتربة ويروى البيت :

وحجحت مشغوف التجاء وراغنى أناس بقیمان فرت القرابين  
التفنق الظليم وهو ذكر النعام . الحص شدة العدو . المهزروف اسم الظالمين ،  
العفاء الغبار . الفيفاء المفارزة التي لاماء فيها مع الاستواء والاسعة . المفابن بواطن  
الأنفاذ عند الحوالب . الأزج السرع في مشيته ومثله الزلوج . المهزراف الخفيف  
السريع . المهزف : الجاف من الظلمان أو الطويل الريش . البد السبق .

(٢) الصناعتين ١٥٣ .

٢ - السجع والازدواج : وإذا كان العسكري من المولعين الولوع  
كاه بالصناعة اللفظية فقد أدى به هذا الولوع إلى أن يجهد نفسه فيخترع  
بعض المحسنات البدعية ، وليس يعنيها هنا الآن إلا أن نسجل أن العسكري  
يتحمل هذه الصناعة مقاييسه في الحكم على الكلام بالجودة . ونشير هنا إلى  
مقاييس جديد جعل له العسكري من الاعتبار ما يفوق كل تقدير ، وذلك  
هو الازدواج الذي عقد له بابا مستقلا عن صنوف البدع ، ورأى أن  
مثُور الكلام لا يحسن ولا يخلو حتى يكون مزدواجا ولا تكاد تجد لبليلغ  
كلاما خلا من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن ،  
لأنه في نظمته خارج عن كلام الخلق ، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل  
في أوساط الآيات ، فضلا عما تراوحت من الفواصل منه ، كقول الله تعالى :  
( الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ) وقوله  
تعالى ( ولستم بأذنيه إلا أن تغمضوا فيه ) وأما ما زووج به الفواصل  
 فهو كثير ، مثل قوله تعالى ( فأما اليتيم فلا تقهروه وأما السائل فلا تهراه ).  
وكذلك السجع له من الاعتبار ما للازدواج والذي يجعله مقبولا  
ويجعل الكلام به ممتازاً أن يبعد عن التكلف والتصرف ، حتى لا يكون سجع  
الكبان الذي ذمه الرسول عليه السلام ، لا السجع المطبوع الوارد في  
الكتاب الكريم وحديث النبي <sup>(١)</sup> .

واعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها  
مزدوجة فقط ولا يلزمك فيها السجع فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن

(١) كتاب الصناعتين ٢٥١-٢٥٢-٢٥٣ . هذا وقد ذكر أبوهلال في مقدمة  
الصناعتين أنه جعل السجع والازدواج فصلين ، ولكنهما فيما بين أيدينا فصل واحد .  
دمج الكلام عليهما معاً ، وقد ذكر الثاني قبل الأول .

ما لم يكن في سمعك استكراه وتنافر وتعقيد ، وكثيراً ما يقع ذلك في السجع ،  
وقلما يسلم إذا طال من استكراه وتنافر .

### ٣ - الإيجاز والإطناب :

ال العسكري لا يحذد الإطناب مطلقاً ولا الإيجاز مطلقاً ، بل أورد حجة كل من أنصار الفريقين :

قال أصحاب الإيجاز : الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة ، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل يدخل في باب المهر والخطل ، وهو ما من أعظم أدوات الكلام ، وفيما دلالة على بلادة صاحب الصناعة ، وفي تفضيل الإيجاز يقول جعفر بن يحيى لكتابه : إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فاعلوا ، وقال بعضهم : الزيادة في المذنّقان ، وقال محمد الأمين : عليكم بالإيجاز فإن له إفهاماً وللإطالة استهاماً ، وقال شبيب بن شبة : القليل الكافي خير من كثير غير شاف ، وقال آخر : إذا طال الكلام عرضت له أسباب التكلف ، ولا خير في شيء يأني به التكلف ، وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال : الإيجاز ، قيل : وما الإيجاز ؟ قال حذف الفضول وتقريب البعيد . . .

قال أصحاب الإطناب : المنطق إنما هو بيان ، والبيان لا يكون إلا بالإشاع ، والشفاء لا يقع إلا بالإقناع ، وأفضل الكلام أبينه ، وأبينه أشدّه إحاطة بالمعنى ، ولا يحاط بالمعنى إحاطة تامة إلا بالاستقصاء ، والإيجاز للخصوص ، والإطناب مشترك فيه الخاصة وال العامة ، والمعنى والقطن والريض والمرتاض . . .

وبعد هذا العرض الأدبي الممتع ، يقول الرأى الفصل في هذا الموضوع الذي أعاشه العلام ، وأبغز البلغاء ، وهو أن القصد أن الإيجاز والإطناب يحتاج إلىهما في جميع الكلام ، ولكل واحد منها موضع فالحاجة إلى

## الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه .

لم يكن في استطاعة أبي هلال أو غيره أن يقول خيراً مما قال ، ولا أن يستخلص مقاييسأً عاماً ثابتاً ، أو حداً جاماً مانعاً .. فإن ذلك أقرب إلى الاستحالـة في هذا الباب ، ذلك أن هذه الأحكـام أو تلك المقاييس مبنية على استقراء الأدب ، واستنباط المقاييس منه ، وفي هذا الأدب ، بل في الجيد منه وفي عيونه المختارـة شواهد من الإطنـاب ، وأدلة للإيجاز ، وكلها رائقـة معجب يأخذ بمجـامـع القـلـوب ، بل إن القرآن الكريم وهو المثل الأعلى للأسـاليـب ، قد نوعـ بين طـرفـ الإيجاز والإطنـاب .

وهذا الخلاف بين الأدباء في سلوك أحد السبيلـين مرجعـه إلى العـامل النفـسي ، وخصـائـص الشـخصـية ، فالـأـدـبـ المـوجـزـ في طـبعـهـ الدـقـةـ والـتحـفـظـ والـحـزمـ ، والـأـدـبـ المـطـبـ في طـبعـهـ سـماـحةـ وـسـلاـسـةـ تـدـفـعـهـ إـلـىـ التـدـفـقـ والـإـغـزـارـ ، فـاـنـ المـقـفـعـ مـثـلـاـ فـيـ الـحـفـاظـ الـعـقـلـيـ ، بـسـبـبـ الـأـفـكـارـ الـدـقـيقـةـ وـالـقـاـفـةـ الـعـلـمـيـةـ الـتـيـ اـجـتـمـعـتـ لـدـيـهـ ، وـمـنـ هـنـاـ كـانـ أـسـلـوـبـ الـمـوجـزـ الـذـيـ يـحـتـرـمـ بـالـإـشـارـةـ الـدـقـيقـةـ وـالـلـمـحـةـ الـدـالـلـةـ ، أـمـاـ الـمـاحـظـ فـإـنـ خـفـةـ رـوـحـهـ وـسـلاـسـةـ طـبعـهـ وـسـماـحةـ نـفـسـهـ وـعـقـلـهـ ، كـلـ أـوـانـكـ أـطـلـقـ الـعـنـانـ لـقـلـمـهـ ، فـبـسـطـ القـولـ وـأـطـبـ فـيـ التـعـيـيرـ . وـخـلـاصـةـ القـولـ أـنـ الـأـسـلـوـبـ هـوـ الرـجـلـ ، وـمـرـجـعـ اختـلـافـ الـأـسـالـيـبـ هـوـ فـيـ الـحـقـيقـةـ اختـلـافـ الـعـقـولـ الـتـيـ تـسـلـطـ عـلـىـ الـأـلـسـنـةـ وـالـأـقـلـامـ !

لقد وجد العـلـمـاءـ وـالـبـلـاغـيـونـ أـنـقـسـهمـ بـيـنـ هـذـهـ الـآـثارـ الـأـدـبـيـةـ الـمـتـبـاـيـنةـ الـمـعـجـبةـ ، فـلـمـ يـسـتـطـعـوـ أـنـ يـقـولـواـ أـحـسـنـ مـاـ قـالـ أبوـ هـلـالـ : إـنـ إـلـىـ إـلـيـجاـزـ وـإـلـىـ طـنـابـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـاـ فـيـ جـمـيعـ الـكـلـامـ .. وـالـحـاجـةـ إـلـىـ إـلـيـجاـزـ فـيـ مـوـضـعـهـ كـالـحـاجـةـ إـلـىـ إـلـيـطاـبـ فـيـ مـوـضـعـهـ ، وـلـعـلـمـ فـيـ الـحـقـيقـةـ يـرـيدـونـ : حـسـنـ

من البليغ كل ما يأتى به ! والدليل على ذلك أن يحيى بن خالد بن برمك أمر اثنين أن يكتبَا كتاباً في معنى واحد ، فأطال أحدهما واختصر الآخر ، فقال للمختصر وقد نظر في كتابه : ما أرى موضع مزيد ، وقال للمطيل : ما أرى موضع نقسان !

وقد ألحق بالبحث بحث يتصل بالأدب وهو ذكر الموضع التي يحسن فيها الإطناب ..

(١) في الكتب والرسائل الديوانية : فلا شك أن الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة والفتح الجليلة وتفخيم النعم الحادثة والتغريب في الطاعة والتهى عن المعصية سببها أن تكون مشبعة مستفقة على تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب .

(٢) في المواقع : كقول الله تعالى ( أَفَمِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا يَاتَا وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوْ أَمْنِ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا ضَحِي وَهُمْ يَلْعَبُونَ . أَفَمُنَا مَكْرُ اللهِ فَلَا يَأْمُنْ مَكْرُ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ) فتكرير ما كفر به هنا في غاية حسن الموضع .

(٣) في خطب الصلح بين العشائر .

(٤) في إنشاد الشعر في مدح الملوك .

° ° °

نستطيع بعد ذلك أن نجمل المقاييس التي وضعها أبو هلال للألفاظ المفردة وللتراكيب فيها يأتى :

(١) المختار من الكلام ما كان سهلاً جزلاً لا يشوبه شيء من الكلام الحوشى ولا ينحدر إلى لغة العامة .

(٢) ينبغيبعد عن كل ما يستفهم به المعنى ، وأن تكون الألفاظ

نصاً في الدلالة على المعنى المراد ، وأن تتجنب الألفاظ المشتركة التي تحمل المعنى وغيره .

(٣) تجنب الألفاظ وتنقيحها وإبدال بعضها من بعض حتى يلتسم الكلام ضرورة لابد أن يحفل بها الأديب المجيد ، ومن علامات إجادته أن تكون الألفاظ من حروف سلة الخارج .

(٤) ذكر الأسماء البغية في الشعر تفسده وإن كان جيداً ، وقد أنسد جرير بعض ملوك بني أمية :

وتقول بوزع قد دَبَّتْ على العصا هلا هزنت بغيرنا يا بوزع ؟  
قال له الملك : أفسدتها ببوزع ، وقد يستهجن هذا في غير الشعر ،  
بل هو مستهجن في لغة التخاطب .

(٥) يصبح الكلام بتكرار اللفظ الواحد في كلام قصير .

(٦) ينبغي ألا يعدل الأديب عن جهة الاستعمال ، لأن الخروج عن الطريقة المسلوكه والنهج المعروف ردي . على كل حال ، وقد ضرب مثلاً لهذا الخروج بما يأتي :

(١) من الألفاظ ما يستعمل رباعيه وخماسيه دون ثلاثة ، ومنها ما هو بخلاف ذلك . فيجب ألا يعدل عن وجه الاستعمال ولا يغير الأديب أن أصولها مستعملة . ومن ذلك أن الناس يستعملون (التعاطي) فيكون منهم مقبولاً ولو استعملوا (العطو) وهو أصل الكلمة وهو ثلثي ، والثلثي أكثر استعمالاً لما كان مقبولاً ولا حسناً . ولهذا المقياس الذي رأه أبو هلال أثر سوء في تضيق نطاق اللغة ، ذلك أن الألفاظ محدودة والمعنى غير محدودة ، ويحيى العسكري فيزيدها تحديداً وتضييقاً ، ولا يخفى أن الكلمات تتفاوت معانها بالزيادة وإن كانت أصولها واحدة .

(ب) ومن الألفاظ ما إذا وقع نكرة قبح موضعه، وحسن إذا وقع معرفة ، فلو خولف وجه الاستعمال في ذلك فاستعمل النكرة في مقام المعرفة أو المعرفة مكان النكرة قبح ذلك وفسد به الكلام كقول بعضهم :

لما التقينا صاح بين<sup>٩</sup> بيتنا يدنى من القرب البعاد لحافا

فقوله (صاحب بين بيتنا) متلكف جداً . ولو قال (البين) كان أقرب على أن البيت كله ردئ وليس من رصف البلغاء .

ونحن نرى في هذا المقياس تضييقاً لا معنى له . ولللفظ إذا كان من حروف سهلة الخارج لأن على اللسان وحسن في السمع وعد في ذاته فضيحاً . وإنما ينبغي أن ينظر في تقدير اللفظ . بعد ذلك إلى موضعه من التركيب الذي بين فيه استساغته أو تناهيه وقلقه . ألسنت ترى اللفظ يحسن في موضع ويقبح في موضع بحسب مكانه من التركيب . ولقد عقد عبد القاهر فصلاً في هذا الموضوع في كتابه دلائل الإعجاز يدل على فهم وتدوّق ، وهو يرى أن الكلمة تروق وتؤنس في موضع ، ثم تراها بعينها تتقل عليك وتوحشك في موضع آخر ، فإنه تجده متى شئت الرجالين قد استعملوا كلما بأعينها ثم ترى هذا قد فرع السماك ، وترى ذلك قد لصق بالحصىض . فلو كانت الكلمة إذا حست حست من حيث هي لفظ ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم ، لما اختلف بها الحال ولن كانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً<sup>(١)</sup> .

فإن يكن في نظم هذا البيت الذي استشهد به العسكري قبح ، فإن هذا القبح لم يأت من سبيل تنكير الكلمة (البين) وإنما جاء من مجاورتها لكلمة

---

(١) دلائل الإعجاز ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

( ييننا ) خدث هذا التنافر الملحوظ في البيت .

(٧) يجب أن يوضع كل لفظ موضعه ، وأن ترتب الألفاظ ترتيباً صحيحأً فيقدم منها ما يحسن تقديمها ، ويؤخر ما يحسن تأخيره ، ولا يقدم منها ما يكون التأخير به أحسن ، ولا يؤخر منها ما يكون التقديم به أولى . فما أفسده سوء ترتيب ألفاظه قول بعضهم :

يضحك منها كل عضو لها من بهجة العيش وحسن القوام  
ترفل في الدار لها وفرة كوفة الملاط الخالص الغلام  
كان ينبغي أن يقول (كوفة الغلام الملاط الخالص) أو (الغلام الخالص  
الملاط) فاما تقديم الصفة على الموصوف فردئ في صنعة الكلام .

(٨) الكلام الجيد ما يجتب فيه ارتكاب الضرورات وإن جامت فيها رخص من أهل العربية فإنها قبيحة ... وإن كان القدماء قد وقعوا في شيء منها فذلك لعدم علمهم بقياحتها ، أو بسبب الارتجال لأن بعضهم كان صاحب بداية ، والبداية مزلة ، ولأن أشعارهم لم يتعرض لها النقاد كثيراً ، ولو قد نقدت وبهرج منها المعيب كما تتقد على شعراء هذه الأزمنة وبهرج من كلامهم ما فيه أدنى عيب لتجنيبوها .

(٩) الشاذ ليس للمحدث أن يقيس عليه ، ولا أن يتخذ منه حجّة فإنه لا يعذر في شيء منه ، لاجتماع الناس اليوم على مجانية أمثاله واستجادة ما يصح من الكلام واسترذال ما يشكل ويستبهم .

## المعانى

المسكرى من الأولين الذين فطنوا إلى التجديد والتقليد ، وفرقوا بين الابداع والاباع ، فقسم المعانى قسمين :

١ - ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدى به

فيه ، أو رسوم قائمة في أمثلة عائلة يعمل عليها .

وقد يعرض هذا الضرب للشاعر عند الخطوب الحادثة ، ويتيشه عند الأمور النازلة الطارئة . . . وأبو هلال يتنهى هنا إلى العامل النفسي ، وأثر الانفعال في ابتكار المعانى ، وتلك لفتة طيبة سابقة نسجلها للرجل .

٢ — أما الضرب الثاني فهو التقليدي ، الذى يحتذى على مثال سبق ورسم فرط .

وهو لا ينكر لأحد الضربين بل يضع مقاييسا لاستحسان كل منهما وهو اشتراط الإجادة فيما ، والإصابة في توخي الصورة المقبولة والعبارة المستحسنة ، ولا يتكل المبتكر فيما يبتكر على فضيلة الابتكار ولا يغرن أنه مبتدع ، وفي هذا إشارة إلى ضرورة لزوم الصناعة في الصياغة والتألق في اختيار الألفاظ والأساليب ليوافق مذهبه الذى فرط .

### الغلو

لا ينكر العسكري الغلو ، بل يرضاه ويستحسن بمحاراة لاستاذه قدامة ابن جعفر الذى يفضل الغلو على الاقتصار على الحد الوسط ، وبعد الغلو أجود المذهبين ، وقدامة أيضاً يتابع المعلم الأول (أرسسطو) في هذا الرأى .

مثل العسكري للغلو في المعانى بقول الطمحان مولى بن أبي السبط :

فَى لَا يبالي المدلجون بنوره      إِلَى مَا بِهِ أَلَا تضىءُ الكواكب  
لَهْ حاجب عن كُلِّ أَمْرٍ يشينه      وَلَيْسَ لَهُ عَنْ طَالِبِ الْعِرْفِ حاجب

وردد قول القدامى : أمدح بيت قالته العرب قول الأعشى :

فَى لَوْ يَنَادِي الشَّمْسُ أَلْقَتْ قَناعَهَا      أَوْ الْقَمَرُ السَّارِي لِأَلْقَى الْمَقَالَدَا  
قَالَ : وَهَذَا وَقُولُ أَبِي الطَّمْحَانِ مِنَ الْغَلُو ، وَالْغَلُو عِنْدَ بَعْضِهِمْ مَذْمُومٌ  
وَلَيْسَ كَذَلِكَ ! وَلَوْ كَانَ مَذْمُومًا لَمَا جَعَلُوا هَذِينَ الْبَيْتَيْنِ مِنْ أَمْدَحِ مَا قَالَتْ

العرب ، وهم من الغلو على ماهما عليه . ومن الغلو قول طريح بن اسماعيل :  
أنت ابن مسلط طاح ولم يضرك الحنى والوح<sup>١</sup>  
لو قلت للسيل : دع طريقك والـ سـيـلـ  
لا ارتد أوساخ أو لكان له فـيـجـابـ الـأـرـضـ عـنـكـ منـعـرـجـ  
وهذا من أعلى الغلو لأن السيل لا ترد وجهه هيبة ولا مخافة ، والعرب  
تقول أجرأ من السيل فيهم ولا يهمز من الجرأة وترك الهمزة من الجرى ،  
ويقال في المثل : لا أفعل كذا حتى يرد وجه السيل !  
ويعاود الرجل ذوقه الفنى الخالص ، فينقد هذا الشعر بأنه ليس مختاراً  
اللفظ والرصف ، وأنه إنما أتى به لكونه من الغلو .  
ومن الغلو المشهور المستفيض الذى قبله الناس واستحسنته ، ورووه  
بكل لسان قول أبي تمام في المعتصم :

يمن أبي إسحق طالت يد العلا  
هو البحر من أي النواحي أتيته  
تعود بسط الكف حتى لو انه  
ولو لم يكن في كفه غير روحه  
وقلت في قريب منه :

ويمـنـ أـبـيـ إـسـحـاقـ طـالـتـ يـدـ العـلـاـ  
فـلـجـهـ الـمـعـرـوفـ وـالـجـوـدـ سـاحـلـهـ  
أـرـادـ اـنـقـبـاصـاـ لـمـ تـطـعـهـ أـنـامـلـهـ  
لـجـادـ بـهـ فـلـيـقـ اللهـ سـائـلـهـ  
وكيف يبيت الجار منك على صدى  
وتراه لا يوجد في هذا المقام كما رأيت علة استحسانه الغلو بغير  
استحسان العرب لأمثال هذه النصوص التي أوردها ، وقد سبقه إلى هذا  
الرأى في تفضيل الغلو قدامة بن جعفر في نقد الشعر<sup>(٢)</sup> بقوله : « إن الغلو  
عندى أجود المذهبين ( الغلو والاقتصار على الحد الوسط ) وهو ماذهب

(١) ديوان المعانى ٤٢ . (٢) نقد الشعر ٥٥ .

إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قد يأتوا . وقد بلغني عن بعضهم أنه قال :  
أحسن الشعر أكذبه ، وكذا نرى الفلسفه اليونانيين في الشعر على مذهب  
لقتهم ، فهذا المذهب متأثر بفلسفه اليونان ذكر ذلك قدامة في صراحة ،  
وإن كان لا يصرح في غير هذا المقام بافتتاحه أثراً لهم واتهاجه منهج صاحب  
«الخطابة» ، و «الشعر» وقد نبه العسكري إلى أن من الناس من يكره  
الإفراط الشديد ويعييه ويذكر الوسيلة التي تجعل الغلو مقبولاً ، وهي أن  
يتحرز المبالغ ويستظرف فيورد شرطاً أو يجيئ بلفظ (يكاد) وما يجري  
بمراها بذلك يسلم من العيب مثل قول الأول :

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنور ليلة القدر  
ومن عيوب الغلو أن يخرج فيه إلى الحال ويشوّهه بسوء الاستعارة  
وقيح العبارة كقول أبي نواس :

توهمتها في كأسها فكأنني توهمت شيئاً ليس يدرك بالعقل  
وصفراء أبيق الدهر مكنون روحها وقد مات من مخمورها جوهر الكل  
فايرتقى التكيف منها إلى مدى تحد به إلا ومن قبله قبل  
فعملها لاتدرك بالعقل وجعلها لأول لها، وقوله جوهر السكل والتكييف  
في غاية التكلف ونهاية التعسف . ومثل هذا من الكلام مردود ، لا يشتعل  
بالاحتجاج عنه له ، والتحسين لأمره ، وهو بترك التداول أولى ، إلا على  
وجه التعجب منه ومن قائله (١) .

### الوحدة

مقاييس الشعر عند العسكري هو وحدة وحدة البيت لا وحدة القصيدة  
فقد عد احتياجاً للبيت إلى ما يبعده ليكمل معناه عيناً من العيوب التي ينبغي أن

(١) الصناعتين ٣٥٥ - ٣٥٦ .

يتجزئها الشاعر وسماه التضمين وقد سبقه قدامة فسماه المبتور، قال : أبو هلال « والتضمين أن يكون الفصل الأول مفترا إلى الفصل الثاني ، والبيت الأول محاجا إلى الآخر كقول الشاعر :

ـ أكان القلب ليلة قيل يُغدِّي بليلي العاشرية أو يراح  
ـ قطاة غرها شرك فبات تجاذبه وقد علق الجناح  
ـ فلم يتم المعنى في البيت الأول حتى أنه في البيت الثاني وهو قبيح .  
ـ ومثاله من النثر قول بعضهم : وجعل سيدنا آخذا بكل مادعي ويدعى به من الأعياد بأجزل الأقسام وأوفر الأعداد<sup>(١)</sup> .

ولست أرى علة العيب عند العسكري وغيره لأن احتياج بعض الكلام إلى بعض لا عيب فيه، ما لم يكن بينهما بعد ينسى علاقة الكلام ببعضه البعض والقول الصواب ما قال ابن الأثير : لأنه إن كان سبب عيده أن يعلق البيت الأول على الثاني فليس ذلك بسبب يوجب عيدها، إذ لا فرق بين البيتين من الشعر في تعلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنثور في تعلق إحداهما بالآخر ، لأن الشعر هو كل لفظ موزون متفق دل على معنى، والكلام المسجوع هو كل لفظ متفق دل على معنى، فالفرق بينهما يقع في الوزن لاغير . والفرق المسجوعة التي يرتبط بعضها ببعض قد وردت في القرآن الكريم في مواضع منه . فلن ذلك قوله عز وجل في سورة الصافات ( فأقبل بعضهم على بعض يتسللون . قال قائل منهم إني كان لي قرين . يقول أنتك لمن المصدقين . أئنا متنا وكنا ترابا وعظالاما أئنا لمدينون ) فهذه الفقرة الثلاث الأخيرة مرتبطة بعضها ببعض فلا تفهم واحدة منها إلا بالتي تليها . وهذا كالآيات الشعرية في ارتباط بعضها ببعض ، ولو كان عيدها لما ورد في كتاب الله عز وجل . وما ورد من ذلك شرعاً قول بعضهم .

---

(١) الصناعتين ٣٧

ومن البلوى التي ليد س لها في الناس كنه  
أن من يعرف شيئاً يدعى أكثر منه  
وقد استعملته العرب كثيراً وورد في شعر خوفل شعراهم ، فن ذلك  
قول امرئ القيس :

فقلت له لما تطى بصلبه  
ألا أنها الليل الطويل ألا انجل  
بصبع وما الإ صباح منك بأمثل<sup>(١)</sup>  
إطالة :

قوه الكلام بقوه نظمه وعما رصفه لا بكثرة لفظه ، والمعانى التي تنشأ  
الكتب فيها من الأمر والنهى سببها أن توکد غاية التوكيد بجهة كيفية نظم  
الكلام ، لا بجهة كثرة اللفظ<sup>(٢)</sup> .

ويعد العسكري التوسط من حيث الكل وهو العایة المثلى ، ويرى أن  
الإكشار يورث الإملال ، وقلما ينجو صاحبه من الزلل والعيب والخطل  
وعرض لقول إياس لمن نقدوه على إطالة : « الزيادة من الخير خير »  
خطأ العسكري « لأن للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن  
مقدار الاحتمال دعا إلى الاستئصال وصار سبيلاً للملال ، فذلك هو المذمود  
والإسهام والخطل وهو معيب عند كل لبيب ، ١

صححة المعانى :

رأينا فيما سبق أن أبا هلال لا يتطلب في المعنى إلا أن يكون صواباً ،  
ولكنه لم يضع مقياساً صحيحاً واضحاً يستطيع به الناقد أن يحكم على المعنى  
بالخطأ أو الصواب من الناحية البلاعية ، فيكون هذا المعنى صواباً لأنه وافق  
هذه القاعدة أو خضع لمقياس بعینه ، ويحكم عليه بالخطأ لأنه خالف القاعدة

(١) المثل السائر ٥٨ ، ٤٥٩٤ . (٢) الصناعتين ١٤٩ .

المصطلح عليها ؛ ولكنها على الرغم من ذلك ألف بابا طويلا في التنبيه على خطأ المعانٍ وصوابها ليتبّعه من يريد العمل برسمه موقع الصواب فيرسماها ويقف على موقع الخطأ فيجتنبها ، وفي هذا الباب قد يكون من الممكن المثور على بعض أسباب الخطأ في المعانٍ ، ومنها أن يكون الأديب فيما أتى به كاذباً ، وإن كان كلامه مستقيم النظم مثل قول القائل: حملت الجبل وشربت ماء البحر . ومنها أن يعمد الأديب إلى الحال فيصوّره بيانه ، كقوله: آتيك أمس ، وأتيتك غداً ، وكل محال فاسد ، ومنها أن يطلق الشيء على غير ماهوله ، ومن ذلك قول الراعي :

يسو المفارق واللات ذا أرج من قصب معتلف الكافور دراج  
أراد المسك فعمله من قصب الطبي ، والقصب المعى ، وجعل الطبي يعتلّف  
الكافور فيتولد منه المسك ، وهذا من طرائف الغلط ! وقريب منه قول زهير:  
يخرج من شربات ماوهَا طحل على الجذوع يخنن الغنم والغرقا  
ظن أن الصفادع يخرج من الماء مخافة الغرق !

والذى يبدو أن الخطأ في هذين المثالين آت من عدم المعرفة بخصائص المسك في البيت ، أو أن الشاعر جهل أن المسك بعض دم الغزال ، وجهل زهير في البيت الثاني أن الصفادع تحيى في الماء فلا تغرق فيه كما زعم ! ولقد أصاب أبو هلال في هذا النقد لأنّه في الحقيقة يريد للأديب أن يكون واسع الثقافة والمعرفة ، أو في المعنى الذي يتعرض له في الأقل .

وعليه أيضاً أن يعرف طبائع النقوس وما تكره ، حتى لا يجيئ بما يخالف هذه الطبائع زعماً منه أن ذلك هو المألوف فيرمى بالغفلة والجهالة ، لقد أخطأ الأعشى حين قال في حبيبته :

رأت لتي شابت وشابت لداتها / وما راها من ريبة غير أنها

فأى ريبة عند امرأة أعظم من الشيب؟ ومثله قوله :  
من الحوادث إلا الشيب والصلما  
وأنكرتني وما كان الذي نكرت  
وأعجب منه قوله أيضاً :  
حدث هريرة عنا ما تكلمنا  
أإن رأت رجلاً أعشى أضرّ به  
فأى شيء أبغض عند النساء من العشا والضرّ يتبينه في الرجل؟ وأعجب  
ما في هذا الكلام أنه قال : حجل من تصل هذه المرأة بعدي ، وأنا بهذه الصفة  
من العشا والفقر والشيب ؟  
أما أبو هلال فإنه يحذر مغالتة النفس ، فلا يقع فيها وقع فيه الأعشى  
حين يقول :  
فلا تعجبوا أن يهبن المشيب فما عبن من ذاك إلا معينا  
إذا كان شيبٍ بغضاً إلى فكيف يكون إليها حبباً ؟  
ومن عيوب المعاني أيضاً أن يقع الأديب في الاستحالة والتناقض ، بالجمع  
بين المتقابلين ، اللذين يستحيل اجتماعهما ، فيزيد بن مالك العامری في قوله :  
أكفت الجهل عن حلماء قومي وأعرض عن كلام الجاهلينا  
يخبر أنه يحمل عن الجهل ولا يعاقبه ، ثم ينقض ذلك في البيت الثاني حيث يقول :  
إذا رجل تعرض مستخفاً لنا بالجهل أوشك أن يحيينا  
فذكر أنه كاد أن يفتكم بن جهل عليه ، وهكذا ناقض الشاعر نفسه  
فوقع في الخطأ . وقريب من هذا قول عبد الرحمن بن عبيد الله القدس :  
أرى هجرها والقتل مثلين فاقصرروا ملامكم فالقتل أعنى وأيسر  
فأوجب أن الهجر والقتل سواء .. ثم ذكر أن القتل أعنى وأيسر ،  
ولو أنى بيل استوى وسلم من الاستحالة والتناقض . وأبو هلال في وصفه

العامري والقس بالخطأ في وقوعهما في الاستحالة والتناقض يتبع قدامة الذي تكلم في الاستحالة والتناقض كلاماً شافياً ، وعقد لهذا الكلام فصلاً خاصاً من فصول نقد الشعر ، ليس هذا موضع الكلام فيه .

وضع العسكري بعد كل أولئك مقاييساً لكل فن من فنون الشعر بأسلوبه التعليمي الذي أوضحناه فيما سبق متأنراً إلى حد كبير بمقاييس قدامة ، ونجمل تلك المقاييس فيما يأتي :

(١) المدح : ينبغي ألا يعدل المادح عن الفضائل التي تختص بالنفس من العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحسن والبهاء والزينة ، كما قال ابن قيس الرقيات في عبد الملك بن مروان :  
يأنفق التاج فوق مفرقة على جبين كأنه الذهب  
ففضب عبد الملك وقال : لقد قلت في مصعب :

إما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء  
فأعطيته المدح بكشف الغم وجلاء الظلم ، وأعطيته من المدح ما لا يندر  
فيه ، وهو اعتدال التاج فوق جبين الذي هو كالذهب في النضارة .

(٢) الهجاء : ومقاييسه أنه إذا لم يسلب الصفات المستحسنة التي تختص بها النفس ويثبت الصفات المستهجنة التي تختصها أيضاً لم يكن مختاراً والاختيار أن ينسب المهجو إلى اللؤم والبخل والشره ، وما أشبه ذلك ، وليس بالختار في الهجاء أن ينسبة إلى قبح الوجه وض Howell الجسم يدل على ذلك قول القائل:  
فقلت لها ليس الشحوب على الفتى بumar ولا خير الرجال سمينها  
وقول الآخر :

تناول الخير مِمَّن تزدريه ويختلف ظنك الرجل الطير (١)  
(١) الطير : ذو النظر والرواء .

## قول الآخر :

رأوه فازدروه وهو خرقٌ وينفع أهله الرجل القبيح<sup>(١)</sup>  
وذكر السموم أن قلة العدد ليست بعيب فقال :

تعيرنا أنتا قايل عيديننا  
ومن الهجاء قول بعضهم :  
اللؤم أكبر من وبر ووالده  
قوم إذا ما جنى جانبيهم أمنوا  
وقول أعشى باهلة :

فقلت لها إن الكرام قليل  
واللؤم أكرم من وبر وما ولدا  
من لؤم أحسأبهم أن يقتلوا قودا

بنو تم قراره كل لوم كذلك لكل سائلاه قرار  
ولسنا ندرى علة استمساك العسكرى بهذا المقياس ، ولم لا يوصف  
الم gio بالعيوب الجسمية ؟ وذلك كثير في الشعر والنشر ومنه الحسن  
المستجاد ! بل هو من الأهاجى الطبيعية المعروفة عند كل الناس من سائر  
الأجناس من البدو والحضر ، والأمينين والعالمين ، والماديات أقرب إلى  
الذهن من المعنويات ، ولحواس الإنسان أثرها في الاستحسان والاستهجان ،  
وقد يقالوا « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » مخافة أن يقع عليه الطرف  
فتقذريه النفس ، فالعيب بالقصر المفرط والطول المفرط ، والبياض  
والسوداد ، ودمامة الوجه . . . من عيوب الجسم طبيعى قديم و معروف ،  
كما أن المدح بأوصاف الجسم من الجمال والبهاء والزينة قديم طبيعى معروف ،  
إذا كان الملك استنك ما استنك من قول ابن قيس الرقيات ، فلسبب  
سياسي ، هو أنه سبق أن مدح عدواً من أعدائه ، ولسبب آخر يحذفه العارفون :  
أنه جعل جمال مصعب هبة طبيعية منحة الله إياها ، فهو شهاب من الله تجلت  
عن وجهه الظلام ، وجعل بهاء عبد الملك صناعياً ، وعبارة عبد الملك التي

(١) الحرق بكسر الحاء : السخي من الرجال الذي يتسع في العطاء

لم يوردها صاحب الصناعتين : يابن قيس تحدثني بالتاج والصومان كانى  
من ملوك العجم، وتقول في مصعب . . .

ولم يذهب العسكري هذا المذهب إلا متابعة لقدامة في رأيه في المديح  
والهجاء كما مرّ .

(٣) الوصف: أجدود الوصف ما يستوعب أكثر معانى الموصوف حتى  
كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصف عينك .. كقول يزيد بن عمر الطائى:

ألا من رأى قومي كأن رجالهم نخيل أتاهما عاصد فأمامها<sup>(١)</sup>  
فهذا التشبيه كأنه يصور لك القتلى مصرعين . وقال العتاي في السجاحب:  
والغيم كالثوب في الآفاق منتشر من فوقه طبق من تحته طبق<sup>\*</sup>  
نظمه مصمتاً لا فتق فيه فإن سالت عزاليه قلت الثوب منتفق<sup>\*</sup>  
إن معمع الرعد فيه قلت منحرق أو لأن البرق فيه قلت محترق<sup>(٢)</sup>  
وهو أيضاً مقياس قدامة ، وعبارة قدامة: ولما كان أكثر وصف  
الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعانى كان أحسنهم من أقى  
في شعره بأكثر المعانى التي الموصوف مركب منها ثم بأظهرها فيه وأولاها  
حتى يحكى به شعره ويثله بنته<sup>(٣)</sup> ، وكما استشهد قدامة بيت الشهاد في وصف  
البلالة تمثل به أبو هلال كما مرّ بنا .

(٤) التشبيب: يعني أن يكون دالاً على شدة الصباية وإفراط الوجد ،  
والتهالك في الصبوة ، ويكون بريئاً من دلائل الحشونة والجلادة وأمارات  
الإباء والعزة ، ومن أمثلة ذلك (جيد التشبيب) قول أبي الشيص :

(١) عضد الشجر من باب ضرب قطعه .

(٢) العزالى جمع عزلاء مصب الماء من الرواية . المعمدة بوزن المزرعة  
صوت الحريق في القصب ونحوه . (٣) نقد الشعر ١١٨ .

متاخر عنه ولا متقدم  
جباً لذكرك فليمني اللوّمُ  
إذ كان حظي منك حظي منهمُ  
ما من يهون عليك من أكرمُ

وقف الموى بـ حيث أنت فليس لي  
أجد الملامة في هواك لذيدة  
أشبهت أعدائي فرصت أحجم  
وأهنتني فأهنت نفسى صاغراً

فهذا غاية التهالك في الحب ، ونهاية الطاعة للمحبوـب .

ويستجاد التشبيب أيضاً إذا تضمن ذكر التشوـق والتذكـر لـعـاهـدـ الأـحـبةـ  
بهـبـ الـريـاحـ وـلـمـ الـبـرـوقـ وـمـاـ يـجـرـىـ بـجـراـهـاـ منـ ذـكـرـ الـديـارـ وـالـآـثـارـ ،ـ فـنـ

أـجـودـ مـاـ قـيلـ فـيـ الـديـارـ قولـ الأـزـدـيـ :

فـلـمـ تـدـعـ الـأـرـيـاحـ وـالـقـطـرـ وـالـبـلـىـ منـ الدـارـ إـلـاـ مـاـ يـشـفـ وـيـشـغـفـ  
وـأـبـوـ هـلـالـ فـيـ هـذـاـ الـمـقـيـاسـ ،ـ وـقـبـلـهـ قـدـامـةـ ،ـ مـقـلـدانـ لـأـقـدـمـينـ فـيـ بـكـامـ  
الـأـطـلـالـ وـالـوـقـوفـ عـلـىـ الـآـثـارـ وـالـدـمـنـ ،ـ وـلـئـنـ صـحـ ذـلـكـ فـيـ الـأـطـلـالـ  
الـدـائـرـةـ ،ـ لـقـدـ يـتـنـعـ فـيـ الـحـواـضـرـ الـعـاصـرـةـ ،ـ وـمـثـلـ الـرـجـلـينـ عـاـشـ الـحـواـضـرـ  
بعـيـدـاًـ عـنـ هـذـهـ الـظـواـهـرـ ،ـ وـإـنـماـ دـفـعـهـماـ إـلـىـ هـذـاـ الـمـقـيـاسـ تـقـلـيدـ الشـعـرـاءـ  
الـأـقـدـمـينـ ،ـ وـبـحـارـةـ النـقـادـ السـابـقـينـ ،ـ قـالـ اـبـنـ قـتـيـةـ :ـ وـسـمـعـتـ بـعـضـ أـهـلـ  
الـأـدـبـ يـذـكـرـ أـنـ مـقـصـدـ الـقـصـيـدـ إـنـماـ اـبـتـدـأـ بـذـكـرـ الـدـيـارـ وـالـدـمـنـ وـالـآـثـارـ فـبـكـيـ  
وـشـكـاـ ،ـ وـخـاطـبـ الـرـبـعـ ،ـ وـاستـوـقـفـ الرـفـيقـ ،ـ لـيـجـعـلـ ذـلـكـ سـيـاـ لـذـكـرـ أـهـلـهاـ  
الـطـاعـنـيـنـ عـنـهاـ ،ـ إـذـ كـانـ نـازـلـةـ الـعـمـدـ فـالـحـلـولـ وـالـظـعـنـ عـلـىـ خـلـافـ ماـ عـلـيـهـ  
نـازـلـةـ الـمـدـرـ ،ـ لـاتـقـاـلـهـمـ عـنـ مـاءـ إـلـىـ مـاءـ ،ـ وـانتـجـاعـهـمـ الـكـلـاـ ،ـ وـتـبـعـهـمـ مـسـاقـطـ  
الـغـيـثـ حـيـثـ كـانـ ،ـ ثـمـ وـصـلـ ذـلـكـ بـالـسـبـبـ فـشـكـاـ شـدـةـ الـوـجـدـ وـأـلـمـ الـفـرـاقـ  
وـفـرـطـ الصـبـابـةـ وـالـشـوـقـ ..

وفي ذـكـرـ الـبـرـقـ قولـ الـأـوـلـ :

سرـيـ الـبـرـقـ مـنـ نـحـوـ الـحـجازـ فـشـاقـيـ وكلـ حـجـازـيـ لـهـ الـبـرـقـ شـاـقـُ

بدأ مثل نصف العرق والبعد دونه  
نهاري بأشراف الليل موكل  
فواكبدى مما ألاقي من الهوى  
وكذلك ينبغي أن يكون التشبيب دالا على الحنين والتفسر وشدة

الأسف كقوله :

وليس عشيات الحمى برواجع  
وأذكر أيام الحمى ثم أثني  
وقول ابن مطير :  
وكنت أذود العين أن ترد البكا  
خليلي ما في العيش عيب لو أنا  
وهذا يدل على تحسير شديد وحنين مفرط .

وي ينبغي أن يظهر الناسب الرغبة في الحب ، وألا يظهر التبرم به  
كأبي صخر حين يقول :

في أح بها زدن جوى كل ليلة  
ويا سلوة الأيام موعدك الحشر  
وقول الآخر :

تشكي الحبوب الصباية ليتني  
تحملت ما يلقون من بينهم وحدى  
فكانـت لنفسـي لذـةـ الحـبـ كـلـهاـ  
وينـبغـيـ أنـ يـكونـ فـيـ التـسـبـبـ دـلـيلـ التـوـلـهـ وـ التـحـيـرـ كـقـوـلـ الشـاعـرـ :

فوـ اللهـ ماـ أـ درـىـ أـ زـ يـ دـتـ مـ لـ حـةـ وـ حـسـنـاـ عـلـىـ النـسـوانـ أـمـ لـ يـسـ لـ عـقـلـ ؟ـ  
وـ قـيـلـ لـ بـعـضـهـمـ مـاـ بـلـغـ مـنـ حـبـكـ لـ فـلـانـةـ ؟ـ فـقـالـ :ـ إـنـ أـ رـىـ الشـمـسـ عـلـىـ  
حـيـطـانـهـ أـحـسـنـ مـنـهـ عـلـىـ حـيـطـانـ غـيـرـهـ ١ـ

ترك أبو هلال من أغراض الشعر المراثي والفخر ، لأنهما داخلان في المدح ، وذلك أن الفخر هو مدحك نفسك بالطهارة والمدافن والحلم والعلم والحسب ، وما يجري بجرى ذلك .

والمرثية مدح الميت ، والفرق بينها وبين المدح أن تقول كان كذا وكذا وتقول في المدح هو كذا وأنت كذا . فينبغي أن يتونخي في المرثية ما يتونخي في المدح .

إلا أنك إذا أردت أن تذكر الميت بالجود والشجاعة تقول : مات الجود وهلكت الشجاعة ، ولا تقول : كان فلان جواداً وشجاعاً ، فإن ذلك بارد غير مستحسن . وما كان الميت يكده في حياته فلا ينبغي أن يذكر أنه يبكي عليه مثل الخيل والإبل وما يجري بجريها ، وإنما يذكر اغتاباطها بموته ، بل يوصف بالبكاء عليه من كان يحسن في حياته إليه ، كما قال الغنوبي :

لبيك شيخ لم يجد من يعيشه وطاوى الحشائش المخل غريب وهكذا يرسم العسكري أصولاً ويضع مقاييس لمعانى الشعر بأسلوبه التعليمى الذى أوضناه فى الفصل الماضى .

أما معانى الشعر من حيث الحقيقة والخيال فإن العسكري تكلم فيها وعالجها أيضاً علاجاً شافياً فعقد باباً للتشبيه، وآخر للاستعارة، وثالثاً للكناية وجعل لكل منها مقاييساً للجودة والاستحسان وكلها تتصل بناحية الخيال كما يسميه المعاصرون .

وجعل العسكري أبلغ التشبيه وأجوده ما يقع على أربعة أوجه .

(١) أحدهما إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ماقع عليه ، وهو قول الله عز وجل : «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقية يحسبه الضمان ماء»

فانحرج ما لا يحس إلى ما يحس . والمعنى الذي يجمعهما بطلان المزوم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة .

(٢) والوجه الآخر إخراج مالم تجربه العادة إلى ما جرت به العادة كقوله تعالى : « وإذ نتفنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » ، والمعنى الجامع بين المشبه والمشبه به الارتفاع بالصورة .

(٣) والوجه الثالث إخراج ما لا يعرف بالبدنية إلى ما يعرف بها فن قوله عز وجل : « وجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » ، فقد خرج ما لا يعلم بالبدنية إلى ما يعلم بها والجامع بين الأمرين العظم ، والفائدة فيه التشويق إلى الجنة بحسن الصفة .

(٤) والوجه الرابع إخراج ما لا لاقوة له في الصفة إلى ماله قوة فيها كقوله عز وجل : « وَلِهِ الْجَوَارُ الْمُشَبَّثُونَ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ » ، والجامع بين الأمرين العظم ، والفائدة البيان عن القدرة في تسخير الأجسام العظام في أعظم ما يكون من الماء ..

ثم ذكر بعد هذه الوجوه المستحسنة التشبيه الجيد وهو التشبيه التقليدي كما فعل المبرد فقال : وأما الطريقة المسلوكة في التشبيه والنهج القاصد في المثليل عند القدماء والمخدين فتشبيه الجواب بالبحر والمطر ، والشجاع بالأسد ، والحسن بالشمس والقمر ، والسمم الماضي بالسيف ، والعالي الرتبة بالنجم ، والخليم الرزين بالجبل ، والحي بالبicker ، والفاتن بالحلم ، ثم تشبيه اللئيم بالكلب ، والجبان بالصفرد ، والطائش بالفراس ، والذليل بالنقد والنعل والفعق والوتد ، والماضي بالحديد والصخر ، والبليد بالجحاد <sup>(١)</sup> .  
ويقبح التشبيه لعدة أمور :

(١) الصناعتين ٢٢٩ .

- (١) إخراج الظاهر إلى الخاف .
- (٢) إخراج المكشوف إلى المستور .
- (٣) إخراج الكبير إلى الصغير .
- 
- ينبغي أن يكون المشبهان قريين في الجنس ، أما التشبيه البعيد فردياً
- 
- مردود في رأى أبي هلال ، فمن ردّي التشبيه قول ليid :

فتي ينفع صراخ صادق يجلبوا ذات جرس و زجل  
نخمة دفراء ترق بالعرا قردمانيا و تركا كالبصل (١)  
تشبه البيضة بالبصل وهو بعيد ، وإن كانوا يتشبهان من جهة الاستدارة  
بعد ما بينهما في الجنس .

---

والخلاصة أن مقياس الحسن في التشبيه كثرته و تركيه . ومقياس القبح

---

فيه المخاء وعدم الملامحة بين الطرفين ، لأن تشبه الظاهر بالخفى والمكشوف

---

بالمستور وال الكبير بالصغير .

الاستعارة :

---

أما الاستعارة فهي عند العسكري أعلى ضروب البيان وهي تفضل

---

الحقيقة بأن فيها شرح المعنى وفضل الإبادة عنه أو توكيده والبالغة فيه

---

والإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو يحسن المعرض الذي يبرز فيه .

---

وهذه الأوصاف كلها موجودة في الاستعارة المصية ، ولو لا أن

---

الاستعارة المصية تتضمن ما لا تتضمن الحقيقة من زيادة فائدة لكتاب

---

الحقيقة أولى منها استعمالاً .

---

(١) ينفع من نفع الصارخ بصوته إذا رفعه أو تابعه وأدامه . يجلبونها من أحبابها  
الحرب إذا جمعوا لها مئ سمعوا صراغاً . الزجل الجلبة ورفع الصوت . الدفراء التنة .  
ترقى من الرتو وهو الشد . القردمانية الدروع الغليظة . الترك : جمع تركه بيضة الحديد .

لم يحدد العسكري معنى الاستعارة المصيبة، ولكن هذه الأوصاف تشير إلى المعنى في التحقق للأغراض المذكورة آنفًا.

ولكنه عاب الاستعارة البعيدة، والاستعارة البعيدة ما بعد فيها المستعار

عن المستعار له كقول أحد شعراء بنى عبد القيس :

ولما رأيت الدهر وعراً سبيلاً      وأبدى لنا ظهراً أجبَ مساعاً  
ومعرفةَ حشاء غير مفاضة      عليه ولواناً ذا عثانيَ أنزعنا  
وجبهة قرد كالشراك ضئيله      وصعرَ خديه وأنفها مجدعاً  
ولا يعرف أبو هلال متى رأى هذا الدهر جبهة كالشراك مع هذا  
الذى عدده بفباء بما يضحك الشكلى (١) .

ومن الاستعارة الرديئة قول الأخطل :

إكسير هذا الخلق يلقى واحد      منه على ألف فيكرم خيمهُ  
وقول أبي تمام (حتى اتفته بكمياء السؤدد) .

فلا ترى شيئاً أبعد من إكسير الخلق وكيمياء السؤدد . وقد أكثر  
أبو تمام من هذا الجنس اغتراراً بما سبق منه في كلام القدماء وأسرف  
فهي عليه ذلك وعيوب به . وتلك عاقبة الإسراف (٢) .

(١) قال الأمدى في الموازنة (١١٨) : إن هذا الأعرابي جعل للدهر ظهراً  
أجب ومعرفة حشاء ولواناً ذا عثانيَ وشبه جبهته بجهة قرد وجعل أنفه مجدعاً . . .  
ومثل هذا في كلامهم قليل جداً ليس مما يعتمد ويحمل أصلاً يحتمى عليه ويستكثرون منه.  
أجب مسلح : الأجب الغليظ والمسلح الجبل ذو الشقوق . معرفة حشاء :  
المعرفة كمرحلة موضع العرف من الفرس والمحاصيل قليلة الشعر . عثانيَ جمع عثون  
اللحية أو ما أفضل منها بعد العارضين . والأنزع : ذو النزع وهو انحسار الشعر  
من جانبي الجبهة . (٢) كتاب الصناعتين ٢٩٥ .

وقول العسكري في الاستعارة المصيبة لعله هو الذي أخذته الشيخ عبد القاهر فيما بعد ، ففصل القول وقسم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة وبين مزايا الأولى وعيوب الثانية ، ويكاد كلامه في الاستعارة المفيدة يطابق كلام العسكري في الاستعارة المصيبة ، فهي عنده ما بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعانى وغرض من الأغراض لو لا مكان تلك الاستعارة لم يحصل ذلك (١) .

### السرقات :

وما يتصل بالمعانى وتقسيمه إليها إلى مبتكرة ومقلدة ، ذلك الباب الذى عقده لحسن الأخذ وحل المنظوم ، وهو المسماى عند علماء الأدب ونقاده بـ « باب السرقات » .

وفي كتاب الصناعتين دراسة فريدة في بابها ، لأن أبوهلال تابع فيها حسه الفنى ، وساير ذوقه الأدبي ، وتخلىص فيها من أساليب العلماء ومناهج المتكلمين ، ولهذا حالفه التوفيق في أكثر ما قال ، فاختدى إلى أحكام فنية خالصة اهتدى بهديها تابعوه من كتبوا في البلاغة .

(١) قرر أبو هلال أن الناس لا غنى لهم عن تناول معانى المقدمين يأخذونها ويكسونها ألفاظاً من عندهم ، ويزرونها في معرض من تأليفهم ويوردونها في غير حلتها الأولى ، ويزيدونها حسن تأليف وجودة تركيب وكمال حلية ، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها من سبق إليها . وهو بهذا يرى أنه لا مناص من التقليد ، مستدلاً بأن الطفل إنما ينطق بعد استماعه من البالغين وتقليله أصواتهم .

(٢) ويؤكد ما سبق أن قرره من اشتراك الناس في المعانى ، فهي

(١) أسرار البلاغة : ٢٤ .

سواء بين العلاء ، وربما وقع المعنى الجيد للسوق والنبطي والزنجبي وإنما تتفاصل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها . وقد يقع للمتأخر معنى سبقه إليه المتقدم من غير أن يلم به ، ولكن كما وقع للأول وقع الآخر . ويتخاذل العسكري من نفسه شاهداً ودليلاً ، فيروى أنه قال في صفة النساء :

سفرن بدورا وانتقبن أهله

ثم ظن أنه سبق إلى جمع هذين التشيرين في نصف بيت ، إلى أن وجده بعينه بعض البغداديين ، فكثير تعجبه وعزم ألا يحكم على متاخر بالسرقة من المتقدم حتى .

(٣) عاجز أبو هلال بعد ذلك ضروب الأخذ ووسائله ، فقسمه قسمين  
الأخذ الحسن والأخذ القبيح :

(١) فالأخذ الحسن الذي يجده العسكري ، أن تأخذ المعنى فتسخوه لفظاً جديداً أجود من لفظه الأول ، ومن فعل مثل ذلك كان أحق بالمعنى من صاحبه الأول . أخبرنا بعض أصحابنا قال : قيل للشعبي : إنما إذا سمعنا الحديث منك نسمعه بخلاف ما نسمعه من غيرك ، فقال إن أجد المعنى عارياً فأكسوه من غير أن أزيد فيه حرفاً . أى من غير أن أزيد في معناه شيئاً . فالذى يأخذ معنى غيره فيكسوه بألفاظ جديدة ، ويصوغه صياغة جيدة جدير بأن ينسب إليه المعنى . كان دعبدل في حلقة فبرى ذكر أبي تمام ، فقال دعبدل : كان يتبع معانٍ فيأخذها ! فقال له رجل في مجلسه : مامن ذلك أعزك الله ؟ فقال : قلت :

وإن أمراً أسدى إلى بشافع إِلَيْهِ وِيرْجُو الشَّكْرَ مِنْ لَاحِقٍ  
شَفِيعُكَ فَاشْكُرْ فِي الْحَوَاجِزِ إِنَّهُ يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهِ وَهُوَ يُخْلُقُ  
وَقَالَ وَهُوَ يَدْعُ يَعْقُوبَ بْنَ أَبِي الرَّبِيعِ :

إن الأمير بلاك في أحواله  
 فتى أقوم بحق شكرك إذ جنت  
 فلقيت بين يديك حلو عطائه  
 وإذا أمر وأسدى إليك صنائعه  
 فقال الرجل : أحسن والله ! فقال دعل : كذبت قبحك الله ! قال :  
 لئن كان سبق بهذا المعنى فتبعته لما أحسنت ، وإن كان أخذه منك لقد أجاد  
 فصار أولى به منك ! ولما قال بشار :  
 من راقب الناس لم يظفر بحاجته  
 تبعه سلم الخاسر فقال :  
 من راقب الناس مات غمّا  
 فلما سمعه بشار قال . ذهب ابن الفاعلة بيته !  
 ففصل العسكري وسائل الأخذ الحسن ، وشرط لاستحسانها جيما  
 المهارة في إخفاء الأخذ ، والحاذق هو الذي يخفي دينيه إلى المعنى بأخذه  
 في ستة فيحكم له بالسبق إليه أكثر من يمرّ به ، ووسائل الأخذ :  
 (أ) أخذ معنى منظوم وإيراده في كلام منثور ، أو من ثر فيورد  
 في نظم .  
 (ب) النقل من غرض إلى غرض ، فالمعنى المستعمل في صفة خمر يؤخذ  
 فيجعل في مدح ، أو في مدح ينقل إلى وصف وهكذا .. وذلك كثير، بشرط  
 كسوة المعنى حلقة جديدة لتتحقق آثار التتبع ، كقول أبي نواس :  
 أعطتك ريحانها العقار وحان من ليك انسفار

---

(أ) الأهزع : آخر سهم في السكانة ردئاً كان أو جيداً أو هو أفضل سهامها  
 لأنّه يدخل لشديدة .

إن كان أخذه من قول الأعشى على ما حكوا فقد أخفاه غاية الإخفاء  
وبيت الأعشى :

وسبيته بما تعق بابل كدم النديع سلبتها جرياتها<sup>(١)</sup>  
سئل الأعشى عن (سلبتها جرياتها) فقال : شربتها حمراء وبلتها بيضاء ،  
فيق حسن لونها في بدني ، ومعنى (أعطيتك ريحانها العقار) أى شربتها  
فانتقل طيبها إليك .

وهكذا قوله :

لا ينزل الليل حيث حلّت فدهر شرّاها نهار  
من قول قيس بن الخطيم :  
قضى الله حين صورها الـ يخالق ألا تكنها السدف<sup>(٢)</sup>  
وهذا المعنى منقول من الغزل إلى صفة الخنزير فهو خنزير . ومن هذا ما نقله  
من أوس بن حجر في صفة الفرس بجعله في صفة امرأة :  
بفردها صفراء لا الطول عابها ولا قصر أزرى بها فتعطلا  
وقول أبي نواس :

فوق القصيرة والطويلة فوقها دون السمين ودونها المهزول  
وقد يكون من وسائل الإخفاء أن يؤخر المتأخر في عبارة المتقدم  
كقول الشاعر :

---

(١) السبيبة : الخنزير . جرياتها : لونها ، وقال ثعلب الجريال صفوة الخنزير .

(٢) السدف : الظلة ، قال الأصمى : وذلك في لغة نجد ولغة غيرهم هو الضوء ،  
 فهو من الأضداد ، والبيت أوردته في الموازنة هكذا :

وقضى الله حين صورها الـ يخالق ألا يكُنها سدف  
وفي إحدى نسخ الأصل « وقضى لها الله . . . . » عن هامش الصناعتين .

أفناهم الصبر إذ أبقاكم الجزء

وهو من قول السموءل :

يقرب حبَّ الموت آجالنا لنا  
أورده أبو تمام في نصف بيت واستوفى التطبيق .

ومن هذا الضرب قوله :

علّمني جودك السماح فـ  
أبقيت شيئاً لدىٰ من صلتـك !  
من قول الشاعر :

لمست بكـيـ كـفـهـ أـبـغـيـ الـفـيـ  
ولـمـ أـدـرـ أـنـ الجـوـدـ مـنـ كـفـهـ يـعـدـيـ  
فـلاـ أـنـاـ مـنـهـ مـاـ أـفـادـ ذـوـ الـفـيـ  
أـفـدـتـ،ـ وـأـعـدـافـيـ فـاـنـلـفـتـ مـاعـنـدـيـ  
وـيـزـيدـ الـأـخـذـ حـسـنـاـ أـنـ يـزـيدـ الـمـتأـخـرـ فـعـنـيـ الـمـتـقـدـمـ كـقـوـلـ أـبـيـ نـوـاـسـ:  
يـبـكـ فـيـذـرـيـ الدـرـ مـنـ نـرـجـسـ وـيـلـطـمـ الـوـرـدـ بـعـنـابـ  
أـخـذـهـ مـنـ قـوـلـ أـلـاـسـوـدـ بـنـ يـعـفـرـ :

يسـعـيـ بـهـ ذـوـ تـوـمـتـانـ كـأـنـاـ قـاتـ أـنـامـلـهـ مـنـ الفـرـصـادـ<sup>(١)</sup>  
وـأـخـذـ بـعـضـ الـمـتأـخـرـينـ بـيـتـ أـبـيـ نـوـاـسـ فـزـادـ عـلـيـهـ زـيـادـةـ عـجـيـبـةـ فـقـالـ :  
وـأـسـبـلـتـ لـؤـلـؤـاـ مـنـ نـرـجـسـ فـسـقـتـ وـرـدـاـ وـعـضـتـ عـلـىـ الـعـنـابـ بـالـبـرـدـ  
فـيـاءـ بـمـاـ لـاـ يـقـدـرـ أـحـدـ أـنـ يـزـيدـ عـلـيـهـ .ـ وـهـكـذـاـ يـرـدـدـ أـبـوـ هـلـالـ إـعـجـابـهـ  
بـهـذـاـ الـبـيـتـ فـكـلـ مـنـاسـبـةـ ١

وـمـذـكـرـ ذـكـرـ قـوـلـهـ وـقـدـ زـادـ فـيـهـ عـنـ الـأـوـلـ :

فـتـمـشـتـ فـيـ مـفـاـصـلـهـمـ كـتـمـشـيـ الـبـرـمـ فـيـ السـقـمـ  
أـخـذـهـ مـنـ قـوـلـ مـسـلـمـ :

تـجـرـىـ مـحـبـتـهاـ فـقـلـبـ عـاشـقـهـاـ بـجـرـىـ المـعـافـةـ فـأـعـصـاءـ مـتـكـسـ

(١) التومتان : مثني تومة وهي الحبة من الدر . والفرصاد : الحمرة .

وَجِيعَ ذَلِكَ مَا خُوذَ منْ قَوْلِ بَعْضِ مَلُوكِ الْبَيْنِ :  
 مِنْ بَقَاءِ تَقْلِبِ الشَّمْسِ وَطَلُوعِهَا مِنْ حِيثِ لَا تَمْسِي  
 تَجْرِي عَلَى كَبَدِ السَّمَاءِ كَمَا يَجْرِي حَمَامُ الْمَوْتِ فِي النَّفْسِ  
 وَأَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدُ قَالَ : سَمِعْتُ أَبا الْعَيْنَامِ يَقُولُ : سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ نُوسَابِ  
 يَقُولُ : وَاللَّهِ مَا أَحْسَنَ الشَّيْخَ حِيثُ يَقُولُ :  
 إِذَا بَلَغْتَنِي وَحَمِلْتَ رَحْلِي عِرَابَةَ فَأَشْرَقَ بَدْمَ الْوَتَنِ  
 هَلَا قَالَ كَمَا قَالَ الْفَرَزِذِقُ :  
 عَلَامَ تَلْفِيتِينَ وَأَنْتَ تَحْتِي وَخِيرَ النَّاسِ كَلَّهُمْ أَمَامِي ؟  
 مَتَى تَرَدِي الرَّصَافَةَ تَسْتَرِيجِي مِنْ التَّهْجِيرِ وَالدَّبَرِ الدَّوَاعِي !  
 وَكَانَ قَوْلُ الشَّيْخِ عَيْبَاً عِنْدِي ، فَلِمَا سَمِعْتُ قَوْلَ الْفَرَزِذِقِ تَبَعَّتْهُ فَقُلْتُ :  
 وَإِذَا الْمَطَى بَنا بِلْغَنْ مُحَمَّداً فَظَهَورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامٌ  
 قَرِيبَنَا مِنْ خَيْرِ مِنْ وَطَنِ الْحَصِى فَلِمَا عَلَيْنَا حَرَمَةُ وَذَمَامٍ  
 يَعْتَرِفُ أَبُو نُوسَابَ كَمَا تَرَى بِالْمَتَابِعَةِ وَيَقِرُّ بِالْأَخْذِ ، وَلِسَكْنِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ  
 أَسْلَسَ مِنْ قَوْلِ الشَّيْخِ وَأَوْجَزَ مِنْ قَوْلِ الْفَرَزِذِقِ .  
 أَمَا حِلُّ الْمَنْظُومِ وَنَظْمِ الْمَتَشَوِّرِ فَقَدْ عَدَهُ بَعْضُهُمْ مِنَ الْبَلَاغَةِ فَقَالَ  
 الْكِتَابَةُ نَفْضُ الشِّعْرِ . وَقَيلَ لِلْعَتَابِ : بِمَ قَدِرْتَ عَلَى الْبَلَاغَةِ ؟ قَالَ : بِحِلِّ  
 مَعْقُودِ الْكَلَامِ . وَقَدْ قَسَمَهُ أَبُو هَلَالُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ :

(۱) أَنْ يَعْدِمَ الْأَخْذَ إِلَى الْأَفْلَاظِ الشِّعْرِ فَيَدْخُلُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْأَفْلَاظِ  
 مِنْ عِنْدِهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ قَلِيلًا الْمُعْتَلِي سَمِعَ أَيَّاتَ اللَّعْبِيِّ وَهِيَ :  
 أَفْلَتْ بَطَالَهُ وَرَاجِعَهُ حَلْمٌ وَأَعْقَبَهُ الْهَوَى نَدَمًا  
 أَلْقَى عَلَيْهِ الْدَّهْرُ كُلَّهُ وَأَعْارَهُ الْإِقْتَارَ وَالْمَدَمَّا  
 فَإِذَا أَلْمَ بِهِ أَخْوَ ثَقَةٍ غَضَّ الْجَفُونَ وَبِحِجَاجِ الْكَلَامِ .

فقال لبعض الملوك يستعطفه على رجل من أهله : بجعلني الله فدامك ،  
ليس هواليوم كما كان ، إنه وحياتك أفلت بطالته إى والله ! وراجمه حليه ،  
وأعقبه - وحقّك - الموى ندما ، أنجي الدهر والله عليه بكلكله ، فهو  
اليوم إذا رأى أخاشه غضّ بصره ، وبمحج كلامه . وبهذا يعرف أن حل  
المنظوم ونظم الحلول أسهل من ابتدائهما ، لأن المعانى إذا حللت منظوماً  
أو نظمت منثوراً حاضرة بين يديك تزيد فيها شيئاً فينحل أو تنقص منها  
شيئاً فيننظم ، وإذا أردت ابتداء الكلام وجدت المعانى غائبة عنك فتحتاج  
إلى فكر يحضر كها .

(٢) والضرب الثاني ينحل بتأخير لفظة منه وتقديم أخرى فيحسن محلوله  
ويستقيم ، ومثاله ما ذكره بعض الكتاب من قول البختي :

طلب الأكثـر في الدـنيـا وـقـد نـبـلـغـ الـحـاجـةـ فـيـهاـ بـالـأـقـلـ  
ثم قال : فإذا ثرت ذلك ولم تردد في الفاظه شيئاً قلت : طلب في الدنيا  
الأكثـر وـقـد نـبـلـغـ مـنـهـ الـحـاجـةـ بـالـأـقـلـ .

(٣) والضرب الثالث أن يفعل الآخذ مثل ذلك التقدم والتأخير  
فلا يحسن الكلام ولا يستقيم إلا بالاتجاه ضرورة إلى الزيادة فيه أو النقص  
منه ، ومن النظم ما لا يمكن حله أصلاً بتأخير لفظة وتقديم أخرى منه حتى  
يلحق به التغيير والزيادة والنقصان مثل قول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والمدم  
فالمصراع الأول يمكن أن يؤخر بعض الفاظه ويقدم ، فيصير ثراً مستقيماً  
وهو أن يقول : فؤاد الفتى نصف ولسانه نصف . ولا يمكن في المصراع الثاني ،  
ذلك ، حتى تزيد فيه أو تنقص منه ، فنقول : لسان الفتى نصف وفؤاده نصف ،  
وصورته من اللحم والمدم فضل لاغناء بهما دونهما ولا معول عليهما إلا معهما .

(٤) والضرب الرابع أن تكسو ما تحله من المنظوم ألفاظاً من عندك ، وهذا أرفع درجاتك ، وهكذا يلقى أبو هلال على مزاولى صناعة الكتابة درساً في وسائل الإفادة من أدب ساقتهم ، ويوجّه لهم السبيل في الاتقان بأثار غيرهم ، مبيّناً لهم ما يحسن وما يقعّ ، وما هو ممكن أو غير ممكن ، وهكذا تبقى للرجل أهم صفاتـه ، وهـى صفاتـ المعلم ، الذى يرود لـلامـيـنه طرقـ الإـجادـةـ والإـحسـانـ .

والأول مرة يطلق العسكري لفظـ السـرـقةـ على هذا الأـخـذـ وفي معرضـ الاستـجـادـةـ والإـسـتـحـسانـ أيضاً .

وكـا يـستـطـيعـ النـاثـرـ أنـ يـفـيدـ منـ الشـاعـرـ بـحـلـ مـنـظـوـمـهـ يـأـحـدـىـ الـوسـائـلـ التـىـ ذـكـرـهـ ، فـإـنـ فـيـ اـسـتـطـاعـةـ الشـاعـرـ أـنـ يـفـيدـ منـ نـصـوصـ النـاثـرـ الـكـلـامـيـهـ أـوـ الـكـتـابـيـهـ ، فـيـعـمـدـ إـلـىـ هـذـهـ النـصـوصـ فـيـدـخـلـ مـعـانـيهـ فـيـ شـعـرـهـ ، وهـكـذاـ يـكـونـ أـبـوـ هـلـالـ وـفـيـاـ لـرـجـالـ الصـنـاعـيـنـ .

ومن أجود ما مثل به للثـيرـ يـورـدـ فـيـ الشـعـرـ قولـ بعضـهـ للـرـبـيعـ بنـ خـيـثـمـ وقد رأـىـ اـجـهـادـهـ فـيـ الـعبـادـةـ : أـتـعـبـتـ نـفـسـكـ ، قـلـتـ نـفـسـكـ اـفـقـالـ : رـاحـتـاـ أـطـلـبـ ! أـخـذـهـ الشـاعـرـ فـقـالـ :

سـأـطـلـبـ بـعـدـ الدـارـ عـنـكـ لـتـقـرـبـواـ وـتـسـكـبـ عـيـنـاـيـ الدـمـوعـ لـتـجـمـداـ  
وقـالـ غـيـرـهـ عـرـوـةـ بـنـ الـوـرـدـ ،

تـقولـ سـلـيـمـيـ لوـ أـقـتـ بـأـرـضـناـ وـلـمـ تـدرـ أـنـ لـلـمـقـامـ أـطـوـفـ  
وـمـثـلـ ذـلـكـ أـنـ بـعـضـهـ رـأـىـ أـعـراـيـاـ مـقـبـلاـ إـلـىـ مـكـهـ ، لـيـصـومـ فـيـهـ شـهـرـ  
رمـضـانـ وـالـحـرـ شـدـيدـ ، فـقـالـ لـهـ : أـتـجـمـعـ عـلـىـ نـفـسـكـ الصـومـ وـحـرـ تـهـامـةـ ؟  
فـقـالـ : مـنـ الـحـرـ أـفـرـ ؟ وـقـيلـ لـرـوـحـ بـنـ قـيـصـةـ بـنـ الـمـلـبـ ، وـهـوـ وـاقـفـ فـيـ  
الـشـمـسـ عـلـىـ بـابـ الـخـلـيـفـةـ : لـقـدـ طـالـ وـقـوـفـكـ فـيـ الشـمـسـ ! فـقـالـ : الـظـلـ أـرـيدـ .

فقال أبو تمام :

أَآلْفَةُ التَّحِبِ كُمْ افْتِرَاقٌ  
وَلَيْسَ فَرْحَةُ الْأَوْبَاتِ إِلَّا  
وَسَمِعَ أَبُو تَمَّامَ قَوْلَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسِ:  
إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرِيَّ عَلَيْكَ قَضَاءَ اللَّهِ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزَعْتَ جَرِيَّ  
عَيْكَ أَمْرَ اللَّهِ وَأَنْتَ مَوْزُورٌ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْلُ احْتِسَابًا سَلْوَتْ كَا تَسْلُ  
بَهَائِمَ، فَكَاهَ حَكَايَةُ حَسَنَةٍ فِي قَوْلِهِ :

وَقَالَ عَلَىٰ فِي التَّعَازِي لِأَشْعَثٍ  
أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَى رِجَاءً وَحَسْبَةً  
خَلَقْنَا رِجَالًا لِلتَّجَلِّدِ وَالْأَسَى  
وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضُ تَلْكَ الْمَآتِمِ  
فَتَقْوِيرُ أَمْ تَسْلُو سَلْوَ الْبَهَائِمِ  
وَتَلْكَ الْغَوَافِ لِلْبَكَا وَالْمَآتِمِ  
وَلَمْ يَكُنْ لَّابِي هَلَالٌ أَنْ يَعْدَ هَذَا مِنَ السَّرْقَةِ، وَلَا أَنْ يَذْكُرَهُ فِي بَابِهِ  
أَنَّ أَبَا تَمَّامَ سَمِعَ الْمَعْنَى فَأَبْعَجَهُ فَنَظَمَهُ، وَلَمْ يَنْسِبْهُ إِلَى نَفْسِهِ، أَوْ يَخْفِي دِيَبِيهِ  
إِلَيْهِ . وَلَكِنَّهُ أَسَنَهُ إِلَى قَائِلَهُ صِرَاطَهُ، وَذَكَرَ الْمَقْولَ لَهُ، وَمَنَاسِبَةَ الْقَوْلِ،  
وَإِنْ كَانَ الْبَيْتُ الْآخِرُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْرِ لِمَا قُتِلَ أَخْوَهُ مَصْعُوبٌ :  
وَإِنَّمَا النَّسْلِيمُ وَالسَّلْوَةُ لِحَزَمَاءِ الرِّجَالِ، وَإِنَّ الْمُلْعُ وَالْمُجَزِّعُ لِرِبَاتِ الْمَحَاجَلِ :  
إِنَّ الْأَخْذُ وَالنَّقْلُ بِحَاجَةٍ كَمَا يَرِي أَبُو هَلَالٍ إِلَى الْحَذْقِ وَإِلَى الْفَطْنَةِ ،  
حَتَّىٰ يَكُونَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَسْلُمَ الْمَعْنَى لِلْأَخْذِ ، وَيَكُونَ مِنَ الْعُسْرِ عَلَى الْقَارِئِ  
أَوِ السَّامِعِ أَنْ يَفْطُنَ إِلَى النَّقْلِ ، أَوْ يَتَبَيَّنَ إِلَى الْأَصْلِ . وَنَاقِدُ الْأَدْبُ أَكْثَرُ  
حَاجَةَ مِنَ الشَّاعِرِ أَوِ النَّاثِرِ إِلَى الْحَذْقِ وَالْفَطْنَةِ وَسُعْدَ الْأَطْلَاعِ . حَتَّىٰ يَسْتَطِعَ  
بِكُلِّ أَوْلَئِكَ أَنْ يَعْرُفَ الْمَصَادِرُ وَالْمَوَارِدُ ، وَأَنْ يَرِدَ الْمَعْنَى إِلَى صَاحِبِهِ  
وَالْقَوْلِ إِلَى قَائِلِهِ ، مِمَّا اسْتَطَاعَ الْأَدِيبُ بِهَارَتَهُ إِخْفَاءَ الْأَخْذَ أَوِ النَّقْلَ ،  
بِتَعْبِيرِ الْفَرْضِ الْأَصْلِيِّ ، وَوَضْعِ الْمَعْنَى فِي مَعْرِضٍ آخَرَ ، أَوْ كَسْوَتِهِ ثُوَبًا

جديداً من الألفاظ أو غير ذلك مما يعمل الأديب فيه جده مبالغة في  
التعمية والإخفاء.

ولهذا كان علينا أن نعرف لأبي هلال قدره ، وأن نحكم له بالقدرة  
الفاقة وطول الاباع وسعة الاطلاع ، من هذا الباب الندى الذي وفق فيه  
إلى حشد هذه التصوص والفطنة إلى أصولها ، فن ذلك مارواه أن أيام  
سمع قول زياد لأبي الأسود وقد سأله ولایة : لو لا أنك ضعيف لاستعملتك  
 فقال أبو الأسود : إن كنت تريدين للصراع فإني لا أصلح له ، وإنما  
شديد أن أمر وأنهى ! فقال أبو عام ، وقد نقله إلى الغزل :

تعجبُ أن رأت جسمى نحيفاً      كأنَّ المجدَ يدرك بالصراع  
ومن أمثلة نقض الشعر وإيراده في النثر أن أمر أقيس قال :  
بعض اللوم عاذتني فإنِّي ستكلفني التجارب وانتسابي  
يقول لا أنتسب إلا إلى ميت ، فقال لميد :

فإن لم تجده من دون عدنان والدا      ودون معد فلتሩك العواذل  
فأخذه الحسن البصري فقال ثرآ : إن امرأ لم يعد بينه وبين آدم عليه  
السلام إلا أبو ميتاً معرق له في الموت . فأخذه أبو نواس فقال :  
وما الناس إلا هالك وابن هالك      ذو نسب في الحالكين عريق  
(ب) والأخذ القبيح يكون بأحد سبلين أو لهما أن يعمد الآخذ إلى  
المعنى فتناوله بلفظه كله أو أكثره<sup>(١)</sup> كقول طرفة :

وقوافاً بها صحي على مطيمهم      يقولون لا تهلك أسي وتجلد  
وهو قول أمرىء القيس :

(١) سئل أبو عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان على لفظ واحد ومعنى  
قال عقول رجال توافقت على ألسنتها .

وقوافاً بها صحبي على مطينهم  
يقولون لا تهلك أسي وتحمل  
فغير طرفة القافية .

وقال الحارث بن وعلة :

الآن لما أيضٌ مسْرُّبٌ  
وعضضت من نابٍ على جذم<sup>(١)</sup>  
وقال غسان السليطي :

الآن لما أيضٌ مسْرُّبٌ  
وعضضت من نابٍ أجزامي  
وقال البعيث :

أترجو كليب أن يجحى به حديثها  
بنجير وقد أعيَا كليباً قد عيَها ؟  
وقال الفرزدق :

أترجو ربيع أن يجحى به صغارها  
بنجير وقد أعيَا ربيعاً كبارها ؟  
وهذا كثير في أشعارهم ..

والعسكري الذي يرى اشتراك الناس في المعانٍ بعد الأخذ على هذه  
الصورة قبيحاً معيماً ، وإن ادعى أن الآخر لم يسمع قول الأول بل وقع  
لذا كما وقع لذاك فإن صحة ذلك لا يعلمها إلا الله عن وجل ۚ ، والغريب  
لازم الآخر<sup>(٢)</sup> .

ويبدو من هذا أن أبا هلال ينافق نفسه حين يلزم الآخر الغريب ،  
وقد سبق له أن جوز وقوعه ، واستدل على جواز الاتفاق بما أورد لنفسه  
ما وافق فيه قول غيره وإن كان لم يره . وبقوله إن عمر بن أبي ربيعة أنسد  
ابن عباس رضي الله عنه :

(١) المسربة : الشعر وسط الصدر إلى البطن . والجلنم : أصل الشيء ، وجذم  
الأسنان منابتها ، والمعنى : كبرت حتى أكلت على جذم نابٍ .

(٢) الصناعتين ۲۱۹ .

تشط غداً دار جيراننا

فقال ابن عباس : ولَلَّدَارُ بَعْدَ غَدِ أَبْعَدُ .

فقال عمر : وانه ما فلت إلا كذلك ا

والجليل في هذا البحث أن يتتبه أبو هلال بفطنته إلى أثر البيئة في اتفاق المعان وجواز توارد الخواطر ، ونعتقد أنه من السابقين إلى التنبية إلى أثر البيئة فيها يصدر عن أصحابها بقوله : وإذا كان القوم في قبيلة واحدة ، وفي أرض واحدة ، فإن خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة ، ويروى قصة له مع الصاحب ابن عباد تمثيل قصة ابن أبي ربيعة وابن عباس . فيروى أنه أنشد الصاحب :

كانت سراة الناس تحت أظلة

فسقه الصاحب فقال :

فقدت سراة الناس فوق سراة

وكذلك كان قال : وبهذا يجوز الادعاء بالاتفاق ، وإن كان الظاهر الأخذ والتقليل .

أما الضرب الثاني من الأخذ القبيح فهو أن يأخذ المتأخر المعنى فيفسده أو يعوّنه أو يخرجه في معرض قبيح ويكسوه كسوة مسترذلة .

وقد مثل العسکرى لهذا الضرب بأمثلة كثيرة منها :

(١) قول أبي كريمة :

ففاه وجه ثم وجه الذي ففاه وجه يشبه البدرا  
ولإما أخذها من قول أبي نواس :

باب أنت من مليح بديع بذ حسن الوجه حسن ففاكا  
وأحسن ابن الروى فيه فقال :

ما سامي اعراضه عنى ولكن سرني  
سالفاته عوض من كل شيء حسن

وأخذه أبو نواس من قول النابغة النعمان بن المنذر : أيفا خرك  
بن جفنة ؟ واللات لأمسك خير من يومه ، ولقد لاك أحسن من وجهه ،  
وليسارك أسمح من يميئنه . ولعيديك أكثر من قومه ، ولنفسك أكبر من  
جندك ، وليومك أشرف من دهره ، ولو عدك أنجز من رفده ، ولهذاك  
أصوب من جده ، ولكرسيتك أرفع من سريره ، ولفترك أبسط من  
شهره . ولأمك خير من أبيه !

والنابغة أخذ ذلك الجماعة لأنه ذكر القذال ، وهؤلاء قالوا القفا ،  
ولا يصح أن يخاطب الرجل فيقال له : قفاك حاله كذا وكذا ..

(٢) ومن ذلك قول الحسن بن وهب ، وقد سمع قول أعرابي اجتمع  
مع عشيق له في بعض الليالي : اجتمعت معها في ظلمة الليل وكان البدر  
برينها ، فلما غاب أرتهيه ، فقال :

أراني البدر سنتها عشام فلما أزمع البدر الأفولا  
أرتهيه بستتها فكانت من البدر المنور لي بديلا  
فأطال الكلام ، وجعل المعنى في بيتين ، وكرر السنة والبدرا

(٣) وقول البحترى :

من غادة منعت وتنع نيلها فلو أنها بذلت لنا لم تبذل  
أخذه من قول عبد الصمد بن المذعل :

ظبي كأنه بخصره من دقة ظمأ وجوعا  
ومن البلية أثني علقت منوعاً منوعاً

بيت عبد الصمد أبين معنى مع شدة الاختصار ، ويبيت البحترى

كالعويس ، لا يقام إعرابه إلا بعد نظر طويل .  
ومن هذا يتضح أن مقياس قبح الأخذ واحد من عدة أمور :

- (١) أخذ المعنى بلفظه كله .
- (٢) أخذ المعنى بجمل لفظه .
- (٣) عرض المعنى الجميل في معرض مستهجن .
- (٤) أخذ البين الواضح ياخفائه .
- (٥) أخذ الموجز المختصر ياطالته من غير زيادة في معناه .

ولقد كان في هذا الباب موافقاً كما أسلفنا لأنه عالمه بروح أديب ذي ذوق سليم واطلاع واسع ، فجمع ووازن ، وبين فضل السابق على اللاحق ، أو مهارة المتأخر على المتقدم ، وكان له أن يفخر على من تقدمه بقوله : وقد أتيت في هذا الباب على الكفاية . ولا أعلم أحداً من صنف في سرق الشعر فشل بين قول المبتدئ وقول التالى ، وبين فضل الأول على الآخر والآخر على الأول غيرى . وإنما كانت العلماء قبلى ينهون على مواضع السرق فقط ، فقس بما أوردته على ما تركته (١) .

---

(١) الصناعتين ٢٢٥ .

# بلغة النياهة

وأثرها في البلاغة والبلاغيين

هذه المقاييس التي استنبطناها في الفصل السابق ، منها ما كان رائده العقل والفكر ، ومنها ما كان رائده الحس المرهف والذوق الأدبي ، ولم يكن هنا لك بد من الجمجمة بين المذهبين لما سلف في التقاديم . والمقاييس في الحالين له حظه من الاعتبار في نظر الذين يؤثرون قياس الأدب ونقده بالدرية والذوق والممارسة ، وله أيضاً حظه من الاعتبار عند الذين جنحوا إلى تقنين الأدب ليكون كغيره من العلوم التي نظمت مسائلها ، وذلت مسالكها بقوانين العلم الثابتة .

وضع العسكري هذه المقاييس بأسلوبه التقريري ومنهجه التعليمي ، ليقتفيها من يريد أن يكون بليناً سواء كان شاعراً أم ناقداً أم يعالج الشعر والنشر ، وقد كان لهذا الأسلوب أثره في تحويل مجرى النقد الأدبي من الاحتكام إلى البصيرة الواقعية والذوق المستقيم ، يضمنهما الإطلاع الواسع على آثار خول الكتاب والشعراء الذي يعين على وزن الكلام وموازنته بعضه بعض ، لتبين أسباب القوة وتظهر عوامل الضعف ، إلى علم منظم ذي قواعد وأصول هو علم البلاغة .

وال العسكري من غير شك أول من وضع اللبنات الأولى في هذا العلم ، وأول من كتب في البلاغة بحثاً مستفيضاً مبنياً على قواعد العلم ومتأنقاً بمنطق العقليين ، حتى عدّ علم البلاغيين ، اتخذوا بحوثه نواة لدراساتهم وأصلاً لتراثهم ، فلما تقادم تجدد بحثاً استقصى فيه صاحبه منابعه وموارده إلا ذكر

المسكري<sup>١</sup> بين أوائل الواردين ، وقد وصفه الطلوي في طرازه بأنه كان متقدماً في علم البلاغة على غيره ، آخذآ منها بحظ وافر<sup>(١)</sup>، كما أن عبد القاهر ذكر آراءه كثيراً في كتابيه . وإن يكن الملاحظ قد سبق المسكري إلى القول في الفصاحة والبلاغة ، وأورد كثيراً من أقوال الناس فيها على اختلاف مواطنهم وأجناسهم في كتابه البيان والتبيين ، إلا أن الإيابة عن حدود البلاغة وأقسام البيان الفصاحة مشوّهة في تصاعيفه و منتشرة في أثناءه ، في ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير ، كما قال أبو هلال<sup>(٢)</sup> الذي تناول التعريفات والحدود التي أوردها الملاحظ وغيره ، ففصلها وشرحها وحللها وأضاف إليها من علمه ورأيه شيئاً كثيراً .

\* \* \*

فالبحث في الفصاحة والبلاغة الذي شغل علماء البلاغة منذ كانت نبتاً صغيراً حتى أفرغوا ما في حجبتهم في محاولة فهمها ، وبيان أسباب اختلافهما ونواحي اختلافهما ، كل ذلك مدين بتنظيمه لأبي هلال واقتضاه المؤلفون في البلاغة من جاموا بعده ، بجعلوا هذا الباب أول موضوعات البلاغة تكلموا في أصل اشتقاقة اللغو<sup>٣</sup> ، وأيضاً يكون في اللفظ أو في المعنى ، أو في الكلمة أو الكلام أو المتلجم ، كما فعل أبو هلال تماماً .

\* \* \*

ولأن كان اللفظ عند أبي هلال هو كل شيء ، والتجلية فيه مدار البلاغة في رأيه بمحارة للجاحظ فيما ذهب إليه ، لقد تصدّى لهذا الموضوع «اللفظ والمعنى» كل من عرض لموضوع البلاغة من الذين جاموا بعد المسكري بين مترين اللفظ هائم بالصناعة ، ومتغصب لمعنى هاله هذا التيار من الإعجاب

(١) الطراز : ج ٢ ص ٣٢٠ . (٢) الصناعتين ٧ .

بالصياغة ، فكان خلاف شديد ، ولكن هذا الخلاف لم يتخذ شكلاً أديباً  
بقدر ما اتخذ شكلاً كلامياً وسلك أسلوباً جديرياً ، لا غنية فيه لناقد الأدب  
أو لطالب البلاغة

يبين في الفصل السابق كيف كان العسكري أشد العلماً تغالياً في تقدير  
اللفظ . وأرجعنا ذلك إلى مذهب الرجل وإيثاره مذهب الصنعة ، ومن المقرر  
أن كل مذهب من المذاهب جنح دعاته إلى المغالاة فيه والتعصب له ، لابد  
أن يجده تياراً مناهضاً يسير في عكس الاتجاه الذي سار فيه ، وهذا وجدنا  
فريقاً من المغالين أيضاً في تقدير المعنى يحملونه كل شيء ، ويحددون اللفظ  
فلا يجعلونه شيئاً . وقد ترجم هذا الفريق إمام من آئمة البلاغة وعلم من  
أعلام الفكر هو عبد القاهر الجرجاني ، الذي عاجل الموضوع بأسلوبه  
الكلاميّ ومنطقه الجدليةً ، لقد تشيع للمعنى ، ورأى أن الأديب لا يتطلب  
جهداً في اختيار اللفظ أو إجاده الصياغة ما دام المعنى حاضراً في الذهن ،  
ولا يتصور أن يصعب مراعاة اللفظ بسبب المعنى ، وأن ت إذا أردت الحقّ  
لا تطلب اللفظ بحال ، ولكنك إذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك وإزاء  
ناظرك (١) ، حتى الألفاظ إن جاز وصفها بالفصاحة فليس ذلك أسبباً في  
ذاتها ، وإنما جاز وصفها بالفصاحة لاعتبار مكانها من النظم ، وحسن ملامة  
معناها لمعنى جاراتها ، وفضل موانتها لأنواعها . حتى نظم الكلام في نظر  
عبد القاهر لا يؤثر فيه للعناية بالألفاظ ووصفها ، وليس للأديب جهد في تلك  
الناحية ، وإنما تكون جودة الرصف نتيجةً لجودة ترتيب المعانى في النفس ،  
والأديب يقتني في نظم الألفاظ آثار المعانى ، ويرتبها على حسب ترتيب  
المعانى في النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ،

(١) دلائل الإعجاز ٤٩ .

وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء ككيف جاء واتفق ، وليس الغرض بنظم الكلم أن تتوالى ألفاظها في النطق ، بل أن تتناسق دلالتها ، وتتلاقى معاناتها على الوجه الذي يقتضيه العقل ، ولو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الفرض ترتيب المعانى في النفس ، ثم النطق بالألفاظ على حدودها ، لكان ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه ، لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً ، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يحمله الآخر<sup>(١)</sup> .

أما ما قد يكون في الكلام من تقديم أو تأخير فرده إلى حصول هذا التقديم أو التأخير في النفس ، فإن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا حالة تتبع المعانى في مواقعها ، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب في اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق<sup>(٢)</sup> .

لقد أراد المرجاني بهذا الأسلوب الذي اقتطعنا فقرات منه أن يحصر الكلام كله في المعنى ، وجعله مناط الإجادة ومدار البلاغة ، وللرجل عذرنه فهو رجل من رجال العلم والعقل والتفكير ، وليس يرضى بالذوق وحده هادياً حتى يهديه العقل ، ويأخذ بيده التفكير إلى أبعد حدوده ، ولم يكن في هذا البحث الذي استند ما رأيت من الجهد غناه لطالب البلاغة أو طالب البيان ، ذلك أن هذا الجدل الذي رأيت بعض صوره هو الذي غالب هذا الأسلوب فيما بعد في دراسة البلاغة ، بل تجاوزها إلى سائر العلوم لسانية أو غير لسانية .

ويجيء بعد عبد القاهر عالم من طراز آخر ، ليس عنده هذا التعمق في التفكير وإقامة الحجة ، ولكنه لا ينقصه الذوق ولا يعزوه الاطلاع

(١) المصدر السابق ٤١ . (٢) المصدر نفسه ٤٣ .

على رأى هذا أو ذاك ، لا يتقبل هذا المنطق والقياس ، وإن كان يسلم إلى نتائج يرضاها العقل ويطمئن إليها ، لا يرضى هذا الرأى ، بل يؤثر جانب اللفظ على جانب المعنى في تقدير البلاغة أو تقدير القيم الفنية للأدب ، ذلك العالم هو ضياء الدين بن الأثير الذى يرى النظم والنشر إنما يكون الحسن فيما من الألفاظ ، ويستدل بالذوق شاهداً ، والصياغة والتجاء الأديب إلى التغير والتائق في الألفاظ . وهذا من الأمور المحسوسة التي شاهدها من نفسها ، لأن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات ، فالذى يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن ، والذى يذكره وينفر عنه هو القبيح . ألا ترى أن السمع يستلذ صوت الببل من الطير وصوت الشحرور ويميل إليها ، ويذكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره نهرق الحمار ، ولا يجد ذلك في صهيل الفرس ، والألفاظ جارية هذا المجرى ، فإنه لاختلاف في أن لفظة المزنة والديمة حسنة يستلذها السمع ، وأن لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع ، وهذه اللفظات الثلاثة من صفة المطر ، وهى تدل على معنى واحد ، ومع ذلك فإنك ترى لفظي المزنة والديمة وما جرى مجرأهما مألوفة الاستعمال وترى لفظ (البعاق) وما جرى مجرأه متزوكا لا يستعمل ، وإن استعمل فانما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو من ذوقه غير سليم ، لاجرم أنه ذم وقدح فيه ولم يلتفت إليه ، وإن كان عريياً محضاً من الجاهلية الأقدمين<sup>(١)</sup> . ما قول الجرجاني في هذا البيان؟ وما رأيه في هذه الحجة الصحيحة التي تتمشى مع الذوق ، وتنمشي مع العقل؟

بل ما قوله في الذى يحكى عن المبرد رحمه الله تعالى ، أنه قال : ليس أحد في زمان إلا وهو يسألنى عن مشكل من معانى القرآن أو مشكل من معانى

(١) المثل السائر ٤١ .

ال الحديث النبوى ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربية ، فأنا إمام الناس فى زمانى هذا ، وإذا عرضت لى حاجة إلى بعض إخوانى وأردت أن أكتب إليه شيئاً في أمرها أحجم عن ذلك ، لأنى أرتب المعنى فى نفسي ، ثم أحاول أن أصوغه بالفاظ مرضية فلا أستطيع ذلك ! ولقد صدق فى قوله هنا وأنصف غاية الإنفاق . ولقد رأيت كثيراً من الجماليين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزاوج بين لفظتين ، فالعبارة عن المعنى هي التي تخليب بها العقول . وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعنى ، فإنه لا يمنع الجاهل الذى لا يعرف علماً من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة ، واستخراج المعنى إنما هو بالذكاء لا بتعلم العلم<sup>(١)</sup> .

إن المعنى الذى يختصر فى النفس أولاً كما يقول الجرجاني هو معنى السباحة . أو هذا الجرم بين السماء والأرض يسقط منه المطر . وهذه الألفاظ ، وقد يكون إلى جانبها غيرها مما يدل دلالتها بما يختار على الذهن أيضاً ، ويأتى عن الأديب بعد استواء المعنى لديه فيميز بين الألفاظ . ويفاضل بين لفظ وآخر ، ثم يختار لنظمه ما يلام ذوقه وما يظن أن أذواق الناس ترتضيه ، إذ كان عمله الفنى يحاول به إشراك غيره ، فيما أثار نفسه وهاج شاعريته من انفعالات وأحاسيس .

ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع المعنى لكان ذلك هذه الألفاظ فى الدلالة عليه سواء ، ليس منها حسن ومنها قبح ، ولما لم يكن كذلك علينا أنها « الفصاحة » ، تخص اللفظ دون المعنى ، وليس لقائلها هنا أن يقول : لافظ إلا بمعنى فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى ؟ فإن لم أفضل بينهما ،

---

(١) مثل السائر ٤٥ ، ٤٦ .

ولئما خصت اللفظ بصفة هي له ، والمعنى بحسبه فيه ضلناً وتبناً (١) .

<sup>(٢)</sup> والعلوى يأخذ في الطراز بنظرية عبد القاهر في دلائل الإعجاز .

وإن كان لا يصرح بهذا الأخذ فيقول : إياك أن يعتريك الوهم ، أو يستولي على قلبك غلة ، فتظن أنا لما قلنا إن الألفاظ دالة على المعانى فتعتقد من أجل ذلك أن المعانى تابعة للألفاظ وأنها مؤسسة عليها ، فهذا أو أمثاله خيال باطل وتوهم فاسد ، فإن الألفاظ في نفسها هي السابقة للمعانى ، وإن المعانى هي السابقة بالتقرير والشوت ، والألفاظ تابعة لها <sup>(٣)</sup> .

لأن كان المحافظ وغيره من سبقو العسكري تكلموا في اللفظ. أو آثروه بوجوب الرعاية له والاهتمام به ، لقدر كان علاجهم أبداً موجزاً ، أما الإفاضة في منزلة اللفظ ونزلة المعنى وإقامة الحجة والدليل على أن أحد هما مدار البلاغة فإن العسكري هو أول من نصب لذلك ، فتحصّب لللفظ وجعله الأدب كله ، وفتح مثل هذا البحث الجدل " الذي لا يخرج منه صناع الأدب بطائل ، وقفاه الجرجاني ، فنقض قوله وأثر المعنى وجعل اللفظ

### (١) المصدر السابق .

(٢) أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوى اليمى ، وكتابه « الطراز ، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز » يعد من الموسوعات التي ألفت في البلاغة ، لسعة موضوعه ، وغزاره مادته ، وإحاطته بجمل ما كتب في البلاغة والنقد قبله . وله غيره : كتاب الانتصار على علماء الأمصار في تقرير اختار من مذاهب الأئمة وأقاويل الأمة . وقد صاغه في ثانية عشر مجلداً . وكتاب الحاصل للقواعد مقدمة طاهر ، وهو شرح على مقدمة أبي الحسن طاهر بن أحمد بن باشاذ ابن داود المصري . ولد سنة تسع وستين وستمائة وقد تقلد باليمين إمارة المؤمنين ، وقضى نحبه سنة تسع وأربعين وسبعيناً . (٣) الطراز ج ١ ص ١٨٦ .

تابعاً بأسلوبه العلمي المنهجي الذي قرأت فقرات منه ، وآثر صاحب المثل السائر مذهب الملاحظ وأبي هلال ، وتابع العلوي عبدالقاهر فيما ذهب إليه ، وتابع البلاغيون في الانتصاف لهذا الرأى أو لذاك .

على أن هؤلاء جميعاً لم يحسنوا علاج هذا الباب من الناحية الأدبية بل التزموا الناحية العقلية المنطقية ، فلم يفده الأديب من دراسة هذا الرأى أو ذلك شيئاً يعود على إنتاجه الأدبي بعائد ، ولم يفده الناقد كذلك شيئاً يعود على صناعته بفائدة .

ما جدوى أن المفظ يحرر المعنى ؟ . وما جدوى أن المعنى يستدعي المفظ وأنه إذا تهيأ للأديب فاللفظ بين يديه وطوع أمره ؟

\* \* \*

لقد كان ما فعل أبو هلال حين قسم الألفاظ إلى طبقات وبين المقبول منها والمردود خيراً ما يقدم لطلاب الأدب ، كما كان علاجه للمعاني وتقسيمه إليها إلى جديدة مبتكرة ومبسوقة إليها مقلدة واشترط الصواب في كلٍّ مما بحثَّه أدبياً نقيضاً ناجحاً . ولو أن هؤلاء الأعلام اجتذعوا بمثل هذا البحث وقصروا جهودهم عليه لكان ذلك أولى من الجدل العقيم الذي كدوا أنفسهم فيه ، ولم يخرجا منه بطالٍ .

\* \* \*

نعم ، فتح أبو هلال القول في كثير من موضوعات الأدب ، وكان له أنصار أخذوا عنه ما قال ، ومن جملة ذلك أن المسكري قسم المعاني قسمين أحدهما ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدى به فيه أو رسوم فائمة في أمثلة نماذجها يعمل عليها ، وقد يعرض هذا الضرب للشاعر عند الخطوب الخادمة . ويتبينه له عند الأمور النازلة الطارئة . وثانيةهما

ضرب يختذى على مثال سبق ورسم فرط ..

وأخذ صاحب المثل السأر هذا القول ، فيقسم المعانى هذين القسمين ويکاد يعبر عنهما بعبارة العسكري نفسه فيقول : المعانى على ضربين أحدهما يبتدىعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه ، وهذا الضرب ربما يعيش عليه عند الحوادث المتتجدة ، وينتهي له عند الأمور الطارئة<sup>(١)</sup> ثم أضاف القول في هذه الأمور الطارئة وما استدعته من معانى جديدة .. أما الضرب الآخر من المعانى ، وهو الذى يختذى فيه على مثال سابق ومنهج مطروق ، فذلك جل ما يستعمله أرباب الصناعة ، ولذلك قال عنترة :

### هل غادر الشعراء من متقدم<sup>(٢)</sup>

وكذلك تابع ابن الأثير أبا هلال في تقسيم الألفاظ ، قسمها أبو هلال إلى جزلة وسهلة وقسمها ابن الأثير إلى جزلة ورقية ، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحرب وفي قوارع التهديد والتخييف وأشباه ذلك . أما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأسواق وذكر أيام العياد وفي استجلاب المودات وملائينات الاستعطاف وأشباه ذلك ، وربما كان معنى الجزل عند صاحب المثل السأر أقرب إلى الفهم من معناه عند العسكري . ولتعبيره بالرقة بدل الملاسة فيه من الوضوح ما ليس في الثاني فلا يعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهية البداءة بل يعني بالجزل أن يكون متيناً على عنديبه في الفم ، ولذا ذهنه في السمع ، وليس يعني بالرقيق أن يكون ممسينا وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس<sup>(٣)</sup> ، وكلامه في هذا قریب

(١) المثل السأر ١٨٧ . (٢) المصدر السابق ٢٠٩ .

(٣) المصدر السابق ١٠٠ .

من قول العسكري ، إلا أنه أقرب إلى الوضوح منه ، فليست المجزالة التوعر وإنما هي المثانة مع استساغة السمع واللسان فرجع تقديرها إلى الذوق وحده .  
كذلك فتح أبي هلال باب القول في السرقات على الوجه الذي رأيت في الباب السابق ، وتبعده بعض علماء البلاغة ، فاحتذوه وزادوا عليه في الأقسام وفي الألقاب ، ومن فعل هذا ضياء الدين بن الأثير فإنه تكلم في السرقات فقسمها ثلاثة أقسام :

- (١) النسخ : وهوأخذ المعنى برمهته من غير زيادة عليه ، مأخوذاً ذلك من نسخ الكتاب .
- (٢) السلح : وهوأخذ بعض المعنى ، مأخوذاً ذلك من سلح الجلد الذي هو بعض الجسم المساو .
- (٣) المسخ : إحالة المعنى إلى ما دونه ، مأخوذاً ذلك من مسخ الآدميين قردة .

ثم زاد على هذه الأقسام الثلاثة قسمين : أحدهما أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، والآخر عكس المعنى إلى صدده ، وهذا القسمان ليسا بنسخ ولا سلح ولا مسخ .

وعن ابن الأثير بعد ذلك بالتفريعات ، فجعل النسخ ضربين ، وجعل السلح اثني عشر ضرباً ، والمسلح ضربين ، وزاد عليه المتأخرون ما شاءوا من الأنواع والتقاسم ، وهذه الأنواع كلها ، والضروب التي أتوا بها ، منتزة من كلام أبي هلال ، وأكثر ما مثلوا به هذه الأقسام مما أورد في كتاب الصناعتين .

• • •

كان تحيز أبي هلال للفظ وما كتب في تفضيله هو الذي دعا عبدالقاهر

إلى أن يتعصب للمعنى على الوجه الذى سلف ، ويدفعه هذا التحصب إلى أن يكتب في تعلق الكلم ببعضها البعض ، وهى كما يراها معانى النحو وأحكامه ، فخل النحو عمدة دراسته ، وما ينشأ عن وضع الكلمة وموضعها الإعراب في التراكيب ، من تغير فى المعنى قوة وضعفها ، وفصلاً ووصلًا ، وإيجازاً واطناناً وقصراً ، وهذه الدراسة النحوية يبنى عليها دراسة المعانى ، وسميت دراسة معانى النحو علم المعانى عند البلاغيين ، وجعل علماً مستقلاً من علوم البلاغة الثلاثة .

وقد سبق عبد الله بن المعتز صاحب الصناعتين ودلائل الإعجاز إلى تحديد علم البديع وسي كل محسن باسمه ، وإن كان أدخل فيه مالم يجعله البلاغيون منه كالاستعارة والتشبيه ، فتميز هذا العلم على يديه وكان همّ من بعده الوقوف على ضروب جديدة من ضروب تحسين الكلام .

أما علم البيان فإن أكثر أهل الفن يسمى جميع فنون البلاغة علم البيان لتعلقها جائعاً بالبيان وهو المطلق الفصيح المعرف بما في الضمير ، وبعضهم أطلقه على البيان والبديع معاً ، تعليباً للبيان المتبع على البديع التابع . وبعض علماء البلاغة يسمى العلوم الثلاثة (المعانى والبيان والبديع) علم البديع ، لأن البديع هو الشيء الذى يستحسن لظرافته وغرابته وعدم وجود مثاله من جنسه وهذه العلوم كذلك<sup>(١)</sup> .

لقد كان البيان من قبل اسمها شاملًا لكل ما يتصل ببناء الكلام وتأليفه سواء منه ما يتصل بالألفاظ والمعانى أو بوجوه التحسين اللفظي والتحسين المعنوى ، وبهذا المعنى فهمه العلماء والأدباء والنقاد إلى عهد عبد القاهر ، وجاء السكاكي ونظم العلوم الثلاثة ، وحدد مباحثها التحديد الذى لا يزال أساس

(١) مواهب الفتاح . شروح التخلص ج ١ ص ١٥١ .

دراستها إلى اليوم في الجزء الخاص بالبلاغة من كتابه « مفتاح العلوم »

٥٥٥

ومع أن العسكري لم يكن له يد في تقسيم العلوم التي تعالج فن الكلام هذا التقسيم التقليدي، إلا أنه عالج من مباحث هذه العلوم موضوعات كثيرة كانت أساس موضوعات كثيرة من مباحث علوم البلاغة كما يأتى :

(١) فعلم البيان : الذي عرفه البلاغيون بأنه العلم الذي يبحث في

التعبير عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة في وضوح الدلالة على المعنى المراد، عالج أبو هلال من مباحثه الشبيه فعرفه تعرضاً لا يختلف كثيراً في دلالته عن تعريف المتأخرین، وأفاض القول فيه وفي صنوفه، وفي الجيد والقبيح منه، وذكر أركانه، وتعرض للنوع الذي حذفت منه الأداة ووجه الشبه (الشبيه البليغ) وإن كان لم يسمه بهذا الاسم الذي لا معنى له في نظرنا، لأن هذا الشبيه البليغ قد يكون غير بليغ، وقد يكون الشبيه كاملاً الأركان أكثر بلاغة منه في موضعه، والشبيه أكثر أبواب الحیان وروداً في أشعار العرب وكلامهم وربما كان هذا الأسلوب أكثر الأساليب بيانية قرباً من الطبيعة للمحاجة إليه في التوضيح والتزيين والتقبیح، وهو جارٌ كثير في كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد<sup>(١)</sup>».

ومن أقدم الذين عالجوا الشبيه باعتباره أساساً من أساس البيان أبو العباس المبرد، فقد عقد له في كتابه « الكامل » باباً طويلاً استغرق نحو ثمانين صفحة، ويقول في آخريات هذا الباب « والشبيه كثير وهو باب كأنه لا آخر له، وإنما ذكرنا منه شيئاً لئلا يخلو هذا الكتاب من شيء من المعنى<sup>(٢)</sup> ». ولكن كان علاج المبرد لهذا الموضوع علاجاً استقرائياً تقليدياً

يعرض فيه ألواناً من تشبيهات القدامى والمحديثين، ويتعلق عليها بالاستحسان أو بالاستهجان.. وقد يورد في أثناء عرضه الاستطرادي شيئاً من التشبيهات التقليدية ، ولا غرو فإنه من أعمال المحافظين فيقول «والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغضن والغزال والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدرة والبيضة<sup>(١)</sup>... وشبهوا عين المرأة والرجل بعين الطبي أو البقرة الوحشية والأذن بحد السيف ، والفم بالحاتم ، والشعر بالعنقىد ، والعنق يابريق فضة والساقي باجمار<sup>(٢)</sup> .

ومن النادر أن تجد للمفرد شيئاً في الحدود والتقاسيم كقوله : والعرب تشبه على أربعة أضرب ، فتشبيه مفترض ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أحسن الكلام<sup>(٣)</sup> وعالجه أبو الفرج قدامة علاجاً موجزاً في التحديد على غير عادته ، وأكثر من سرد الشواهد وتوسيع التشبيه فيها ، وعرفه بأنه يقع بين شيئاً وبينهما اشتراك في معانٍ تهمّما ، ويوصفان بهما ، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منها بصفتها<sup>(٤)</sup> .

أما أبو هلال فقد عرض التشبيه عرضاً شاملاً، عرفة ، وذكر وجوهه وأنواع الجيد منه ، وعقد باباً لبيان قبح التشبيه وعيوبه . عرفه بأنه الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناسب الآخر بأداة التشبيه وقسمه إلى ثلاثة أقسام :

(١) تشبيه شيئاً متغيراً من جهة اللون ، مثل تشبيه الليلة بالليلة والماء بالماء .

(١) الكامل ج ٣ ص ١٨ . (٢) المصدر نفسه ص ٦٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦٣ . (٤) نقد الشعر ١٠٨ .

(٢) تشبيه شيئاً متفقين يعرف اتفاقهما بدليل، كتشبيه الجوهر بالجوهر والسوداد بالسوداد.

(٣) تشبيه شيئاً مختلفين لمعنى يجمعهما ، كتشبيه البيان بالسحر ، والمعنى الذي يجمعهما لطاقة التدبر .

ثم قسم التشبيه تقسيماً آخر من حيث الصورة، واللون، والحسن، والحركة والمعنى . عرض أبو هلال للتشبيه البليغ ، وجعله ضرباً مستقلاً ، وإن لم يسمّه بهذا الاسم الاصطلاحى ، وهو الذي يحذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه . قال : وضرب منه آخر ومنه قول أمير المؤمنين :

سموٌ حباب الماء حالاً على حال  
سموٌ إليها بعد مانام أهلها  
حذف حرف التشبيه

وما هو جدير بالنظر أنه جعل بعض الاستعارات تشبيهات ، مع أنه عقد فصلاً مستقلاً للاستعارة وعدها من البديع . أورد في باب التشبيه هذا البيت للواوام الدمشقي :

وأسبلت لولوآ من نرجس وسقطت  
ورداً وعضت على العناب بالبرد  
وقال إنه شبه خمسة أشياء بخمسة أشياء<sup>(١)</sup> ... ولم يذكر الخطوة التالية وهي استعارة لفظ المشبه به للمشبه . وعندنا أن هذا لا غبار عليه ، فإن التشبيه أصل الاستعارة ، لو لا أنه خصص للاستعارة بباباً خاصاً ، وكذلك استشهاده بيته أبي نواس :

يا قر أبصرت في مأتم  
يندب شجواً بين أتراب  
ييكى فيذرى الدر من نرجس  
ويلطم الورد بعناب  
وقول العسكري :

---

(١) الصناعتين ٣٢٩ .

وَكُنُوسٌ إِذَا دَجَا اللَّيلَ دَارَتْ  
وَكَأْنَ الْهَلَالَ مَرَآةً تَبَرَّ  
وَعَكَسَ ذَلِكَ تَامًا مَادِهَبٌ إِلَيْهِ مِنْ عَدِ بَعْضِ النَّشِيهَاتِ مِنِ الْاسْتِعَارَةِ،  
وَهُذَا الَّذِي نَقْلَهُ صَاحِبُ الْطَّرَازِ عَنْ أَبِي هَلَالٍ وَالْفَانِي وَالْأَمْدِي وَالْخَفَاجِي  
وَغَيْرَهُمْ مِنْ عُلَيَّمَاءِ الْبَيَانِ وَلَهُمْ حِجْتَانٌ :

الْحِجَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُمُ الْاسْتِعَارَةُ لِيُسْ لَهَا آلَةٌ وَالنَّشِيهَةُ لَهُ الْآلَةُ ،  
نَّا كَانَتْ فِيهِ آلَةٌ النَّشِيهَةُ ظَاهِرَةٌ فَهُوَ تَشِيهٌ ، وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ ظَاهِرَةٌ فَهُوَ  
اسْتِعَارَةٌ فَقُولُهُ « زَيْدُ الْأَسْدُ » لَا آلَةٌ فِيهِ فُوجِبٌ كُونُهُ اسْتِعَارَةٌ .

الْحِجَةُ الثَّانِيَةُ : هُوَ أَنَّ الْمَفْهُومَ مِنْ قَوْلِنَا « زَيْدُ الْأَسْدُ » مِثْلُ الْمَفْهُومِ  
مِنْ قَوْلِنَا « لَقِيتُ الْأَسْدَ » وَ« أَتَافَ أَسْدَ » ، فَإِنْ كَانَ مَفْهُومُهُمَا وَاحِدًا فِي  
الْمُبَالَغَةِ فِي الْجَانِزِ ، فَإِذَا قَضَيْنَا بِكُونِ أَحَدِهِمَا اسْتِعَارَةً وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْآخَرُ  
كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَفْرِقَةٍ بَيْنَهُمَا .

وَلَقَدْ اعْتَرَضَ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْخُلُطِ إِمامُ مِنْ أُمَّةِ النَّقْدِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ  
هُوَ الْقَاضِي الْجَرَجَافِ ، صَاحِبُ الْوَسَاطَةِ ، فَقَالَ : وَرَبِّمَا جَاءَ مَا يُظْهِنُهُ النَّاسُ  
اسْتِعَارَةً وَهُوَ تَشِيهٌ أَوْ مِثْلُ ، فَقَدْ رَأَيْتَ بَعْضَ أَهْلِ الْأَدْبِ ذِكْرَ أَنْوَاعِ  
مِنِ الْاسْتِعَارَةِ عَدِ فِيهِمَا قَوْلُ أَبِي نُوَاسَ :

وَالْحُبُّ ظَهَرَ أَنْتَ رَاكِبٌ      إِنْدَى صَرْفُ عَنَّاهُ انْصَرَفَ  
وَلَسْتُ أَرَى هَذَا وَمَا أَشْبَهُهُ اسْتِعَارَةً ، وَإِنَّمَا مَعْنَى الْبَيْتِ أَنَّ الْحُبَّ مِثْلُ  
ظَهَرٍ أَوْ الْحُبَّ كَظَهَرٍ تَدِيرُهُ كَيْفَ شَئْتَ إِذَا مَلَكْتَ عَنَّاهُ . فَهُوَ إِنَّمَا ضَرَبَ  
مِثْلُ أَوْ تَشِيهٌ شَيْءٌ بِشَيْءٍ .

وَإِنَّمَا الْاسْتِعَارَةَ مَا أَكْتَفَى فِيهَا بِالْأَسْمَاءِ الْمُسْتَعَارَ عنِ الْأَصْلِ ، وَنَقْلَتْ  
الْعَبَارَةُ بِفَعْلَتِهِ فِي مَكَانٍ غَيْرِهَا . وَمَلَأَكُمَا تَقْرِيبَ الشَّبَهِ وَمَنَاسَبَةَ الْمُسْتَعَارِ لِهِ

للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبيّن في أحدهما إعراض عن الآخر<sup>(١)</sup> .

والوجه الذي يقتضيه القياس في رأى عبد القاهر ، وعليه يدل كلام القاضي في الوساطة ألا نطلق الاستعارة على نحو قوله « زيد أسد وهند بدر » ولكن يقول هو تشبيه ، فإذا قال « هو أسد » لم تقل استعارة له اسم الأسد ، ولكن تقول شبهه بالأسد ، وتقول في الأول إنه استعارة لا توقف فيه ولا تحاشى أبنته ، وإن قلت في القسم الأول إنه تشبيه كنت مصيباً من حيث تخبر عما في نفس المتكلم وعن أصل الغرض . وإن أردت تمام البيان قلت : أراد أن يشبه المرأة بالظبيبة فاستعار لها اسمها وبالغة . إنك في القسم الأول قد عزلت الاسم الأصلي عنه واطرحته وجعلته كأنه ليس باسم له ، وجعلت الثاني هو الواقع عليه والمتناول له ، فصار قصدك التشبيه أمراً مطويأً في نفسك ، مكتوناً في خميرك ، وليس كذلك القسم الثاني لأنك قد صرحت فيه بالمشبه ، وذكرك له صريحاً يأبى أن توشم كونه من جنس المشبه .. وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يفصل بين القسمين . فيسمى الأول استعارة على الإطلاق ، ويقال في الثاني إنه تشبيه ، فأما تسمية الأول تشبيهاً غير منوع ولا غريب ، إلا أنه على أنك تخبر عن الغرض وتنبيء عن مضمون الحال ، فأما أن يكون موضوع الكلام وظاهره موجباً له صريحاً فلا<sup>(٢)</sup> .

وقد تحدث أرسطيو عن الاستعارة Metaphor في أكثر من موضع من كتاب الخطابة كما أنه يحيل على ما قاله عنها في كتاب الشعر ، فيقول ( ج ٣ باب ٤ ) التشبيه استعارة ، وذلك أنه قليل الاختلاف عنها

(١) الوساطة ٤٠ . (٢) راجع دلائل الإعجاز ص ٢٧٧ وما بعدها .

فهند ما يقول الشاعر عن رجل انطلق الأسد يكون تشديها وأما عندما يقول :  
انطلق هذا الأسد فيكون هذا استعارة (١) ..

وكلام أرسطو مع هذا هو أساس ما عرف في البلاغة الاصطلاحية ،  
فالاستعارة أصلها التشبيه ، أو كما يقول علماء البلاغة العربية : الاستعارة  
مجاز علاقته المتشابهة ، ولكن ضياء الدين أبوالفتح بن الأثير وهو بعد صاحب  
الصناعتين ، لا يكاد يفرق بين التشبيه والاستعارة ، فيجعلهما جنساً واحداً بعد  
أن يجعل المجاز قسمين أولهما توسيع في الكلام وثانيهما التشبيه . ثم يجعل  
التشبيه ضرباً من أحد هما التشبيه التام ، وثانيهما التشبيه المذوق . فالتشبيه  
التام أن يذكر المشبه به والتشبيه المذوق أن يذكر المشبه دون المشبه به  
وسن استعارة ، وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام ،  
وإلا فكلاهما يجوز أن يطلق عليه اسم التشبيه ، ويجوز أن يطلق عليه اسم  
الاستعارة لاشتراكاً كما في المعنى (٢) .

وذكرها أيضاً الجاحظ وعرفها بأنها تسمية الشيء باسم غيره إذا  
قام مقامه (٣) .

وكعاد ابن المعز الاستعارة أول البديع فكذلك جعلها أبوهلال أول  
أبوابه ، وجاراها ابن رشيق القمي وان في ذلك فقان : الاستعارة أفضل  
المجاز وأول أبواب البديع ، وليس في حل الشعر أعزب منها (٤) .

وظلت الاستعارة كذلك حتى ميزها المؤخرون ، وجعلوها في مواضعها  
من علم البيان حين استواء التقاسيم واستقرارها .

ونحن نرى أن الاستعارة من محاسن الكلام لا شك ، ولكنها ليست

(١) النقد المنهجي ٤٠ . (٢) الثل السائر ٢١٤ .

(٣) البيان والتبيين ج ١١٥ ص ١٨٠ . (٤) العدة ج ١ ص ١ .

حسناً بديعياً في الوسع الاستغناه عنه ، وفي استطاعتنا أن نعد ضرورة التحسين اللغظى والمعنى كا حدتها علماء البلاغة ووضعوا فنونها ضرراً من الترف البياني ، الذى يسع الأدب أن ينساه ويبيق الأدب بعد ذلك ، وقد اجتمعت فيه شروط الجودة والإبداع ، وليس كذلك الاستعارة ، بل هي من أهم أركان الشعر وعنصر من العناصر الأصلية فيه ، فليس يسع الأدب أن يستغنى عنها ، إذ كانت مزيلاً معانى الشعر أنها مصبوبة في قالب خيالى ، والاستعارة هي الوسيلة اللغوية الوحيدة ل لتحقيق هذا المعنصر الخيالى ، فكيف عد ابن المعتز الأديب الشاعر الاستعارة بديعاً ؟ أو كيف عدتها ترقى ؟ وكيف جاراه في هذا المضمار أبو هلال على غير هدى ؟

والعجب أن العسكري يفطن إلى أن التشيه ليس من البدع ، فيجعله باباً مستقلاً من أبواب البلاغة ، ثم يصر على أن يجعل الاستعارة أول أبواب البدع ، مع قرب أحدهما من الآخر ، ومع أنه جعل بعض الاستعارات تشيهها ، وبعض التشيهات استعارة ، والاستعارة هنوز عنها التشيه لا حالة بالإجماع الذي لا يجحد ولا ينقد عقل ولا ذوق ولا اطلاق .

لأن كان ابن المعتز أخطأً لقد كان له عذر في هذا الخطأ ، فقد كان يكتب في أمثال هذه الموضوعات للمرة الأولى بحثاً بكرأ ، وكان بينه وبين أبي هلال قرن من الزمان يتيح إعادة النظر فيما سبق إليه الوهم .

ولابن المعتز عذر آخر ذلك أنه ألحق الاستعارة وأصلها التشيه بالبدع فكأن خطأه في أحدهما جرّ خطأه في الآخر ، فإذا كان العسكري قد فطن إلى أن التشيه ليس بديعاً ، وليس من الترف البياني ، فأئن له أن يعد الاستعارة ( وأساسها التشيه ) بديعاً ؟

أما الكذبية فإن العسكري قد عقد بابين من البدع سعي أو لهما

(المائة)<sup>(١)</sup> وسمى الآخر (الكتابية والتعريض)<sup>(٢)</sup> وما أورد في تعريف المائة ينطبق على ما حدّ به المتأخرون الكتابة ، قال : المائة أن يريد المتكلم العبارة فيأتي بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر ، إلا أنه يبنيه إذا أورده عن المعنى الذي أراده ، كقولهم : فلان نق الثوب يريدون لا عيب فيه ، وليس موضوع نق ثوب البراء من العيوب ، وإنما استعمل فيه تمثيلاً ، قال امرؤ القيس :

ثياب بني عوف طهار نقيّة وأوجفهم غر المشاهد غران<sup>(٣)</sup>  
ويقولون : فلان أوسع من أبيه ثواباً (أي أكثر منه معروفاً) وفلان  
غم الرداء<sup>(٤)</sup> (إذا كان كثيراً المعروفاً) قال كثير :

غم الرداء إذا تبسم ضاحكا غلقت لضحكه رقاب المال  
وفي الفصل الثاني عشر من الديع « الكتابة والتعريض » قال : هو أن  
يكتن عن الشيء ويعرض به ، ولا يصرح ، على حسب ما عملوا بالحن

(١) الصناعتين ٣٤٤ . (٢) الصناعتين ٣٦٠ .

(٣) هكذا في الأصول ، وفي ديوانه :

ثياب بني عوف طهار نقيّة وأوجفهم عند المشاهد غران  
قال أبو على : عران مثل سودان وحران ، والأخر الأبيض (هامش الصناعتين  
٢٧٧ طبعة الآستانة) .

(٤) الغمر بالفتح : السخي الكثير العطاء . وإنما قال : غم الرداء ، لأن  
أراد بقوله سخي الرجال ، والعرب تفعل هذا فتقول : فدى لك ردائي ، وفدى لك  
إزارى ، ويريدون بذلك أبدائهم . وقال الأصمى : إذا قالت العرب ثوب الثوب والإزار  
فإنهم يريدون البدن ، وأنشد :

ألا أبلغ أبا حفص رسولاً فدى لك من أخرى ثقة إزارى

والتورىة عن الشيء ، كما فعل العنبرى إذ بعث إلى قوله بصرة شوك وصرة رمل وحنظلة ، يريد جاتكم بنو حنظلة في عدد كثير كثير الشوك ، وفي كتاب الله عز وجل (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامست النساء) فالغائط كنایة عن الحاجة ، وملامسة النساء كنایة عن الجماع ، وقوله تعالى (وفرش مرفوعة) كنایة عن النساء .

ومن التعريض الجيد ما كتب به عمرو بن مسعدة إلى المأمون : أما بعد فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين ، ليتملول في إلحاقه بنظرائه من المرتزقين فيما يرتفعون ، فأعلمه أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مرتب المستشفع بهم . وفي ابتدائه بذلك تعدد طاعته ، والسلام . فوقع في كتابه « وقد عرفنا تصريحك له ، وتعريضك بنفسك ، وأجبناك إليهما ، وأوقفناك عليهما » .

ولعلك رأيت الخلط بين الماء والكنية والتعريض ، وقد فعلن لهذا الخلط ضياء الدين بن الأثير وحاول أن يفصل بين الكنية والتعريض ، وقد تكلم علماء البيان فيه ، فوجادتهم قد خاطروا الكنية بالتعريض ، ولم يفرقوا بينهما ، ولا حدّوا كلّا منهما بحد يفصله عن صاحبه ، بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنشر ، وأدخلوا أحدهما في الآخر ، فذكروا للKennia أمثلة من التعريض وللتعريض أمثلة من الكنية ، فهنّمن فعل ذلك الفنانى وابن سنان الخاجى والمسكري<sup>(١)</sup> . والذى عنى في ذلك أن الكنية إذا أوردت تجاذبها جانباً حقيقة ومجاز وجاز حملها على الجانبين معاً . ألا ترى أن اللمس في قوله تعالى « أو لامست النساء » يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، وكلّ منهما يصحّ به المعنى ولا يختزل ، فاللمس مصافة الجسد

(١) مثل السائر . ٣٧٦ .

لليجسد ، أو المراد باللمس الجماع وذلك بمحاز فيه ، وهو الكنية ، وكل موضع ترد فيه الكنية فإنه يتتجاذبها جانباً حقيقة ومحاز ، ويجوز حمله على كلها معاً<sup>(١)</sup> ، على أنه إذا صر في بعض الكنيات الحمل على الحقيقة والمحاز ، فإننا لا نراه صحيحاً في كل أقسامها ، وكيف يمكن الحمل على الحقيقة في كنية النسبة في مثل قوله (المجددين ثوابيه) ؟

أما التعریض « فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيق ، ولا المحازى ، فإنك إذا قلت لمن توقع صلته بغير طلب : والله إنى لحتاج وليس في يدي شيء وأنا عريان والبرد قد آذاني ، فإن هذا وأشباهه تعریض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب حقيقة ولا محازاً<sup>(٢)</sup> .

وقد لخص العلوي الفروق بين الكنية والتعریض في ثلاثة أمور :

(١) أن الكنية واقعة في المحاز محدودة منه ، بخلاف التعریض فلا يعنى منه ، وذلك من أجل كون التعریض مفهوماً من جهة القرینة ، فلا تعلق له باللفظ ، لا من جهة حقيقته ولا من جهة محازه .

(٢) أن الكنية كما تقع في المفرد<sup>(٣)</sup> ، فقد تكون واقعة في المركب بخلاف التعریض ، فإنه لا موقع له في باب اللفظ المفرد .

(٣) أن التعریض أخفى من الكنية ، لأن دلالة الكنية مدلوّل عليها من جهة اللفظ بطريق المحاز ، بخلاف التعریض فإنما دلالة من جهة القرینة والإشارة<sup>(٤)</sup> .

(١) مثل السائر ٣٧٨ . (٢) المصدر نفسه ٣٨٠ .

(٣) من أمثلة وقوع الكنية في المفرد قول الله تعالى (إن هذا أخفى له تسعة وتسعون نعجة ولن نعجة واحدة ..) فقد كفي بالنعمجة عن المرأة .. (٤) الطراز ج ١ ص ٢٨٩

(٢) علم المعانى : كان نشاط العسكري فى مباحثه الاصطلاحية ضئيلاً، وكان عبد القاهر أول من فصل مسائله تفصيلاً في (دلائل الإعجاز) ، وقد عالج أبو هلال من موضوعات علم المعانى باب الإيجاز والإطناب والمساواة عالجه علاجاً شافياً، ولم يزد البلاغيون الذين أتوا بعده على ما فعل العسكري شيئاً في هذا الباب ، اللهم إلا تفصيل ضروب الإطناب ، التي ذكر العسكري منها صراحة التكرير ، وذكر الخاص بعد العام بالمثال ، وذكر من أنواعه التي عددها المتأخرون الإيغال<sup>(١)</sup> والاعتراض<sup>(٢)</sup> ، والتكميل والتميم<sup>(٣)</sup> ،

(١) الإيغال : هو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعته ثم يأتي بالملقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحاً وشرحاً وتوكيداً وحسناً . مثل قول ذي الرمة :  
قف العيس في أطلال مية فاسأل رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل  
فثم كلامه بالرداء ، ثم قال المسلسل فزاد به شيئاً ثم قال :  
أظن الذي يحدى عليك سؤالها دموعاً كتبذير الجمان المفصل  
فثم كلامه بالجمان ، ثم قال المفصل فزاد شيئاً . وكقول الأعشى :  
كتنطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأ وهى قرنه الوعل  
فثم كلامه يضرها ، فلما احتاج إلى التافية قال ( وأ وهى قرنه الوعل ) فزاد معنى .  
(٢) الاعتراض : هو اعتراض كلام في كلام ثم يتم ثم يرجع إليه فيتمه كقوله النابعة الجمدى :

ألا زعمت بنو سعد بأنى ألا كذبوا كثیر السن فان  
(٣) التميم والتكميل : هو أن توفر المعنى حظه من الجودة وتعطيه نصيحة من الصيحة ثم لانقدر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده أولفظاً يكون فيه توكيده إلا تذكره كقوله تعالى ( من عمل صالحًا من ذكر أو أنت وهو مؤمن فلنحيئنك حياة طيبة ) فبقوله ( وهو مؤمن ) تم المعنى ، ومثل قول عمرو بن براق :  
فلا تأمنن الدهر حرراً ظلمته فماليل مظلوم كريم بنائم

ذكرها في أنواع البديع ، وهو يقصد من غير شك أن هذه تقييد الكلام حسناً وتزيد البيان جلاً .

قسم العسكري الإيجاز التقسيم الاصطلاحي الذي لا يزال حتى اليوم وأكبر الظن أنه لم يعالجه أحد قبله من تكلم في النقد ، وإن كان النحاة قد تكلموا في إيجاز المذفون وأنواع المذفون في أبواب متفرقة من النحو .

عرف أبو هلال إيجاز القصر بأنه تقليل الألفاظ وتكثير المعانٍ  
ووازن بين أسلوب القرآن في قوله تعالى « ولهم في القصاص حياة »  
وقول العرب « القتل أنفي للقتل »<sup>(١)</sup> وهو أثر من آثار مذهب المتكلمين

فقوله (كريم) تسميم . وقد جعل العسكري التسميم والتكميل شيئاً واحداً . وقال غيره : التسميم هو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة مثل مفهول أو حال مما ليس بمحملة مستقلة ولا ركن كلام ، وهذه الفضلة تفيض نكتة كالمبالغة في قوله تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكتنا ويتنا وأسرى) «أى مع حبه» والضمير للطعام أى مع اشتئاه وال الحاجة إليه . وعندهم أن التكميل هو الاحتراس وهو أن يؤتى في كلام يوم خلاف المقصود بما يدفع هذا الإهتمام كقول الشاعر :

فسيق ديارك غير مفسدها صوب الريسع ودعاة تهمي

والقائلين في إعجاز القرآن ، ولعل ما عرض أبو هلال في هذا الباب من الصوص القرآنية ، وعلاجه ما فيها من الإعجاز ، وبيان بلاغتها في العبارة والدلالة ، أهم النواحي التي عالج بها إعجاز القرآن في كلام مستقيم مفصل في كتاب الصناعتين ، على أنه مع ذلك لم يقصر الكلام في آي الكتاب الكريم ، بل إنه أورد إلى جانبها كثيراً من موجز القول في الحديث الشريف وكلام العرب منظومه ومنتوره .

ثم عرض بعد ذلك للقسم الثاني وهو إعجاز الحذف فذكر أنواعه ، ولا تزال هذه الأنواع عمدة التقسيم إلى اليوم في أبواب البلاغة الاصطلاحية وهذه الأنواع :

(١) حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه ، ويجعل الفعل له كقوله تعالى ( وأسأل القرية ) أي أهلها ، وقوله تعالى ( وأشربوا في قلوبهم العجل ) أي حبه . وقوله عز وجل ( الحج أشهر معلومات ) أي وقت الحج .. وقال المتنخل المذلى :

يمشى يدتنا حانوت خمر من الخرس الصراصرة القطاط (١)  
يعنى صاحب حانوت ، فأقام الحانوت مقامه . وقال الشاعر :  
لهم مجلس نه صحب السُّبَالْ أَذْلَة سواسية أحرارها وعيدها  
يعنى أهل المجلس .

(٢) وقوع الفعل على شينين وهو لأحد هما ويضم كل آخر فعله ، وهو قول الله تعالى ( فأجمعوا أمركم وشرككم ) معناه وادعوا شركاكم ، وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود . وقال الشاعر :

---

(١) الخرس الصراصرة : هم خدم من العجم لا يفصحون فلذلك جعلتهم خراساً ، والقطط : شعر الزنجي لقصره وتجده ، وقيل الصراصرة ببط الشام .

تراث كأن الله يمجد أنفه وعينيه إن مولاه ثاب له وفُزْ  
أى ويفقاً عينيه .. وقول الآخر :

إذا ما الغانيات بربنَ يوماً وزبَّعْنَ الحواجب والعيون  
العيون لا تزجج ، وإنما أراد وَكَلَن العيون .

(٢) أن يأتي الكلام على أن له جواباً ، فيحذف الجواب اختصاراً ،  
لعلم المخاطب كقوله عز وجل ( ولو أن قرآننا سيرت به الجبال أو قطعت به  
الأرض أو كلّم به الموتى ، بل الله الأمر جيّعاً ) أراد لكان هذا القرآن خذف .  
وقوله تعالى ( ولو لا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رموف رحيم ) أراد  
لخذّبكم . وقول الشاعر :

فأقسم لو شئْ أتنا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعاً  
أى لرددناه ..

(٤) حذف الكلمة والكلمتين ، كقوله تعالى ( وأما الذين اسودّت  
وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ) أى : فيقال لهم . وقوله تعالى ( وقضى ربكم  
ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ) أى : ووصى بالوالدين إحساناً .  
وقال المنور :

فإن المنية من يخشها فسوف تصادفه أينما  
أى : أينما ذهب ..

(٥) ومنها التّقسيم بلا جواب ، كقوله تعالى ( ق ، والقرآن المجيد ، بل عجبوا )  
معناه والله أعلم : ق ، والقرآن المجيد لتبغضن ! ..

(٦) ومن الحذف إسقاط (لا) من الكلام في مثل قوله تعالى ( يبيّن الله  
لكم أن تضلو ) أى : لئلا تضلو . وقوله تعالى ( أن تحبط أعمالكم ) أى :  
لئلا تحبط أعمالكم . وقال أمير القيس :

قتلت يمين الله أبرح قاعداً      ولو قطعوا رأسى لدبك وأوصالى  
أى : لا أبرح قاعداً ..

(٧) ومن الحذف إضمار غير مذكور ، كقوله تعالى ( حتى توارت  
بالمحباب ) يعني الشمس بدأت في المغيب . و قوله تعالى ( ما ترك على ظهرها  
من دابة ) يعني على ظهر الأرض . و قوله ( فأئرن به نعماً ) أى بالوادى .  
وقال لييد :

حتى إذا ألقت يداً في كافر      وأجنّ عورات الشغور ظلامها<sup>(١)</sup>  
يعنى الشمس تدأب في المغيب .

(٨) وضرب منه آخر « لم يسممه أبو هلال وهو الذى يمكن أن يسمى  
نزع الخافض » ، ومثل له بقوله تعالى ( واختار موسى قومه سبعين رجلاً  
أى من قومه .

(٩) وضرب منه أن يحذف الشيء أولًا ثم يذكر آخرًا ، كقول الله تعالى  
في أول سورة الرحمن ( فبأى آلام ربكا تكذبان ) وذكر قبل ذلك  
الإنسان ولم يذكر الجان ثم ذكره . ومثله قول المنقف :

فما أدرى إذا يَمْنَتُ أرضاً      أريد الخير أيهما يليني  
أَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ      أَمْ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَتَعَيَّنُ  
فكنى عن الشر قبل ذكره ثم ذكره ..

وأكثر هذه التقسيمات كما رأينا مستقى من ثقافة الرجل التحوية ، وقد

(١) الكافر : الليل ، وأجن : أظلم ، والشغور : كل فرجة في جبل أو بطن واد  
أو طريق مسلوك . قال ابن السكيت : إن لييدا سرق هذا المعنى من قول ثعلبة  
ابن صعيرة المازني يصف الظليم والنعامة ورواحهما إلى بيضها عند غروب الشمس  
فتذكرا ثقلار ثيدا بعدما      ألقت ذكاء يعينها في كافر

عوْجَ بعْضُهَا فِي أَبْوَابِ مِنَ النَّحْوِ مُتَفَرِّقَةً ، وَلَكِنَ الْعُسْكَرِيُّ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُمَهَا وَأَنْ يَجْمِعَ شَمْلَهَا ، وَأَخْذُهَا عَنْهُ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ وَشَرَاحَهَا فِيهَا بَعْدٌ .  
ثُمَّ اتَّقْلَى إِلَى الْطَّرْفِ الثَّانِي وَهُوَ الْإِطْنَابُ فَعَالَجَهُ بِمَا عَالَجَ بِهِ الْإِيجَازُ  
فَأَرْوَدَ حَجَّةَ أَصْحَابِهِ بِأَنَّ الْمَنْطَقَ إِنَّمَا هُوَ يَانٌ ... إِلَخ

وَلَمْ يَعْرُضْ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِطْنَابِ الْاِصْطَلَاحِيَّةِ سُوَى التَّكْرِيرِ وَالْإِتَّبَاعِ  
بِقَصْدِ التَّوْكِيدِ ، وَذَكَرَ الْخَاصُّ بَعْدَ الْعَامِ ، وَإِنْ لَمْ يَسْمِهِ بِهَذَا الْاسْمِ ، وَلَكِنَّهُ  
مُشَكَّلٌ لَهُ بِقَوْلِ حَسَانِ بْنِ ثَابَتْ :

إِنْ شَرَخَ الشَّبَابُ وَالشِّعْرُ الْأَسْسَ .      سُودَ مَا لَمْ يَعْاضِ كَانَ جَنُونًا  
فَالشِّعْرُ الْأَسْوَدُ دَاخِلٌ فِي شَرَخِ الشَّبَابِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :  
بَنْ خَفْضٍ تَحْتَ السَّرَّى وَغَنَامَ      مِنْ عَنَاءِ وَنَصْرَةِ مِنْ شَحْوَبِ  
الْغَنَامِ دَاخِلٌ فِي الْخَفْضِ وَالْعَنَاءِ دَاخِلٌ فِي السَّرَّى ... وَمَا هُوَ أَجْلُ مِنْ  
هَذَا كَلِهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ( إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْمُعْدُلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَامِ  
ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ) فَالْإِحْسَانُ دَاخِلٌ فِي الْعَدْلِ ،  
وَإِيتَامُ ذِي الْقُرْبَى دَاخِلٌ فِي الْإِحْسَانِ ، وَالْفَحْشَاءُ دَاخِلٌ فِي الْمُنْكَرِ ، وَالْبَغْيُ  
داخِلٌ فِي الْفَحْشَاءِ .

تَكَلَّمُ أَبُو هَلَالَ عَنِ الْحَدِ الْوَسْطِ وَهُوَ الْمَسَاوَةُ وَعِرْفُهَا بِأَنَّ تَكُونُ الْمَعْنَى  
بِقَدْرِ الْأَلْفَاظِ وَالْأَلْفَاظُ بِقَدْرِ الْمَعْنَى لَا يَزِيدُ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ ، وَهُوَ الْمَذَهَبُ  
الْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ الْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ الْقَاتِلُ بِقَوْلِهِ « كَأَنَّ الْأَلْفَاظَ  
فِي الْبَلْ لِمَعَانِيهِ » ، أَيْ لَا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ ، فَمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذَلِكَ قَوْلِهِ  
عَزَّ وَجَلَّ ( حُورُ مَقْصُورَاتِ فِي الْحَيَاةِ ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى ( وَدُّوا لَوْ تَدْهَنُ  
فِي دِهْنُونَ ) وَفِي الْحَدِيثِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( لَا تَزَالْ أَمْتَى بِخَيْرِ  
مَا لَمْ تَرِ الْأَمَانَةَ مِنْهَا وَالزَّكَّةَ مَغْرِمًا ) . وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ

أن يزيد على ما قال أبو هلال في المساواة شيئاً .

ولعل أبو هلال كان أول من تكلم من علماء البلاغة في الفرق بين الإطناب والتطويل ، ولهذا كان من الخطأ أن ينسب الملعوب في الطراز<sup>(١)</sup> إلى أبي هلال ما ليس من رأيه ، فيدعى أنه لا يفرق بينهما في قوله : وأما التفرقة بينه (الإطناب) وبين التطويل فاعلم أن علماء البيان لهم في ذلك مذهبان : المذهب الأول أن الإطناب هو التطويل ، وهذا هو الحكى عن أبي هلال العسكري ، وعن الغانمي أيضاً ، وقالا إن كتب الفتوح والتقاليد كلها ينبغي أن تكون مطولة كثيرة الإطناب ، لأنها مما يقرأ على عوام الناس . لافتقارها إلى البيان ، فكلامهما يقضى بأنه لا تفرقة بين الإطناب والتطويل .

وهذا الذي ذكره الملعوب منقول عن المثل السائر لابن الأثير مع عدم الدقة في النقل ا ذلك أن ابن الأثير يرى أن علماء البيان قد اختلفوا في الإطناب ، ف منهم من ألحقه بالتطويل الذي هو ضد الإيجاز ، وهو عنده قسم غيره فأخطأ من حيث لا يدري ، كأبي هلال العسكري والغانمي حتى إنه قال إن كتب الفتوح وما يجري مجرها مما يقرأ على عوام الناس ينبغي أن تكون مطولة مطببا فيها<sup>(٢)</sup> .

والذى صرخ به أبو هلال أن العبارة عن المعنى بكلام طويل لافتادة في طوله ويمكن أن يعبر عنه بأقصر منه معيب ومثل له بقول التابعية :  
تبينت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع  
كان ينبغي أن يقول لسبعة أعوام ويتم البيت بكلام آخر يكون فيه  
فائدة ، فعجز عن ذلك فشا البيت بما لا وجہ له<sup>(٣)</sup> .

(١) الطراز ج ٢ ص ٣٣٢

(٢) المثل السائر ٢٢١

(٣) انظر الصناعتين : ٣٥ (طبعة الآستانة)

وأنت ترى أن هذا القول ينسبة ابن الأثير إلى الغانمي وحده (فالضمير للفرد وهو يعود على أقرب مذكور) وأخذ العبارة صاحب الطراز فسواماها وجعلها (وقالا) ونسب إلى الرجل رأيا لم يقل به !

أماربط أجزاء الكلام بعضها ببعض ، وهو الذي سماه العسكري الفصل والوصل ، كما سماه غيره وعده معرفة البلاغة كلها ، فقد نقل ما أورد غيره فيه ، وبين ضرورة معرفة مواضع كل منها للكاتب والخطيب والشاعر ، وعالجه علاجاً أديباً لا أثر فيه لتنظيم ولا تقسيم ، ولا اهتمام بتحديد ولا تعریف ..

وإنما الباب كله تحذير من الخلط ويبيان لوسيلة اتفاقه هذا الخلط . ولذلك نستطيع أن نستخلص من ثانيا كلامه بعض المقاييس البلاغية التي استضاء بها تابعوه في تأليفهم في البلاغة ، وجعلوا لها الألقاب والمصطلحات . فمن ذلك قول أكثم بن صيف لكتابه إذا كتبوا ملوك الجاهلية «افصلوا بين منقضى كل معنى ، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً بعضه بعضه <sup>(١)</sup> » . وقول الحارث بن شمر الغساني لكتابه المرقش « إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبعيته من الألفاظ ، فإنك إن مدقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تصدق نفوت القلوب عن وعيها ، وملسته مدقت آخر فاجعل بين القولين فصلاً حتى تعرف المدح من الهجاء ، كما تفعل في كتابك إذا استأنفت القول ، وأكللت ماسلف من المفظ » . فالفصل بين منقضى كل معنى ، والفصل إذا نزع الكاتب الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما هو فيه ، والفصل بين المدح والهجاء ، وعند استئناف القول .. كل هذا

---

(١) الصناعتين ٤٢٥

من المقاييس الصحيحة التي اعتمد عليها وأخذ بها مقتنون البلاغة ، أليسوا يقولون : إن التباهي التام بالاختلاف بين الجملتين خبراً وإنشاء ، أو بالات تكون بينهما مناسبة ما يوجب الفصل ؟ وهذا الذي سماه علماء البلاغة بعد أبي هلال كمال الانقطاع ، وإن لم يضع له أبو هلال اسماً ؟

ثم أليس وصل أجزاء الكلام بعضها بعض إذا كان معجوباً بعضه بعض في عبارة أكثم بن صيفي هو الذي قرره البلاغيون فيما بعد من وجوب الوصل إذا قصد إشراك الجملتين في الحكم الإعرابي . أو إذا اتفقا خبراً وإنشاء وكانت بينهما مناسبة تامة ، ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل ؟

(٢) وعلم البديع : كان أول من ألف فيه عبد الله بن المعتز وجاء في مؤلفه ما وقع من ضروب تحسين الكلام في كتاب الله وحديث الرسول وكلام بلغاء العرب ، وأطلق على كل ضرب منها اسمًا خاصًا ، ولكنه لم يحدد معانى بعضها كما حد معانى بعضها الآخر ، فهو في بعضها يكتفى بأن يفيض في التمثيل ، أما العسكري المولع بالتقسيم والقول في الحدود فهو الذي أوضحها ، وحدد معالمها ، وعرف كل ضرب منها التعريف الذي أخذه من جاء بعده من كتب في البلاغة ، ولا يزال أكثر هذه التعريفات عمدة البلاغة إلى اليوم .

جعل ابن المعتز البديع خمسة أضرب هي الاستعارة ، والتجميس ، والمطابقة ، ورد أحجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي . وحدد بعضها تحديداً غير كاف ، واقتصر في بعضها على المعنى اللغوي ولم يزد شيئاً ، وفيباقي اقتصر على التمثيل ، فيقول :

الباب الأول من البديع هو الاستعارة قال الله تعالى ( هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ألم الكتاب ) وقال ( وانخفض لها جناح الذل من الرحمة ) وقال ( واشتتعل الرأس شيئاً ) وقال ( أو يأتيهم

عذاب يوم عقيم ) وقال ( وآية لهم الليل نسلخ منه النهار <sup>(١)</sup> . . . ولا يورد في تعريفها شيئاً إلا كلام عارضة في المقدمة : من الكلام البليغ قول الله تعالى ( وإنك في أم الكتاب لدينا لعل حكيم ) ومن الشعر البديع قوله :

والصبح بالكوكب الدرى منحور

وإنما هو استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها <sup>(٢)</sup> الباب الثاني من البديع وهو التجنيس : وهو أن تجئ الكلمة بجانس أخرى في بيت شعر وكلام ، بجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على سبيل التي ألف الأصمى كتاب الأجناس عليها <sup>(٣)</sup> ثم يتكلم في نوع التجنيس .

الباب الثالث من البديع وهو المطابقة . قال الخليل رحمه الله : يقال طابت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد . وكذلك قال أبو سعيد : فالسائل لصاحبه : أتىناك لتسلّك بنا سهل التوسيع فأدخلتنا في ضيق الكتمان ، قد طابق بين السعة والضيق في هذا الخطاب <sup>(٤)</sup> .

الباب الرابع من البديع هو رد أبعاز الكلام على ما تقدمها ، وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) فمن هذا الباب ما يوافق آخر كلام فيه آخر كلمة في نصفه الأول مثل قول الشاعر :

تلقي إذا ما الأمر كان عمر ما      في جيش رأى لا يُفَلّ عمر م

(٢) ومنه ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة في نصفه الأول كقوله :

سرريع إلى ابن العم يشتم عرضه      وليس إلى داعي الندى بسرريع

(٣) ومنه ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه كقول الشاعر :

---

(١) البديع ١٩ . (٢) ص ١٧ . (٣) ص ٥٥ . (٤) ص ٧٤ .

عَمِيدُ بْنُ سَلِيمَ أَقْصَدَتْهُ سَهَامُ الْمَوْتِ وَهِيَ لِهِ سَهَامٌ<sup>(١)</sup>  
 الْبَابُ الْخَامِسُ مِنَ الْبَدِيعِ وَهُوَ مِذَهَبُ سَهَامِ عُمَرٍ وَالْجَاحِظِ الْمَذَهَبُ  
 الْكَلَامِيُّ، وَهَذَا بَابٌ مَا أَعْلَمُ أَنِّي وَجَدْتُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ شَيْئًا، وَهُوَ يَنْسَبُ  
 إِلَى التَّكَلْفِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عَلْوًا كَبِيرًا<sup>(٢)</sup>.

وَهَذِهِ أَبْوَابُ الْبَدِيعِ الْخَمْسَةُ الَّتِي حَصَرَ ابْنُ الْمَعْنَى القَوْلُ فِيهَا، وَرَأَى أَنَّهُ  
 كَمْ بِهَا، ثُمَّ أَضَافَ إِلَيْهَا غَيْرَهَا سَهَامًا (بعض مَحَاسِنِ الْكَلَامِ وَالشِّعْرِ)  
 وَمَحَاسِنُهَا لَا يَنْبَغِي لِلْعَالَمِ أَنْ يَدْعُى الإِحْاطَةُ بِهَا، حَتَّى يَتَبَرَّأُ مِنْ شَذْوَذِ بَعْضِهَا  
 عَنْ عِلْمِهِ وَذَكْرِهِ، وَأَحَبَبْنَا لِذَلِكَ أَنْ تَكْثُرَ فَوَائِدُ كِتَابِنَا لِلْمُتَأْدِينَ، وَيَعْلَمُ  
 الْمُنَاظِرُ أَنَّا اقْتَصَرْنَا بِالْبَدِيعِ عَلَى الْفَنَوْنِ الْخَمْسَةِ اخْتِيَارًا مِنْ غَيْرِ جَهْلِ بِمَحَاسِنِ  
 الْكَلَامِ وَلَا ضَيقِ فِي الْمَعْرِفَةِ، فَنَّ أَحَبُّ أَنْ يَقْتَدِيَ بِنَا وَيَقْتَصِرَ عَلَى تَلَكَّ  
 الْخَمْسَةِ فَلَيَفْعُلَ، وَمَنْ أَضَافَ مِنْ هَذِهِ الْمَحَاسِنِ أَوْ غَيْرَهَا شَيْئًا إِلَى الْبَدِيعِ وَمِنْ  
 يَأْتُ مِنْ غَيْرِ رَأْيِنَا فَلَهُ اخْتِيَارٌ<sup>(٣)</sup>.. وَهَذِهِ الْمَحَاسِنُ هِيَ: الْإِلْتَفَاتُ، الْإِعْتَرَاضُ،  
 الرَّجُوعُ، حَسْنُ الْخَرْوَجِ، تَأْكِيدُ الْمَدْحِ، تَجَاهِلُ الْعَارِفِ، الْهَزْلُ يَرَادُ بِهِ  
 الْجَدُّ، حَسْنُ التَّضْمِينِ، التَّعْرِيْضُ وَالْكَنَانِيَّةُ، الْإِفْرَاطُ فِي الصَّفَةِ، حَسْنُ  
 النَّشِيهِيَّةِ، لَزُومُ مَا لَا يَلْزَمُ، حَسْنُ الْإِبْتَدَاءِ.

وَكَانَ قَدَامَةُ بْنُ جَعْفَرَ مُعاَصِرًا لِعَمِيدِ اللَّهِ بْنِ الْمَعْنَى، جَمَعَ فِي كِتَابِهِ (نَقْدُ  
 الشِّعْرِ) طَافِقَةً مِنَ الْمَحَاسِنِ الْبَدِيعِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهَا عَلَى أَنَّهَا بَدِيعٌ،  
 وَلَا ذَكْرُ اسْمِ الْبَدِيعِ، بَلْ ذَكْرُ هَذِهِ الْمَحَاسِنِ عَلَى أَنَّهَا نَعْوَتُ لِلشِّعْرِ وَمَحَاسِنُ  
 لَهُ، مِنْهَا مَا هُوَ نَعْتٌ لِلْوَزْنِ كَالتَّرْصِيعِ، وَمَا هُوَ نَعْتٌ لِلْقَوْافِيِّ كَالتَّصْرِيعِ.  
 وَمَا يَتَصلُّ بِالْمَعَافِ كَالْغُلوُّ، وَالنَّشِيهِيَّةِ، وَصَحَّةِ التَّقْسِيمِ، وَصَحَّةِ التَّفْسِيرِ، وَصَحَّةِ  
 الْمَقَابِلَةِ، وَالْتَّعْمِيمِ، وَالْمُبَالَغَةِ، وَالْتَّكَافُؤِ، وَالْإِلْتَفَاتِ، وَالإِشَارَةِ.

---

(١) الْبَدِيعِ صِ ٩٣ .      (٢) صِ ١٠١ .      (٣) صِ ١٠٦ .

والإرداد ، والمثيل ، وما هو نعت للفظ والمعنى كالمطابق ، والمحاسن ،  
وما هو نعت للقوافي كالتوشيح ، والإيغال .

وجاء أبو هلال وهو رجل الصناعة الولوع بها ، وبتحلية الأدب  
بغفونها ، فاقتبس كعادته من كلام ابن المعز الذي سلف ماجعله مقدمة لهذه  
الفنون ، قال : هذه أنواع البديع التي ادعى من لا رؤية له ، ولا رواية عنده  
أن المحدثين ابتكروها ، وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفخم  
أمر المحدثين ، لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبرئه من  
العيوب كان في غاية من الحسن ونهاية الجودة .

جمع أبو هلال في الباب التاسع من الصناعتين محسنات البديع فجعلها  
خمسة وثلاثين محسناً ، ثم انفق له بعد تحريرها محسن جديد ، وقد قرر أنه  
ابتكر من هذه المحسنات الخمسة والثلاثين ستة محسنات عدا هذا الجديد الذي  
اهتدى إليه ، وعلى هذا فإنه يكون قد أخذ ما أحساه الساقيون تسعة وعشرين  
محسناً ، واستنبط بنفسه المحسنات السبعة الآتية :

#### (١) التشطير :

وهو أن يتوازن المصارعان والجزآن وتعادل أقسامها مع قيام كل  
منهما بنفسه ، واستغناه عن صاحبه ، فمثلاه من المثل قول بعضهم : من عتب  
على الزمان طالت معتبته ، ومن رضى عن الزمان طابت معيشته . وقول  
الآخر : الجود خير من البخل ، والمنع خير من المطل . وقول الآخر : رأس  
المداراة ، ترك المماراة . فالجزآن من هذه الفصول متوازناً الألفاظ  
والأبنية . ومثاله من المنظوم قول أوس بن حجر :

فتحدركم عبس إلينا وعامر وترفعنا بكر إليكم وتغلب  
ونلاحظ هنا ملاحظتين إحداهما أن التشطير ليس بعيد عن الازدواج

وهو أن تكون الفواصل على زنة واحدة ، إلا في قيام كل فاصلة من الفاصلتين بنفسها واستغناه كل منها عن صاحتها . واللحظة الثانية أن المثال الثالث الذي أقى به لا ينطبق عليه شرطه الذي أورده في التشطير من استغناه كل فاصلة عن صاحتها ، اللهم إلا أن يكون في النسخة التي بين أيدينا نقص أدى إلى حذف بقية المثال ، فإن « ترك المداراة » تمام الجملة وخبر المبتدأ « رأس المداراة » فلا استغناه لواحدة عن الأخرى ، أما سائر الأمثلة فينطبق عليها التعريف صحيحًا ، وعند البلاغيين بعد أبي هلال أن التشطير ضرب من السجع من غير اشتراط التوازن ، فقد قيل إن : السجع غير مختص بالثثر وأنه قد يكون في الشعر مثل قول أبي تمام :

تجلى به رشدى وأثرت به يدى  
وفرض به ثمدى وأورى به زندى  
وكذلك قول الخنساء :

حامي الحقيقة محمود الخطابي  
مهدى الطريقة نقاع وضرار  
وقول الآخر :

ومكارم أوليتها متورعا وجرائم أغيتها متبرعا  
ومن السجع على هذا القول – أي القول بعدم اختصاصه بالثثر –  
التشطير وهو جعل كل من شطري البيت سجعة مخالفة لاختتها كقول أبي تمام :  
تدبر معتصم بالله منقم الله مرقب في الله مرتفع  
فالشطر الأول سجعة مبنية على الميم ، والثانية سجعة مبنية على الباء .

(٢) المجاورة :

عرفها أبو هلال بأنها تردد لفظتين في البيت ، ووقوع كل منها بجانب الأخرى ، أو قريباً منها ، من غير أن تكون إحداهما لغوا لا يحتاج إليها وذلك كقول علامة :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه      أني توجّه والمحرومُ محروم  
فقوله : الغنم يوم الغنم مجاورة والمحروم محروم مثله .. وقول الآخر :  
وتندق منها في الصدور صدورها

وقول أوس بن حجر :

كأنها ذو وشوم بين ماقفة      فالقططانة والمذعورُ مذعور<sup>(١)</sup>  
وجعل العسكري هذا الحسّن في الشعر وحده .

(٢) التطريز :

وهو أن يقع في أبيات متواالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن  
فيكون فيها كالطراز في الثوب ، وهذا النوع قليل في الشعر ، وأحسن ما جاء  
فيه قول أحمد بن أبي طاهر<sup>(٢)</sup> :

إذا أبو قاسم جادت لنا يدُه لم يُحمد الأجدان البحرُ والمطر<sup>(٣)</sup>  
 وإن أضاءت لنا أنوارُ غُرّته تضامل الأنوران الشّمسُ والقمر<sup>(٤)</sup>  
 وإن مضى رأيه أو حدّ عزّته تأخر الماضيان السيفُ والقدرُ  
من لم يكن حذرًا من حدّ صولته لم يدر ما المزعجان الحوفُ والحدُرُ  
فالتطريز في قوله : الأجدان والأنوران والماضيان والمزعجان .

وقد نسب العلوى في الطراز<sup>(٥)</sup> الأبيات لابن الرومي في مدح عبد الله

(١) الوشوم : العلامات ، ماقفة والقططانة : موضعان .

(٢) روى أبوهلال هذا الشعر أيضًا في ديوان المعانى ، وفي هامشه أنه قاله في  
عبد الله بن عبد الله بن طاهر ، على ما في جنى الجنتين في تغيير نوعي المثنين للمعنى .

(٣) الذي في ديوان المعانى (إذا أبو أحمد . . . )

(٤) « « « (تضامل النيران . . . )

(٥) الطراز ج ٣ ص ٨٩ .

ابن سليمان بن وهب ، وجعلها في باب آخر سماه (التوشيع) ، قال : وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن أن يأتي المتكلم بمثني يفسره بمعطوف ومعطوف عليه ، وذلك من أجل أن الثنوية أصلها العطف فيوشع الاسم المثنى بما يدل على معناه ويرشد إليه على جهة العطف ، ومثاله قوله عليه السلام : يكبر ابن آدم ويشبّ معه خصلتان : الحرص وطول الأمل . وقوله عليه السلام : خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق . ومنه قول ابن الرومي يمدح عبد الله بن سليمان بن وهب ( وأورد الأبيات ) .

وعلى هذا فقد اختلف العسكري والعلوي في التسمية ، كما اختلفا في التعريف ، وقد ذكر العلوي "التطريز" أيضاً ، ولكن بمعنى يخالف المعنى الذي ذهب إليه العسكري فقال : هو تفعيل من طرحت الشوب ، إذا أتيت فيه بنقوش مختلفة ، واستيقاوه من الطراز وهو معرّب ، وهو في مصطلح علماء البيان مقول على ما يكون في صدر الكلام والشعر ، مشتملاً على ثلاثة أسماء مختلفة المعانى ، ثم يؤتى بالعجز فتسكرر فيه الثلاثة بلفظ واحد ومن أمثلته ما قال بعضهم :

وتسقيني وتشرب من رحيقِ خليقِ أن يلقب بالخلوقِ  
كان الكأس في يدها وفيها عقيق في عقيق في عقيقِ  
واراد بالثلاثة : يدها ، والمكأس ، والآخر ، وكلها محمرّة ، فكرر لفظِ  
العقيق إشارة إلى ما ذكرناه<sup>(١)</sup> .

ولا صلة بين هذا الكلام سواء من ناحية التعريف أو من ناحية الاستشهاد والمعنى الذي حدد به العسكري التطريز .

(١) الطراز ج ٣ ص ٩٢ .

#### (٤) الاستشهاد والاحتجاج :

وهذا الجنس كثیر في كلام القدماء والمخدثين ، وهو أحسن ما يتعاطى  
من أنواع صنعة الشعر ومحرر التذليل اتوليد المعنى . وهو أن تأتی  
بمعنى ثم توکده بمعنى آخر يحرر بحرى الاستشهاد على الأول والحجۃ  
على صحته . ومثاله من النثر ما كتب به الصاحب بن عباد في فصل له :  
« فلا تقص آخر أمرك بأوله ، ولا تجتمع بين صدره وعجزه ، ولا تحمل خواص  
صنفك على قوادمه ، فالإياء يملأه القطر فيفعم ، والصغر يقترب بالصغر  
فيعظم ، والدائم يلم ثم يصطلم ، والجرح يتباين ثم ينفتق ، والسيف يمس ثم  
يقطع ، والسم يرد ثم ينفذ . ومثاله من الشعر قول الشاعر :

إنما يعيش المنايا من الآلة  
وكذاك الرماح أول ما يك  
سر مهنّ في الحروب العوالي  
وقول أبي تمام :

عِتْقَةٌ وَسِيلَتْهُ وَأَيّْهَا قِيمَةٌ  
لِلْمَشْرِفِ الْعَصْبِ مَا لَمْ يَعْتَقِ  
وَالْتَّذْيِيلُ الَّذِي أَجْرَى الْعَسْكَرِيُّ الْأَسْتَشْهَادَ بِمَحْرَاهِ مَعْدُودٍ عِنْدَ الْأَدَبِ  
وَعَلِيَّاً الْبَلَاغَةِ فِي الدَّرْجَةِ الْقَصْوَى مِنَ الْبَلَاغَةِ، وَلَهُ فِي الْكَلَامِ مَوْقِعُ جَلِيلٍ  
وَمَكَانٍ شَرِيفٍ خَطِيرٍ، لَأَنَّ الْمَعْنَى يَزِدَّ دَادَ بِهِ اَنْشَارًا حَاطِنًا وَالْمَقْصِدُ اِتْضَاحًا، وَقَالَ  
بَعْضُ الْبَلَاغَاءِ «لِلْبَلَاغَةِ ثَلَاثَةٌ مَوَاضِعُ الْإِشَارَةِ وَالتَّذْيِيلِ وَالْمَسَاوَةِ»<sup>(١)</sup> وَهُوَ  
إِعْدَادُ الْأَلْفَاظِ الْمُتَرَادِقَةِ عَلَى الْمَعْنَى بَعْدِهِ، حَتَّى يَظْهُرَ لِمَنْ لَمْ يَفْهُمْهُ، وَيَتَوَكَّدُ  
عِنْدَ مَنْ فَهَمَهُ . . . وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي الْمُوَاطِنِ الْجَامِعَةِ، وَالْمُوَاقِفِ الْحَافِلَةِ،  
لَأَنَّ تَلْكَ الْمُوَاطِنَ تَجْمِعُ الْبَطْرِيَّهُ الْفَهْمِ وَالْبَعِيدَ الْذَّهْنِ وَالثَّاقِبَ الْقَرِيقَهُ وَالْجَيدَ  
الْخَاطِرَ، إِذَا تَكَرَّرَتِ الْأَلْفَاظُ عَلَى الْمَعْنَى الْوَاحِدِ تَوَكَّدُ عِنْدَ الْذَّهْنِ الْلَّقْنِ

٣٦٤ الصناعتين (١)

وصح للكليل البليد ، ومثاله من القرآن قول الله عز وجل ( ذلك جزءاً من  
بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكافر )

والفرق بينهما كما يبدو لنا أن الاستشهاد أو الاحتجاج إنما يكون بشيء  
مستقل عما سيق له الكلام ، وأن التذليل الذي يعنيه العسكري كما يبدو من  
أمثلته هو المتصل معناه بمعنى ماسيق له الكلام ، ولقد قسم السكاكي التذليل  
قسمين : أحدهما ما يجري بجرى المثل ، وهو ما استقل بإفاده المراد ، دون  
توقف على ما قبله ، وهذا هو الاستشهاد أو الاحتجاج عند العسكري .  
والثاني هو ما لا يجري بجرى المثل ، فلا يستقل بإفاده المراد بل يتوقف على  
ما قبله ، وإنما لم يخرج مخرج المثل ؛ لأن المثل وصفه الاستقلال لأن كلام تام  
نقل عن أصل استعماله لكل ما يشبه حال الاستعمال الأول ، كما هو  
المعروف في الاستعارة التمثيلية <sup>(١)</sup> ، وهذا النوع ( ما لا يجري بجرى المثل )  
هو وحده التذليل عند أبي هلال ، وهذا المحسن البديعي يكون في الشعر كما  
يكون في النثر ، وجعله البلاغيون بعد أبي هلال ضرباً من ضروب  
الإطناب في علم المعانى .

#### ٥) المضاعفة :

أن يتضمن الكلام معندين : معنى مصرح به ، ومعنى كالمشار <sup>(٢)</sup> إليه ،  
وذلك مثل قول الله تعالى ( ومنهم من يستمعون إليك فأفانت تسمع الصنم  
ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك ، فأفانت تهدى العُمَّى ولو كانوا  
لا يبصرون ) فالمعنى المقصود به في هذا الكلام أنه لا يقدر أن يهدى من  
عمى عن الآيات ، وصم عن الكلم البينات بمعنى أنه ليصرف قلبه عنها فلم  
يتنفع بسماعها ورؤيتها ، والمعنى المشار إليه فضل السمع على البصر ؛ لأنه

(١) شروح التلخيص ج ٣ ص ٢٢٦ . (٢) الصناعتين ٤١٠ .

جمل مع الصمم فقدان العقل ، ومع العمى فقدان النظر فقط . ومن ثُر الكِتَاب ما كتب به الحسن بن وهب : وكتابي إليك وشطر قلبك عندك ، والشطر الآخر غير خلو من تذكرةك والثناء على عهلك ، فأعطيك الله بركة وجهك ، وزاد في علو قدرك والنعمه عندك وعندينا فيك اقوله بركة وجهك فيه معنيان : أحدهما أنه دعاه بالبركة ، والآخر أنه جعل وجهه ذا بركة عظيمة ، ولمظمها عدل إليها في الدعاء عن غيرها من بركات المطر وغيره .

ومثله قول أبي العيناء : سألك حاجة فرددت بأربع من وجهك افضليّن هذا اللفظ. بقبح وجهه وبقبح رده .. ومن المنظوم قول الأخطل : قوم إذا استنج الأضياف كلهم قالوا لأمهم بولي على النار فأخبر عن إطفاء النار فدل على بخلهم ، وأشار إلى مهاتهم ومهانة أمهم عندهم ، وهذا الحسن كما رأيت يكون في الشعر والنشر .

#### (٦) التلطف :

وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجه ، والمعنى المحبين حتى تحسنه ، فن ذلك أن يحيى بن خالد البرمكي قال لعبد الملك بن صالح : أنت حقود ! فقال عبد الملك : إن كان الحقد عندك بقام الخير والشر فإنهما عندى لباقيان ! فقال يحيى : ما رأيت أحداً احتاج للحقد حتى حسنه غيرك ... ورأى على رجل طيسان صوف . فقال له : أيعجبك طيسانك هذا ؟ قال : نعم ! قال : إنه كان على شاة قبلك ! فهجّنه من وجه قريب . ونحن نرى أن هذا الأسلوب (أسلوب التلطف) قريب من أسلوب المنازرة المعروف ، وفيها يتصدى المتناظران لرأى يؤيده أحدهما ، ويؤنده غيره بأدلة خطابية ، وإن كان غير مقتنع بصحة ما يقول ، ولكن غايتها إبراز المقدرة الكلامية

والموهبة البيانية ، وهو أسلوب الخطابة والجدل الذي شاع عند اليونان قدماً في جماعة السفسطائيين .

ويعجب العسكري رأى ابن المقفع في تعريف البلاغة أنها كشف ما أغضب من الحق، وتصوير الحق في صورة الباطل، فيقول (ال العسكري) <sup>(١)</sup>: والذى قاله أمر صحيح ، لا يخفي موضع الصواب فيه على أحد من أهل التمييز والتحصيل ، وذلك لأن الأمر الظاهر الصحيح الثابت المكشوف ينادى على نفسه بالصحة ، ولا يحوج إلى التكلف لصحته حتى يوجد المعنى فيه خطياً ، وإنما الشأن في تحسين ما ليس بحسن ، وتصحيح ما ليس ب صحيح بضرب من الاحتيال والتخيّل ، ونوع من العلل والمعاريف والمعاذير ، ليخفى موضع الإشارة ، ويغمض موضع التقصير ، وما أكثر ما يحتاج الكاتب إلى هذا الجنس عند اعتذاره من هزيمة ، أو حاجته إلى تغيير رسم ، أو رفع منزلة ذي له فيه هوى ، أو حطف منزلة شريف استحق ذلك منه ، إلى غير ذلك من عوارض أموره .

فأعلى رتب البلاغة أن يكتج للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود ، وللمحمود حتى يصيره في صورة المذموم .

#### (٧) المشتق :

قال أبو هلال : وقد عرض لي بعد نظم هذه الأنواع نوع آخر لم يذكره أحد ، وسميته « المشتق » <sup>(٢)</sup> وهو على وجهين فوجه منها أن يشتق اللفظ

#### (١) الصناعتين ٥٣

(٢) فائدة — ذكر ابن حجة في خزاناته عند كلامه على الاشتراق ما لفظه : الاشتراق استخرجه الإمام أبو هلال العسكري ، وذكره في آخر أنواع البدع من كتابه المعروف بالصناعتين ، وعرفه بأن قال: هو أن يشتق المتكلّم من الاسم العلم ==

من اللفظ ، والآخر أن يشتق المعنى من اللفظ ، فاشتقاق اللفظ من اللفظ . هو مثل قوله الشاعر في رجل يقال له ينخاب « وكيف ينجح من نصف اسمه خابا » . وقلت في البانياس :

خوف و حيف و إقلال و إفلات  
في البانياس إذا أوطشت ساحتها  
و كيف يطعم في أمن وفي دعة  
من حل في بلد نصف اسمه ياس  
واشتقاد المعنى من اللفظ ، مثل قول أبي العتاھي :

حلقت لحية موسى باسمه وبهارون إذا ما قلبا  
وقال ابن دريد :

ما كان هذا النحو يقرأ عليه  
لو أوحى النحو إلى نفطويه  
أحرقه الله بنصف اسمه وصیر الباقي صراخاً عليه  
هذا هو جهد العسكري في البديع الذي زها به و تاه على هذا الوجه  
الذى يقول فيه : وقد فرغنا من شرح أبواب البديع و تبيين وجوهها  
وإيضاح طرقها والزيادة التي زدناها ستة فصول ( غير المشتق ) وأبرزناها  
في قوالبها ، من غير إخلال ولا إهزار . وإذا أردت أن تعرف فضلها على  
معامل في معناها قبلها فشل بينها وبينه فإنك تقضي لها عليه ، ولا تنصرف  
بالاستحسان عنها إليه إن شاء الله ( ١ ) .

ضم العسكري إلى المحسنات البديعية التي اهتدى إليها ابن المعتز و قدامة هذه  
المحسنات السبعة ، فتم ما استنبطه وما جمعه من هذه المحسنات ستة و ثلاثين نوعاً ،

---

== معنى في غرض يقصده من مدح أو هجاء أو غيره ، كقول ابن دريد في نفطويه  
( وأنشد ) . . . قلت : وهذا مما يتوجب منه ، فإن الفصل بحملته أمامك ، وليس  
فيه مما حكاه سوى بيتي ابن دريد فتأمل ! ( تعليق السيد محمد أمين الحاجي على نسخة  
الصناعتين التي أشرف عليها ص ٤٦ ) ( ١ ) الصناعتين ٤٦

على أن هذه المحسنات لم تبق في اصطلاحات المتأخرین حيث وضعتها العسكري  
وإماماً ماه بديعاً ، بل إن بعضها نقل إلى على البلاغة : البيان والمعانی ، فالاستعارة  
والتشبيه والكناية احتلت أمکناتها من علم البيان ، بل أصبحت أظہر شیء في  
هذا العلم بعد تنظیم أبوابه وجمع أطراfeه ، والتذیل والإیغال والتتمیم والتکمل  
والاعتراض جعلت ضروراً من الإطناب الذي احتل مكانه من مباحث علم  
المعانی ، ولا يعب العسكري على هذا ، فله ولمن تقدمه فضل السبق والإضافة .  
ولمن جاء بعده التصنيف والتقسیم ، ووضع كل شیء موضعه ولکنه هو  
الذی راد الطريق ويسر السیل — سیل الافتتان في الصناعة — جعلها  
ابن رشیق القیروانی صاحب العمدة خمسة وستين باباً من الشعر ، وتلاه شرف  
الدین الشاشی ، فبلغ بها السبعین ، ثم تکلم فيها ابن أبي الأصبع وكتابه المحرر  
أصبح کتب هذا الفن ، لاشتماله على النقل والنقد ، ذکر أنه لم يؤلفه حتى  
وقفت على أربعين كتاباً في هذا العلم أو بعضه ، وعددها فأوصلها إلى تسعين  
وادعى أنه استخرج هو ثلاثة سیل له منها عشرون ، وما قبلها متداخلي  
أو مسبوق به ، وصنف ابن منقذ کتاب التفریع في البیدع جمع فيه خمسة  
وتسعین نوعاً ، ثم إن السکاکی اقتصر في مفتاح العلوم على سبعة وعشرين ،  
ثم فعل ما فعل ابن المعتر ، فقال إن لك تستخرج من هذا القبیل ما شئت ،  
وتلقب کلاً من ذلك بما أحبت .

ثم إن صنف الدین بن سرایا الحلى جمع مائة وأربعين نوعاً في قصيدة  
نبوية في مدحه رسول الله صلی الله علیه وسلم <sup>(١)</sup> .

نلاحظ أن العسكري لم يقسم هذه البدیعیات إلى محسنات لفظیة ومحسنات  
معنیویة ، وإنما فعل ذلك السکاکی فيما بعد . الواقع أن هذا التقسیم غير

(١) عروس الأفراح — شروح التلخیص ج ٤ ص ٦٧

دقيق، فإن أكثر هذه المحسنات متداخل بعضها في بعض ، حتى أولئك الذين قسموها هذا التقسيم قالوا : « إن المحسن المعنى منسوب إلى المعنى أولاً وبالذات ، بمعنى أن ذلك التحسين قصد أن يكون تحسيناً للمعنى ، وذلك القصد متعلق بتحسين المعنى أولاً ومتصل به لذاته ، وأما تعلق القصد بكل منه تحسيناً لللفظ فيكون ثانياً بالعرض . وإنما قلنا هكذا لأن هذه الأوجه قد يكون بعضها محسناً لللفظ ، لكن القصد الأصلي منها إنما هو إلى كونها محسنة لمعنى كافى المشاكلة ، إذ هي ذكر الشيء بالفظ غيره لوقوعه في صحبة ذلك الغير كقوله :

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه      قلت اطبخوا لي جبة وقيضا

فقد عبر عن الخياطة بالطبيخ لوقعها في صحبته ، فاللفظ حسن لما فيه من إيهام المجانسة اللغوية ، لأن المعنى مختلف واللفظ متفق ، لكن الفرض الأصلي جعل الخياطة كطبيخ المطبوخ في اقتراحها لوقعها في صحبته ، فإن تعلق الضرر بتحسينه اللغوي المشار إليه فهو بالعرض وعلى وجه المرجوحة ، وقيل إن الحسن فيها لفظي لأن مشاهء اللفظ ... وكما في العكس في قوله : عادات السادات سادات العادات ، فإن في اللفظ شبه الجنس اللغوي ، لا خلاف المعنى ، ففيه التحسين اللغوي ، والفرض الأصلي الإخبار بعكس الإضافة مع وجود الصحة .

واللغوي تحسين لفظ بالذات وإن يتبع ذلك تحسين المعنى لأنه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسن معناه تبعاً ، وإن شئت قلت في التحسين المعنى أيضاً إن كونه بالذات معناه أن ذلك هو المقصود ، ويتبعد تحسين اللفظ دائماً ، لأنه كلما أفيد بلفظ معنى حسن تبعه حسن اللفظ الدال عليه<sup>(١)</sup>

(١) مواهب الفتاح - شروح التلخيص ج ٤ ص ٢٨٥

وإمام البلاغة عبد القاهر يرى أنك لا تجده تجنيساً مقبولاً ولا سجناً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده تجنيساً مقبولاً لا تبتفى به بدلًا ولا تجده عنه حولاً<sup>(١)</sup>.

فتح أبو هلال باب الصناعة على مصراعيه ، وزها بالمحسنات الستة التي وفق إليها ، ثم بهذا المحسن «المشتق» ، الذي اهتدى إليه بعدها ، فكان هدف الذين أتوا بعده أن يدركون من الفخر وأسباب الزهو ما أدرك ، فجدوا ما وسعهم الجد ، وبذلوا في هذه السبيل أقصى ما يبذل من جهد ، حتى اهتدوا إلى هذه المحسنات التي لا يكاد يدركها الحصر .

ولقد وقفت حركة النقد عند هذه الحدود ، فات الغراس الذي غرسه رجال النقد النموذجي الذين بدموا نشاطاً هو أقرب إلى طبيعة الفن الأدبي ، فدرسوا نصوص الأدب وبذلوا جهداً في الموازنة والمفاضلة ، والوساطة بين الخصوم والأنصار ، ونقد ما ذهب إليه كلا الفريقين من الغلو والتعمت في الاستحسان أو الاستهجان ، وكان ذلك الأسلوب أجدى في نظرنا ، أولاً لأنه الأسلوب الفطري الذي يحتمل إلى الذوق أول ما يحيط به ، وهو أقرب إلى طبيعة هذا الفن الأدبي ، وثانياً أنه لا يخل حركة النقد ، إذ أن أحکامه متتجدد بتجدد الأيام ، وما يستحدث في البيئات من حضارة مادية أو معنوية ، ولكل واحدة منها أثرها في الأدب والأدباء والنقد والنقاد ، فإن الذوق متتجدد بتجدد هذه الأمور ، ولعل هذا هو السر في تحجر البلاغة منذ أصبحت قواعد تُتعلّم ، وأصولاً تلقن ، وخلافاً كلامياً وعقلياً في فهم الكلمات وصحة التقسيم ، والله در ابن قتيبة حين يقول : ولو أن هذا المعجب بنفسه الزارى على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر لأشياء الله بنور المدى

---

(١) أسرار البلاغة ٧ .

وَلَهُجَ الْيَقِينِ ، وَلَكِنَّهُ طَالَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ فِي عِلْمِ الْكِتَابِ وَفِي أَخْبَارِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَحَابَتِهِ ، وَفِي عِلْمِ الْعَرَبِ وَلِغَاتِهَا وَآدَابِهَا ، فَنَصَبَ لَذَلِكِ وَعَادَاهُ . . . وَالْكَلَامُ أَرْبَعَةُ أَمْرٍ وَخَبْرٌ وَاسْتَخْبَارٌ وَرَغْبَةٌ ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُهَا الصَّدْقُ وَالْكَذْبُ ، وَهِيَ الْأَمْرُ وَالْإِسْتَخْبَارُ وَالرَّغْبَةُ ، وَوَاحِدٌ يَدْخُلُهُ الصَّدْقُ وَالْكَذْبُ وَهُوَ الْخَبْرُ ، وَالْخَبْرُ يَنْقَسِمُ إِلَى تِسْعَةِ آلَافٍ وَكَذَا كَذَا مَائَةٌ مِنَ الْوُجُوهِ . فَإِذَا أَرَادَ الْمُتَكَلِّمُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ بَعْضَ تِلْكَ الْوُجُوهِ فِي كَلَامِهِ كَانَ وَبَالًا عَلَى لِعْتِهِ ، وَقِيدًا لِلسَّانِهِ ، وَعِيًّا فِي الْمُحَاقِلِ ، وَغَفَلَةً عَنِ الْمُتَنَاظِرِينَ<sup>(١)</sup> .

كَانَ هَذِهِ الرُّوحُ الَّتِي أَمْلَتْ عَلَى الْبَلَاغِيْنَ مَا فَعَلُوا أَسْوَأَ الْأَثْرِ فِي إِنْتَاجِ الْأَدْبُورِ فَطَغَتِ الصَّنَاعَةُ عَلَى الْأَدْبُورِ طَغْيَانًا ظَاهِرًا ، خَفِيتْ مَعَهُ الْمَعْنَى حَتَّى أَصْبَحَ الْأَدْبُورُ صَدِّيَّ لَا أَصْلَ لَهُ ، وَجَسْدًا لَا رُوحَ فِيهِ ، وَظَلَّ هَذَا قَرْوَانًا طَوَالًا ، وَظَلَّ الْأَدْبَاءُ أَسْرَى هَذِهِ القيودِ الَّتِي فَرَضَهَا النَّقَادُ الَّذِينَ أَصْبَحُوا لَا يَسْتَجِيدُونَ الْكَلَامَ إِلَّا بِمَا حَوَى مِنْ ضَرْبَ التَّحْسِينِ الْبَدِيعِيِّ ، وَقَدْ تَجَدَّدَ فِي كَلَامِ الْمُتَأْخِرِينَ الْآنَ كَلَامًا حَمِلَ صَاحِبَهُ فَرْطَ شَغْفِهِ بِأَمْرِ تَرْجِعِ إِلَى مَالِهِ الْأَسْمَ الْبَدِيعِ إِلَى أَنْ يَنْسَى أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ لِيَفْهُمُ وَيَقُولُ لِيَبْيَسُ ، وَيَخْيَلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ إِذَا جَمَعَ بَيْنَ أَقْسَامِ الْبَدِيعِ فِي بَيْتٍ فَلَا ضَيْرَ أَنْ يَقْعُدَ مَا عَنَاهُ عَمِيَّاءُ ، وَأَنْ يَوْقَعَ السَّامِعُ مِنْ طَلَبِهِ فِي خَبْطِ عَشَوَاءَ ، وَرَبِّما طَمَسَ بِكَثِيرَةِ مَا يَتَكَلَّمُهُ عَلَى الْمَعْنَى وَأَفْسَدَهُ ، كَمْ ثَقَلَ الْعَرَوْسُ بِأَصْنَافِ الْحَلِّ ، حَتَّى يَنْهَا مِنْ ذَلِكَ مَكْرُوهَهُ فِي نَفْسِهَا<sup>(٢)</sup> ، لَقَدْ أَصْبَحَ الْأَدْبُورُ بِهَذِهِ الْفَنَّوْنَ صَنَاعَةً أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ مِنْهَا إِلَى تَعْبِيرِ عَوَاطِفِ وَإِعْرَابِ عَنِ مَشَاعِرِ وَأَحَاسِيسِ ، فَفَسَدَتْ أَذْوَاقُ الْأَدْبَاءِ بِفَسَادِ أَذْوَاقِ النَّقَادِ ، وَالْبَلَاغِيُّونَ هُمُ الَّذِينَ جَنَوا عَلَى الْأَدْبُورِ هَذِهِ الْجَنَاحِيَّةِ بِالْمَقَايِيسِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا ، وَالْقَوْاعِدِ الَّتِي رَسَمُوهَا ، وَكَبَلُوا الْأَدْبَاءَ بِأَغْلَالِهَا.

. (١) أَدْبُ الْكَاتِبِ ٢ - ٤ (٢) أَسْرَارُ الْبَلَاغَةِ ٧

ولنا أن نضيف إلى جنائية هؤلاء النقاد من رجال البديع وعشاق التصنيع  
على الأدب والأدباء ، جنائية التاريخ على هذه الأمة العربية وعلى عقليتها ،  
فإن تلك الأحداث السياسية التي اعتبرت هذه البقاع فهزتها هزاً عنيفاً ،  
تزلزل معه هذا الكيان الراسخ ، وتفرق بددآ ، وهؤلاء الحكماء أولى  
البطش والجبروت ، وهذه الآفات التي أودت بالأجساد وفتكت بالعقل ،  
كل أوئلئك كان له أبعد الأثر في حياة هذه الأمة ، ونشأ عنهم الانهيار العقلي ،  
حين نضبت موارد الفكر ، وحجبت أصوات المعرفة ، وحيل بينها وبين  
الوصول إلى قرار القلوب ، ومنبع التفكير ، فهطلت الملائكة وفسدت  
الأذواق لما غلب على الأجساد الإعياء ، وحرمت العقول الغذاء . فلم يكن  
بد من هذا التردى في التماس الخل والاصباغ عليها تخون الحقيقة الشوهاء ،  
وهكذا صار الأدب طلاء على غير بناء ، ولا يزال كذلك حتى تدب الحياة  
في الأوصال من جديد ، وتبعث الأمة من مرقدها ، وتنقض عنها غبار  
الستين ، و تستعيد مجدها السالف وعزها الموروث في قوة وحياة .





مكتبة لسان العرب

[www.lisanarab.com](http://www.lisanarab.com)

الرابط بديل [lisanerab.com](http://lisanerab.com)

الثمن ٣٥ قرشاً